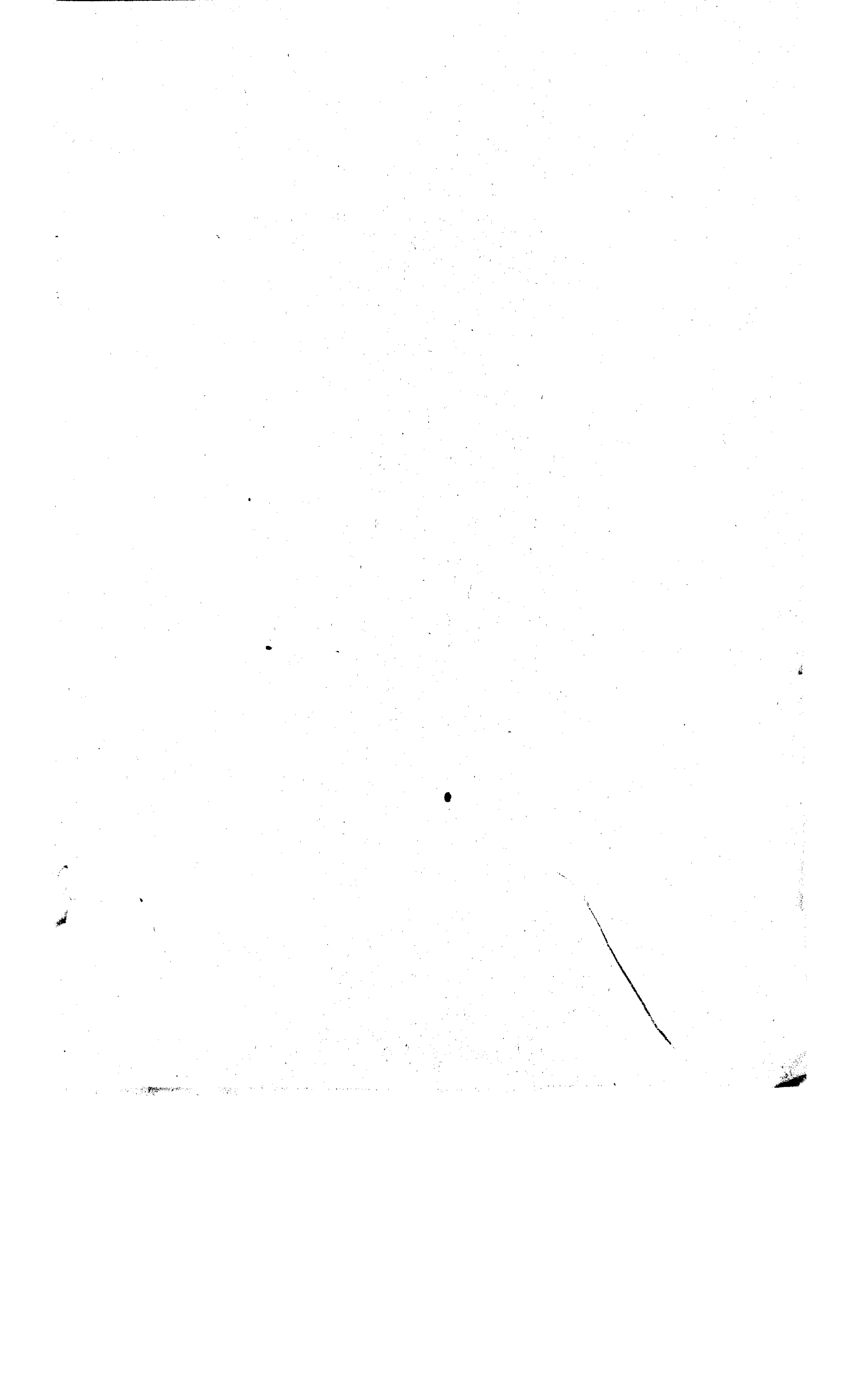
ملكات الوعي الإنساني
في القرآن الكريم

تأليف
دكتور
عبد الله يوسف الشاذلي
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى ١٤٠٧ — ١٩٨٧



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــالى :

فاعتبروا يأولى الأبصـــار

٢ الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

الى والدى الكريم الذى نشـأ مع القـرآن حفظا ، وعاش معه تلاوة ومات عليه دينا ، الى هـذا القلب الطيب والوجه الذى لم يعرف العبوس ، واللسان الذى تجـرد من البذاءة والفحش ، وتحلى بالذكـر والاستغفار ، وأمسك عن الغيبة والنميمة ، ونطق بالظرف الذى يدخل السرور على الصـغير والكبير الى من عاش لا يعادى أحدا ، ولا يكيـد لأخ له فى الله ، لم يقف موقفـا يبغضه الناس فيـه ، ولا تفـوه بكلمـة تثير حنق الآخرين ، ولا آراء راء الا وتمنى أن يجالسه ليستمتع بظرفه • ولا جالسه مجالس الا ومضى الوقت الطـويل خلسة شـهدته ساحات المساجد عابدا ، وساحات المجالس مرتلا وذاكرا والمـآذن مناديا ، كما شهدته ساحات الاخوان وفيا ، عاش بين الشظف والرغد ، والصحة والمرض حتى لقى ربه راضيا ، لقى ربه قبل أن تينع ثمـار كاتب هـذه السطور ، وقبـل أن يشهد بعينيه ويسر بخاطره هـذا الغرس الذى أودعه ونمـاه يؤتى أكلـه ويمـد ظله ، لقد بكيته بمـا لم يبك ابن أباه ، وما زلت رغم تقدم السن تفيض عينى عند ذكراه ، لقد كان أبا وصديقا وأنيسا اليـك يا أبى أهدى هذه السطور ، كما أهدى اليك كل كلمـة صادقة خرجت منى دعوة فى سبيل الله ، وكل دعاء مخلص فاض من لسـانى الى ربى فى لحظـات الخشوع ، وساعات الصـفاء ، فأنت صاحب الفضل — بعد الله — فيما أنا فيه •

والله أسأل أن يهبك رحماته ، وأن يغدق عليك فضله وعفـوه وأن يبرك فى دار ضيافته ، وأن ينظر اليـك بعين الرضا والمغفـرة أنت ووالدتى انه بر رحيم وعفو كريم •

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العــالمين ، أحمــده حمدا ينبغى لجلال وجهــه وعظيم سلطانه ، حمــد الذى تكاثرت عليه النعم ، وهطلت عليه المواهب ، وتكاثرت من حوله المكارم ، وأحس من نفسه ضعف المنازل ، وقلة المساعى ، وعوز الحيلة وقصور التدبير ، وضآلة الجهد والعمل ، وقليل من الطاعة والعبادة ، هاله ما رأى من نعــم مولاه ؛ وجود ســيده فاحتقر العبد نفسه ، واستصغر بذله ، ثم تذكر أنه ضعيف ووليــه قوى ، وأنه فقير وربه غنى وأنه عاجز وخالقه قادر ، وأنه صغير والهه كبير متعال ، وأنه قصــير البــاع ومانحه واسع عليم ، وأنه قليل الحيلة والكريم يبسط الرزق لمن يشاء بغير حساب ، وأنه خطاء تواب والرحيم عفو حليم ، هاله كل ما علم عن مذلة نفســه وضعفها وما علم من عفو ربه وعطائه فاستصغر من لسانه كل كلمــة شكر ، وكل عبارة حمــد ، فلما انعقد لسانه لمــا به فى نفسه ؛ ولمــا عليه سيده فى ذاته وعطائه توجه بقلبه الى ربه مناجيا بالحال : كل لسانى وجف رحيق مدادى ، وتناهت عبارتى ، ورأيت ملكك لا يسع ثنــائى ، ولغاتى لا تفى بحقك على فتحقق قلبى بالعجــز واعترف لسانى بالفقد ، فآثرت شكر الحال فى تلك اللحظة ليقوم مقام شكر المقــال ، وأطلقت من قلبى حمــد العجز ليسد مسد الكلمــة .

ولمــا سرى عنى فى مقامى هــذا شكرته شكر اللائذ لجنابه ، الراجى نواله ، المستكثر من عطائه ، الطالب لجوده ، الداعى بمغفرته المقبل على مواهبه ، السائل بالتوفيــق فى طاعته ، المستقل لعبادته ، الذى يدعوه ويسأله سر الاخلاص لعظمته .

لك الحمد والشكر يا من تفــرد بالأحدية ، واتصف بالقدرة ، وبسط لمن يشاء النعمة ، وسمى نفسه واتصف بكل وصف يليق بذاته ، علم أن العقول لا تسميه فسمى ذاته ، وأنها تقصر عن وصفه فوصف

كمالاته وبينها راحة للنفس ، وكمالالها ، وابعادا للعقل عن الزلل ، وأحاط علما بعجزنا عن ادراك الغيب قبلنا وبعدنا فحدثنا عما كان قبل وعما يكون بعد ، وقال لنـا ذلك غيبى فاسمعوا ، وتلك صفاتى وأسمائى فآمنوا ، وما تحيون عليه وتحته وفيـه كونى فانظرى هل أبدعه غيرى ؟ وما تطعمـونه وترزقونه عطـائى هل منحه لكم أحـد دونى ؟ لم أكلكم الى منحة العقل فمجالها ضيق ، وأكوانى المشهودة والغيبية رحبـة ، فأنزلت علما من لدنى أبلغكم فيه عنى ، وأحدثكم عن مرادى ، وأفضل لكم مطلوبى ، وأخبركم عما خفى عليكم .

وحمل كلامى اليكم خصائص علمى الاحاطى ، فجاء معجزا فى لفظه ، وأخبـاره ، دقيقا فى تركيبه ، محكما فى صـياغته وترتيبه ، مقنعا فى منطقه وحجته ، لم أرده معجزة لفظية ، ولكن أردته معجزة فى بيانه وأحكامه وبراهينه ، لم أرده صورة بلاغية بديعة ، انمـا أحكمته فصيحا فى بلاغتـه ، مذكرا بمواعظه هاديا بأدلتـه ، مفحما بردوده ، عادلا فى تشريعه وأحكامه ، ميزانا فى ضبطه ، قسطاسا فى نظامه ، وأرسلت به نبى البيـان ، ورسول البرهان ، من أوتى جوامع الكلم ، وأعطى عميـق الحكم ، لم يبهر البشرية بالمعجزات فحسب وانمـا دلهم على اليقين بالحجة ، ونبه أذهانهم الى الاستدلال ، وحذرهم من زيف الدعاوى ، وبطـلان الأقاويل صلى الله عليـه وعلى آلـه وأصحابه ومن اهتدى بهديه ونهج نهجه واتبع سبيله .

وبعــد :

فان طبيعة القرآن كما أشرنا اعجازية كلها : ان الحرف والحركة والكلمة والجملة والآية والسورة والمثل والقصة والبرهان والحجة ، وتصريف كل ذلك وضع بطريقة معجزة ، والقرآن من تلك الناحية قادر على الاقناع والرد ، والجدال والافحام مهما تغيرت العصور وتواردت الشبه [ستكون فتن كقطـع الليـل المظلم] قال الامام على راوى الحديث [وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى

فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره آضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتيسر به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم] رواه الترمذى فى صحيحه ، وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى النحوى اللغوى فى كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموه من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد] الى آخر الحديث فله بقية .

وأيضا فهو راحة النفس المؤمنة ، وطمأنينة القلب المتيقن بما يحمل من تذكير وتبصير ، وتهذيب ، وانه كتاب فسيح المعنى ، يحمل فى طياته وجوها من المراد تستغرق أحداثا متعددة ، وتستنفد جهودا فى الفهم والتنقيب لا لصعوبتها ولكن لسعتها ، وكل عقل يصل فيه الى مغنم ، وينتهى عند قدم معين وتتوالى الفهوم والجهود ويظل القرآن شامخا مليئا بجديد الأسرار ومخزونها .

ان هذا الكتاب الذى لا تتجاوز صفحاته خمسمائة واثنين وعشرين صفحة (١) قد كتبت فيه آلاف المجلدات والبحوث ومع ذلك

---

(١) وذلك بالنسبة للمصحف ذى الخمسة عشر سطرا .

لم يقل أحد انه قد انتهى فى القــرآن بفهمه الى المقصود من المعنى ، والى الآن وســيظل اذا أراد عاقل أو أديب أو عبقــرى أن يكتب فى القرآن فســيجد له مكانا جديدا لم يطرق ، وسيجد فيه شعاعا من المعرفة يهديه على الطريق الى فكرة جديدة ، ولسوف تستمر الأقلام ، وتعمل الأفكار ، وتجتهد البصائر ، وتنهل كلها من معين القرآن وهو لا ينضب .

واذا ما تحير أحد فى اختيار جانب من جوانب هــذا الكتاب ، وتصور أن الأولين ما تركوا للآخرين شيئا فهذا راجع الى ضيق أفق الباحث ، وقصور نظرته ، وقلة تدبره ، أو الى نضوب ثقافته وجفافها ، أو الى غشاوة تكسو صفحة قلبه .

ان كثيرا من الجوانب القرآنية ما زالت تحتاج الى دراسة ثاقبة فى ضوء تقــدم وسائل البحث ومناهجه ، وفى عصر خطا العلم فيه خطوات فسيحة ، وأن معانى هــذا الكتاب لتكشف كلمــا استنار العقل ، وتقدمت فنون بحثه وابتكارنه على عكس الكتب الســابقة التى تتصادم مع المنجزات العلمية المستحدثة لمــا فعلت بها أيدى العابثين ، ولا انقضاء العصر الذى قدر لهــا أن تعمل فيه .

ومن هنا تبرز عظمــة القــرآن الكريم ، انه لا يصادم العــلم ولا يعوقه ، وانما يعتبر رائدا أمامه كما أنه دافع عليه ، ففى البداية بحث على العلم ، ويشــجع على الابتكار ، ويتقدم فى النهــاية على انتاج العقل البشرى فى مجالات البناء الصحيح للانسان : فى فكره وعقيدته ، وأخلاقه وعلاقاته وأسرته ومجتمعه .

ولقد هزم أصول حضارات الفرس والرومان وما قامت عليه لقوة فى توجيهه ، وحكمة فى مبادئه ، وعدالة فى نظمه ، وشــهد بعد ذلك قيام حضارتين :

أحداها قامت على الأرض التى سادها حكمه ، وتعتبر الأسباب التى أدت الى قيامها نابعة من تعاليمه ومن الحرية التى منحها للعقل الانسانى ، ومن مطالبته المستمرة للمدارك الانسانية أن تجتهد فى كل شىء ، وأن تبتكر لتبنى حياة جديدة لاسعاد البشرية فى الدنيا ، تماما كما فرض عليها اقامة الشعائر الدينية لتسعد فى الآخرة .

وان هذا الكتاب الذى صحح تصورات العقول أولا وقادها الى التفكير السليم واليقين ثانيا ، ثم حفزها على الفهم والاجتهاد ، وتوليدالمعانى واشتقاقاتها هو نفسه الذى حكم علىأفكار تلك الحضارة ذاتها بأنها تجاوزت حدود الفهم المتزن ، وهب علماء أجلاء — كانوا قد قطعوا أشواطا بعيدة فى العلم تحت تأثير العقل ثم جرفهم التيار — يعلنون العودة الى ميزان القرآن ، وذلك بعد أن توقفوا فترة فى عملية تقويم فكرية لما هم عليه ، عانوا خلالها من صراع نفسى حاد ، ولقد وزنوا فكرهم أثناء عملية التوقف بميزان العلم ذاته فوجدوه فى مرتبة أدنى بكثير من مرتبة العلم فى ضوء القرآن فانخلعوا بعد ذلك من حالهم ، وأعلنوا البراءة ، ولجأوا من جديد الى رحاب القرآن وعلومه (٢) .

وتعتبر تلك الحالة وغيرها من الحالات التى قام أصحابها بالنقد والتمحيص للحضارة شاهدة على أن القرآن وان أطلق الحرية للعقل الا أن هذا الأخير يضل كثيرا لو نسى فى زحمة انطلاقه الأساس الذى منه صدر وينحرف أكثر كلما غرته حريته فراح يزن الأمور بميزان الفكر لا بميزان العدل الالهى من خلال كلامه وأحكامه.

وما زلنا الى يومنا هذا نشيد بالحضارة الاسلامية وأثرها فى العالم الاسلامى ، وتأثيرها على الشرق والغرب ودورها فى حفظ

---

(٢) مثل : المحاسبى ، ابو طالب المكى ، الغزالى : الفخر الرازى وغيرهم وسوف نشير الى طرف من اخبارهم فيما بعد .

التراث الانسانى ، والاضافة اليه ، ونقرر فى الوقت نفسه نحن — المسلمين وغير المسلمين — أن الاسلام هو الذى هيأ الأذهان اليها ، ونؤكد مع تلك الحقيقة على عناصر الانحراف لدى كثير من علماء الكلام والفلاسفة ، ونبرز الاتجاه المادى الذى انتشر مع سريان الحضارة ، وما نتج عنه من تفريط فى أحكام الدين ، واستهانة بمبادئه ، وتتوالى البحوث لتشرح أسباب هذا الانحراف الفكرى من داخل المجتمع الاسلامى وخارجه .

وكذلك تؤكد تلك الدراسات على أن المنزلق الذى اندفعت اليه الحضارة الاسلامية بعيدا عن ضوابط القرآن وتوجيهاته مع الفساد السياسى ، والنوايا الخبيثة التى كاد أربابها للاسلام ممن انتسب اليه زورا أو ممن حنق عليه وعلى المؤمنين به من خارج اتباعه ، كل هذا قد تسبب فى افساد الحضارة وتشويه نضارتها وعجل بتفتيت الأمة وضياع هيبتها ، الأمر الذى أطمع عدوها فيها قرنا بعد قرن حتى تمكن منها اليوم ، ويعلن المخلصون أنه لا سبيل الى القوة والوحدة الا بالعودة الصحيحة لهذا الضابط العادل والدافع القوى وهو القرآن .

وثانى هاتين الحضارتين اللتين شهدهما القرآن تلك التى نحيا فيها ، وهى وان لم تنشأ على بقاع اسلامية فانها قامت بمؤثرات تنبع من الدين الاسلامى ذاته ، وكانت دوافعها التى أنارت العقل الأوربى وهزته هزا عنيفا ليستفيق ويقاوم الاستبداد الدينى على أرضه ، أعنى استبداد رجال الدين وقسوتهم ، كانت تلك الدوافع مستوحاة من احتكاك الغرب بالمسلمين فى الأندلس وغيرها ، وكان أشد تلك الدوافع تحريكا هو الحرية التى يستمتع بها المسلم فى تفكيره ورأيه ، بالاضافة الى النتائج العلمية التى حصلوا عليها ابتداء من القرن العاشر وما بعده ، تلك الحرية التى هى ثمرة مباشرة لتوجيه القرآن الى التفكير والفهم والاجتهاد .

أقول ها هو القرآن اليوم يشهد من جديد قيام حضارة فاق انتاجهـا أى تصور للعقول من قبلنـا ، بل وتصور عقولنـا نحن لمـا تفاجئنا به كل مدة وجيزة بما لا يدور فى خلدنا ، ومع ذلك فان أى دراسة حول نظام تشريعى أو اجتماعى ، أو حتى بعض الاشارات العلمية نجـد القرآن رائدا وشامخا ومعجزا .

وان المنهجية التى يتحدث بها القرآن عندما نحسن عرضها تذهل عقول الغربيين ممن لا يعرفها ، أو ممن ضللهم مفكروهم الحانقون . وحالوا دون وضوحها فى أذهانهم ، وما أدل على صحة ما نقوله من نتـائج المؤتمر الطبى الاسـلامى الذى انعقد بالقاهرة فى أواخر عام ١٩٨٥ وأوائل عام ١٣٠٦ هـ فلقـد اعترف بعض الغربيين المؤتمرين أنه لأول مرة يخاطبنا المسـلمون بلغتنا ومنهجنا ، وهو ما أدى الى اسلام عدد منهم ، وأيضا فان بعض الغربيين من الشخصيات البارزة الذين يسلمون يعتبرون شهداء على أقوامهم ، وعلامة بارزة على صدق ما نقول فى عظمة القرآن .

واذ قـد وصلنا الى تلك النقطة فلا بد أن نقرر سويا مع الذين ينادون بضرورة الاعتماد على منهج القرآن فى سياسة الحياة عامة ، وضبط جميع شئوونها ، وفى تقرير العقائد بصفة خاصة . والاستدلال عليها ، ورد شبه الخصوم ، ومن اللازم أن يعمل العقل مجتهدا حول الحجج القرآنية ، ومتفحصا بدقة طرائق القرآن ومسـالكه ، وأن يقـدم منها ما يناسب كل طالب ، والعقل فى هذا الاطار سوف يخرج مادة دسمة من الاستدلال من النص القرآنى وتركيبه ، وخصائصه الفنية واللغوية ، ومن خلال تضافر الجهود السابقة ، وفى ضوء الافادة بطرائق العلم الحديثـة .

وسنطلع على أدلة قوية لاثبات الألوهية الواحـدة ، وتوضيح ما يتصل بذات الله وصفاته وأفعاله ، وعلى براهين دامغة للرد على المـاديين والملحدين ، واننا لنكتشف بعد اليقين القلبى علاجا للصراع

النفسى الذى ينتاب البشرية اليوم ، والقرآن يمدنا براحة وطمأنينة نفسية يستشعر الانسان معهما معنى الحيـــاة ، ولــذة الوجود فى هذا الكون ، ويتطلع الى أفق بعيد وراءه ، كما أننا فى أمس الحاجة الى عدالة التشريع الالهى لتقضى على شيوع الجريمة والتفنن فى أساليب ارتكابها بنفس الدرجة التى نحتاج فيها الى اليقين القلبى والقناعة العقلية ، وان الكتاب العزيز وهو يقــدم السكينة الايمانية القلبية ، والعدالة التشريعية انما يزجى للانسانية دائما خيرا لهــا فى عقيدتها وفى أنظمتها ، وهو خير لا غنى للبشرية عنه ، وان الوقت قــد حان ويلح فى أن يطلع المخلصون من العلماء بهذا العبء ، وأن يقــوم فريق من المتخصصين فى مجال أصــول الدين ، وفى الفقــة الاسلامى باخراج المطلوب .

وعلى الأزهر الشريف بالذات ، وعلى جميع الأقســام العلميــة المتخصصة التى تهتم بالعقيدة والشريعة أن تتكاتف وتتساند ، وتنظم خطوتها وخططها وفاء لهذا الغرض ، وأن تنبــذ الخلاف والفرقة ، وتودع الفئوية الجاهلة وتتنبه للواجب المنوط بها ، اننا نلمس من خلال العلاقات الشخصية والعلمية أنه يوجد فريق من الباحثين فى جامعاتنا يمكنهم — لو اتجهوا اتجاها صحيحا — أن يقــدموا للأمة أسمى ما تحتاج اليه فى فكرها ونظامها ومجتمعها وثقافتها وتربيتها ، وأن يصححوا أفكار معاصريهم الشاردة ، وأن يقودوهم بوعى الى رحاب القرآن ومأدبته والى موازين الدين ومعاييره .

والمجتمعات الاســلامية اليوم بحالتها الراهنة — السياسية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية — فى حاجة ماسة الى ثورة فكرية شاملة تصحح ما أحدثته — ظروف العصر من فســاد عام ، ولن تقوم تلك الثورة الفكرية النابعة من الدين الا على أكتاف المثقفين المستنيرين أصحاب الوعى والمبدأ ، وأصحاب الولاء للاسلام والانتماء اليه ، هذا الانتماء والولاء الصادر من يقين كل مثقف بأنه لا مناص فى

حل مشاكلنا الا بمنهاج القرآن ، ولقد جربنا غيره فما ازددنا الا تعاسة وسوءا فلنثق فى يقين راسخ بأنه هو الحل أولا وأخيرا ودائما ، وعلى المثقفين عامة والمتخصصين خاصة ، وأساتذة الجامعات بصورة أخص أن يدركوا بأن عناصر الثورة الفكرية الدينية ، وأصولها الاسلامية ، وأساليب انتشارها ، والعقول التى تهتم بها ، والأصوات التى تنادى من أجلها ، والأقلام التى تدبج أفكارها لن تقوم على أكتاف العمال ، ومن فى مستواهم ، انهم بحاجة الى معونة اخوانهم المثقفين كى ينيروا لهم الطريق الذى غابت شمسه ، وطال ليله ، بل وان فريقا من المثقفين نراه ضل الطريق فهم بحاجةالى من يرشدهم بالحجة ، ويردعهم بالوسيلة المناسبة كى يفيئوا الى الحق ، وليعلم أساتذة الجامعات وأرباب الأقلام والفكر ومحبى الثقافة ، وكل مستنير أن هده مهمة أجيالنا فاما أن يقوموا بها واما أن ينتظروا مصيرا أسوأ ، وسوف تلعننا الأجيال القادمة لأننا تسببنا فى افسادها وتأخرها .

ولا ينبغى أن نترك مصيرنا ومصير من بعدنا لفئات قصرت ثقافتها عن أن تحدد مصير أمة ، وترسم لها طريق الحياة ، ونضب معين تفكيرها عن أن تخطط لآمالها وأهدافها ، علينا أن نقتحم عرينها وخندقها مهما تحصنت بوسائل القسر والارهاب والرعب وأن نعدل مسيرتها ، ونعالج الأمراض الناجمة عن تصرفاتها ونزواتها .

وأزهرنا الحبيب قد بقى له الآن شىء من الرمق ، فاما أن ينفث فى كيانه الحياة من جديد ، وأن يجعل روح الوجود العلمى تسوده ، كى يستعيد ريادته الدينية والفكرية والسياسية بين الأمة ، واما أن ينتظر مصيرا سيئا جدا لا ندرى لعله يكون مجرد ذكرى فيما بعد لو سار على نفس الخط الذى يسير عليه ، ان الهاوية التى ينحدر اليها سحيقة وان كل خطوة تنحدر بشدة نحو الهاوية عما سبقتها وان جيل الأزهر الحاضر هو الجيل الفاصل بين عهديه : عهد كان الأزهر فيه مشرقا بالعلم ، منارة للهدى ، موئلا للثقافة والفكر

وعهد يعيشه الآن ويترنح فيه ترنح الثمل فاذا لم يأخذ الجيل الحاضر بزمام الاصلاح فسوف يصطدم المترنحون بالصخرة التى يتحطمون عليها ، أو سوف يقع الثملون فى الحفرة التى تلقى على رؤوسهم فيها أكوام الرمال فلا يخرجون للحياة من جـــديد ، ويضيع أغلى درة فى جبين مصر والأمة الاسلامية ، وتتوارى أرفـــع رأية ظلت تخفق بين ربوع البلدان الاسلامية زمنا طويلا ، ويخفت أجهر صوت عاش ينادى بين المسلمين وغيرهم بعدالة الاسلام وعالميته ، ويستمد جهارته من كتاب ربه .

على الجيل الحاضر من أبناء الأزهر الحبيب أن يدركوا معهدهم العتيق ليس تاريخا وليس ذكرى انما هو رسالة وحركة ، رســـالة قامت باسم الاسلام ونافحت من أجله ، وحركة انتشرت هنا وهناك، وجاهدت على الصـــعيد السياسى والثقافى ، وحاربت أعداء الاســـلام كما حاربت الاستعمار ، فاما أن يعود الأزهر الى رسالته وحركته ، واما أن يطمر حتى يصير ذكرى ، ثم تنسى .

واذا كانت الثورة الفكرية المستقاة من الأصول الاســـلامية هى مهمة المثقفين ، وهى ضرورة الاصلاح لحياتنا المعاصرة ، واذا كان القرآن هو ذلكم المصدر الأول لتلك الثورة ، واذا كنا نتناول جزئية صغيرة من جزئياته المترامية ، والتى تخص الاستدلال والحجة فانه من البداية ينبغى العلم بأننى لا أدعى فى تلك الدراسة أننى سوف أقيم صرح الرغبة المطروحة سلفا ازاء صياغة الاستدلال القرآنى المثبت والنافى . ولكن جهدى سيكون محصورا فى هذه الصفحات بين نداء كهذا وبين ابراز المواد الأساسية وصـــلاحيتها للاستدلال ، ودعوة القرآن لتنشيط العقل ، واستغلال ما لديه من ملكات متعددة ومتعاقبة كى يهتدى الى المطلوب الايمانى ، والعمران الكونى .

وقـــد روعى فى تلك الدراســـة أن تكون امتدادا لمـــا سبق . فاذا كان بحث « الدعوة والانسان » قـــد تناول نداء الحق الى الايمان

فى صورة دعوة مستمرة على لسان الأنبياء والمرسلين ، وتعرض الى الانسان فى اعداده وغاياته وموقفه من تلك الدعوة قبولا وانكارا .
فانه بحث « المنهاج القرآنى » قد حاول التطواف حول الطريقة التى سلكها القرآن لاقناع المنكرين ، وبعث اليقين فى قلوبهم .
وهى طريقة منهجية ذات مراحل متعددة ، منها البلاغ المجرد ، ومنها المثير الفطرى ، أو التركيز على الفطرة ، ومنها بناء الشخصية الانسانية بصفة عامة ، وايقاظ الادراك الانسانى بصورة خاصة حتى يكون متأهبا للتفكير والتدبر .

اذا كان هذا قد تم فى البحثين السابقين ، واذا كنا قد وقفنا عند الحديث عن قوى الادراك فى القرآن فان هذا البحث سيواصل رحلة السير نحو الجهود التى ينبغى على القوى المدركة أن تقوم بها سواء فى مجال النشاط الادراكى ، أو فى ثماره العرفانية .

وأما عن المنهج المتبع فى تلك الدراسة فانها تعتمد على النص القرآنى ، وتستقصى استخدام ألفاظه ، وتتدبر معانيه ، وتسترشد بالنصوص الأخرى لتوضيح النص المطروح ، وبالأخبار الواردة فى شأنه ، كما تستشير اللغة دائما وتسألها عن المعنى الموضوع له اللفظ ، وتنوع الاستعمال والظروف التى طرأت عليه من تطور فى الاستخدام ، وأحيانا تلجأ الدراسة الى الاصطلاحين لتنظر فى تعريفاتهم وفهومهم خدمة للنص ووفاء له ، كل هذا يأتى فى فصول متعاقبة ومتسلسلة .

ونسأله جلت حكمته أن يرزقنا توفيقا من لدنه ، وأن يلهمنا بصيصا من علمه ، ويفيض علينا من بحر جوده ، وأن يبصرنا بمكنون كلامه ، ويكشف لنا عن خفايا حديثه ، ويجعل قلوبنا موئلا لأسراره ، وصدورنا محلا لأنواره ، وأن يصطفينا لفقه آياته ، وخواص بيناته انه سميع قريب مجيب .

وصلى الله على سيد الخلق ، ونبى الهدى والحق ، ورسول العلم والحكمة ، وأسوة المؤمنين ، والمبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمـد الحبيب المحبوب وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

الرياض صبيحة الجمعة ١١ من ربيع الآخر ١٤٠٧
١٢ من ديسـمبر ١٩٨١

دكتـور
عبد الله يوسف الشاذلى

الفصل الأول

الملكات بين الترابط والتمايز

خطة القرآن فى ايقاظ الملكات

ان القرآن الكريم فى قيادته للعقل ، وايقاظه للوعى الانسانى لم يقدم براهين وحججا ملزمة للعقل دون أن يثير الادراك لفهمها واستيعابها والاقتناع بها ، وانما اختط القرآن فى صدد بعث اليقين فى النفوس خطة واضحة تمام الوضوح ، وتتكون تلك الخطة من حلقات مترابطة تؤدى الى غاية واحدة ، ويبدأ هذه عقب اثارة القوى الادراكية من حس وعقل وقلب :

وأولى تلك الحلقات أن تنشط الملكات الراقية فى هذا المخلوق ، وأن تجد فى فهم ما يحيط بها من كون أو يلقى اليها من آيات ، أو يستقر فى أعماقها من نفس حية ، وهذا التنشيط القرآنى للادراك ليس عملا اختياريا تقوم به انما هو تكليف شرعى ملزم شأنه فى ذلك شأن بقية التكليفات الملقاة على ذوى القدرة والاستطاعة .

وتحريك القرآن لهذه القوى يأتى فى صورة مثيرات وتنبيهات عندما يكشف لها عن أمور فى ذاتها أو محيطه بها ، ويعلل هذا الكشف ، أو هذا البيان المسوق بأن الغرض منه هو ايقاظ الوعى وتنبيهه واستفاقته ، ولا يخفى ما يهدف اليه بل يردفه عقب البيان

مباشرة فيقول « **أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون** » [١] « **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** » [٢] « **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » [٣] « **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** » [٤] الى غير ذلك وهو كثير .

وكان من الممكن أن يبين الله الآيات ، أو يصرفها ، أو يفصلها ثم يكتفى بهذا السوق دون أن يعلن عن المراد من اثارة التفكير أو التذكير أو تحريك الادراك ، أو عن الهدف المنشود من وراء التبيين أو التصريف أو التفصيل ، ومن وراء الايقاظ للوعى ألا وهو صحة الاعتقاد ورسوخ الايمان ، أما والقرآن يوضح ثم يطالب الانسان بأن يعى ويفهم ويتبصر فهذا مسلك يريد أن يبنى اليقين على أساس من التفكير والقناعة ، وعلى أساس من الحركة الثاقبة للعقل الانسانى ووجوه وعيه ، ويريد فى الوقت ذاته أن يبعث فى القوى الادراكية همة النشاط ، وأن يهزها هزا قويا كى تبصر بوعى ما حولها وما هو خارج عن دائرة العالم المحيط بها .

ان فعل القرآن فى تلك الصورة تثقيف وتعليم ، وايقاظ وتحريك ، تثقيف وتعليم لنا من خلال البيان والتفصيل المطروح أمامنا ، وايقاظ وتحريك لمداركنا بهذا الاعلان عن الرغبة فى التفقه و التذكر أو التفكر فى الآيات المسوقة .

وفى المرحلة الأولى كذلك ترد صورة أخرى من صور تحريك القوى المدركة ، وتكون أشد من الأولى لهجة حيث تأتى بأسلوب الأمر الالهى فى ضرورة أن يسير الانسان وينظر ويتأمل ذاته والكون الهائل

---

(١) الأنعام ٦٥
(٢) الأنعام ٩٨
(٣) البقرة ٢١٦
(٤) الأعراف ١٧٦

المحيط به ، ومنه « قل سيروا فى الأرض فانظروا » « فسيروا فى الأرض فانظروا » « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (٥) ، وتكثر تلك الصيغة الطلبية مع « ذكر » و « أبصر » الدالين على الفهم والاعتبار ٠

واذا لم يستجب الانسان للمثيرات الادراكية المقدمة اليه ، أو للأمر الصادر بأن يفكر ، وركن الى البلادة والجهالة استحق بذلك أقسى أنواع الاستهانة ، وانحدر الى مصاف الحيوانات ، أو ألحق بالصم والعمى ، أو اعتبر فى عداد الموتى ، كيف لا وقد طولب أن يفكر جيدا فرفض ! ؟

وأما الحلقة الثانية من خطة القرآن فى بعث اليقين فتترتب على الأولى ترتبا مباشرا ، وتتجلى تلك المرحلة فى الاتجاه نحو الأحكام وصياغتها ، ونحو الاستدلال والبرهنة واقامة الحجة ، وارداف كل دعوى بسندها المناسب ، وتنويع الأدلة طبقا للقضايا والموضوعات الواردة ، وفى اطار هذه الحلقة يطالبنا القرآن بالبرهان والحجة والسلطان ، وأن ننبذ الظن فانه لا يغنى من الحق شيئا ، وألا نسوق مقدمة دون أن تكون مدعمة بالدليل الصحيح ، والعلم الثابت ان كنا صادقين فى دعوانا ٠

وأن نحن دللنا وبرهنا فقد اتضحت سلامة التفكير ، وصح أن الوعى الثاقب أنتج دليلا مقبولا وهذا معنى ترتب الحلقة الثانية على الأولى ٠

ثم تأتى قمة تلك الحلقات بهدفها السامى ، وتتمثل فى ترسيخ الايمان بالله وبالرسل واليوم الآخر على أساس من التفكير الجيد

---

(٥) انظر فى ذلك : آل عمران ١٣٧ ، الانعام ١١ ، يونس ١٠١ ، النحل ٣٦ ، الروم ٤٢

والبرهنة الصحيحة ، وفى تلك الحلقة يرشد القرآن العقل الى أدلة متميزة فى أساسها ومقدماتها وصياغتها ونتائجها ، وان كان لا يحجر عليه فى أن يسلك طرقا أخرى ، الا أن طرق القرآن ستظل أقوى من حيث المبنى الذى تقوم عليه المقدمات ، ووضع هذه المقدمات ذاتها بالنسبة لبنية الدليـل ، وأسلوب صـياغتها المنفرد فى نفظه ورقته وتقريبه الى الأذهان ودرجة محسوسيته فيما كان بعيد المنـال عن الأذهان ، وفى كيفية استخراج النتائج من بين المقدمات المسوقة ، كل ذلك يتميز عن الاستدلالات العقلية الاصطلاحية الجافة .

تلك هى الحلقات التى تتناولها تلك الدراسة ، وفى الفصول التى تحت أيدينـا سوف لا نثير مسائل استدلالية بقـدر ما نؤكد على ضرورة أن يفكر الانسان ، وعلى الألفاظ التى استخدمت للتعبير عن تلك الضرورة ودلالة تلك الألفـاظ على التنوع الفكرى .

ماذا نعنى بتلك الملكات ؟

جاء فى المعجم الوسيط أن « الملكة » هى [صـفة راسخة فى النفس ، أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة مثل الملكة العددية والملكة اللغـوية] (٦) ، اذا طبقنا هـذا التعريف على كل من حالة التبصر ، والتدبر ، والتذكر ، والتفقه . والتفكر ، والنظـر وهى الحـالات التى أثارها القـرآن فى الانسان وطالب بتنشيطها وجدنا أنه يمكن اعتبار كل حالة منها ملكة قائمة بذاتهـا وذلك من حيث ان كل واحدة هى هيئة راسخة فى النفس ؛ وجهـة ثابتة من جهاتهـا الفكرية ، وأيضا فهى استعداد عقلى متميز عن الأخرى ، ولهـا طابعها الادراكى المغاير بشكل ما عن طابع أى حالة سواها ، وسوف نشير الى ذلك بوضوح فيما بعد .

---

(٦) د/ ابراهيم انيس وآخرون ، المعجم الوسيط ج٢ : ٨٨٦

ولما كان التعريف يبرز أن الملكة صفة راسخة أو استعداد عقلى فمعناه أنه لا يشترط فيها أن تكون بالضرورة صفة ثابتة فحسب أو استعدادا فكريا وحده ، بل يجوز أن تكون هذا أو تلك مما يجعلنا نقول : ان كل حالة من الحالات العقلية المشارة فى القرآن ، والتى أشرنا اليها تعتبر ملكة عقلية من جهة كونها استعدادا مدركا على أقل تقدير ان لم يصح كونها صفة راسخة ، لا سيما اذا تأملت تلك الحالة وتغلبت واحدة أو أكثر من الحالات على ادراك الانسان الواعى ، عندئذ لا مناص من جواز اطلاق الملكة عليها ، بمعنى صيرورتها صفة راسخة لا استعدادا فحسب .

والتعريف السابق يجعل الملكة الراسخة ، أو التى بمعنى الاستعداد دافعا نفسيا أو أساسيا عقليا لأى نشاط خارجى يبدو فى سلوك الانسان وتصرفاته العملية والنظرية ، وهو يعطى لهذا الدافع النفسى ، أو الأساس الفكرى سمة الحذق والمهارة ، وعليه فتلك الحالات التى نوردها فى هذا الفصل من تبصر وتدبر الى آخره اذا أدت مهمتها على الوجه المراد منها شرعا تعد قوة دافعة لسلوك الانسان الراقى ، أو مرجعا مميزا لأقواله وأحكامه ، أو باعثا جادا على غرس اليقين فى النفس ، أو هيئة مفكرة تخرج الأدلة وتسوق الحكم ، وتصوغ البراهين .

هذا والذى يحدونا بصورة آكد الى القول بأن تلك الحالات ملكات هائلة فى النفس قد عمد الى تربيتها واثارتها القرآن الكريم هو ما جاء فى عجز التعريف السابق من التمثيل بملكة العدد ، وملكة اللغة فانه بناء على هذا التمثيل يمكن اعتبار المهارة فى الاستبصار ، والحذق فى التدبر ، والرقة فى التذكر ، والقوة فى الاستنباط والتفقه ، والاستغراق فى الفكرة حتى تتولد منها المعانى الحكيمة ، والحدة فى النظر كى يصل الناظر الى سنن الظواهر وقوانينها ويستفيد منها ، يمكن اعتبار كل حالة على حدة ملكة لها نشاطها الادراكى المستقل .

وأود التنويه بأن الملكات الانسانية التى نحن بصدد الحديث عنها ليس من اللازم فى نظر القرآن أن توجد وتتحرك مجتمعة فى كل انسان ، لأنها [أكثر وأكبر من أن ينالها انسان واحد ، ولكن ينبغى أن تنال] (٧) ومع هذا فمن اللازم أن تعمل منفردا اذا برز بعضها فى انسان ، أو تنشط مترابطة اذا وجدت مجتمعة فى آخر .

الملكات نشاط ذهنى لا قوة وظيفية :

اذا قلنا ان الملكات صفة نفسية عليا ، أو استعداد عقلى راق فهل يعنى هذا أن النظر والتفكر والتبصر والتذكر وغيرها قوى نفسية لهـا أماكن محددة فى البدن ، أو أنها مجرد جهد ذهنى ، وعمل ادراكى لا نعثر على مكان وظيفى له داخل البدن كما نعثر على أماكن الجهاز الهضمى والتنفسى ؟

حول الاجابة على هذا السؤال يختلف اتجاه القرآن عن فكرة المتكلمين والفلاسفة .

ان فكرة الفلاسفة التى انتقلت الى المتكلمين تدور حول وجود قوى ادراكية مستقلة ، كل واحدة لهـا عمل خاص ومكان فى الدماغ محدد ، فالحس المشترك الذى ترتسم فيه الصـور المشاهدة محله مقدم البطن الأول من الدماغ ، وآلته الروح المصبوب فى مبادى أعصاب الحواس الثابتة من مقدم الدماغ كأنه رأس عين انشعبت منه خمسة أنهار — هى الحواس الخمس — بحيث يؤدى كل حس منها صورة محسوسة الى الحس المشترك فتتحقق المشاهدة .

وتخـزن الصـور الموجودة فى الحس المشترك بخزانة خاصـة بها تسمى الخيال ومحلها مؤخر البطن الأول من الدماغ .

---

(٧) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ١٢٦

وهناك قوة ثالثة تختص بادراك المعـانى الجزئيه تعرف عندهم بالوهم ، وهى حاكمة فى جميع القوى الدماغية ومحلها البطن الأوسط من الدماغ ، وتختزن تلك القوة ما يفد عليها من المعانى الجزئيـة فى الحافظـة .

وأخـيرا تسكن القـوة الخامسة المعروفة بالناطقة فى البطن الاوسط من الدماغ أيضا ، ومهمتها تنحصر فى التركيب والتفصيل بين الصور الجزئية المحسوسة ، وبين المعانى المدركة بالوهم (٨) .

توجد تلك النظرية عند فلاسفة المسلمين ويبثها علماء الكلام من المتـأخرين فى مؤلفاتهم ، وهى كما ترى تقوم على خمس قوى ، لكل قـوة عمل ذهنى محـدد ، ولهـا مكان معين فى رأس الانسان ، والقـوة الأخيرة منها هى القوة العليا التى تقدم خدماتها باستمرار للعقـل .

وهم وان اختلفوا حول جوهرية العقل ، أو غريزتيه ، أو كونه قوة فانهم يطلقون عليه أسماء تتفق وخطواته فى الادراك . فان كان العقل كامنا فى نفس الطفل فهو عقل بالقوة ، وان حصل الأوليات فهو عقل بالملكة ، وعند حصول النظريات لديه بحيث يسهل استحضارها يكون عقلا بالفعل ، واذا ثبتت تلك النظريات فى النفس ثبوتا راسخا سمى العقل أنذاك بالعقل المستفاد .

وهكذا يتحدث الفلاسفة والمتكلمون عن أحوال النفس العاقلة بحسب ادراكها بصرف النظر عن الملكات الخمس السابقة التى قامت بدور التحضير لمواد الادراك الحسية والمعنوية ، وأودعتها فى خزاناتها حتى يعمل فيها العقل بعد ذلك ، تلك الملكات التى أودعت فى الدماغ ايداعا عضويا محددا .

---

(٨) شمس الدين السـمرقندى : الصحائف الالهية ١٨٢ — ١٨٦ وانظر سيف الدين الآمدى : غاية المرام فى علم الكلام ٩٢ — ٩٣

وأما الاتجـاه القرآنى فى حديثه عن النظر والتفكر والتـدبر والتبصر والتذكر والتفقه ، والتعقل فانه يبرزها أنشطة واعية يثيرها فى الانسان دون أن يشير الى حقيقتها وجوهريتها أو غريزيتها . ودون أن يلمح من قريب أو بعيـد الى ارتبـاط هـذه الملكات والأحوال الادراكية بأعضاء أو محال بدنية ترتكز فيها ، وبلغ البيان القرآنى فى هذا الصدد حدا لم يتعرض فيـه أبدا الى كلمة العقل مصـدرا ، ولا الى كلمـة الفكر بالصيغة المصـدرية كذلك ، حتى لا يشتم من الاستعمال المصدرى رائحة القـوة الكامنـة فى الانسـان . والتى تتخذ لهـا من البدن موضعا معينا .

ولقد آثر القرآن أن يستخدم مادتى التعقل والتفكر بألفـاظ واشتقاقات تدل على الحركة والنشاط وعلى الجهد والتـأمل دون التمركز والتجوهر داخل البدن ، فترد : عقلوه ، وتعقلون ، ويعقلون ، ويعقل ونعقل ، كما تأتى : فكـر ، وتتفكرون ، ويتفكرون . وكذا فى بقيـة المواد الأخرى المعبرة عن الأحوال الادراكية كالتدبر والتبصر والتذكر والتفقه فأغلب ذكرها بصيغ الحركة الواعية ، وان جاء المصدر مع التذكر مثل « ذكـر » أو مع التبصر مثل « تبصرة . والأبصار » فان سوق المصدر يدل على الحدث ، ولا يشير الى القـوة المودعة بين أجزاء البـدن .

وجميع المواد العـاملة فى مجال التـأمل ، والمعبرة عن ملكات الوعى مما سبق ذكرها تبين وظائف الانسان العقلية على اختلاف أنشـطتها وخصائصها ، وتتحدث عن العقل المتأمل ، والحـاكم ، والرشـيد ، والمميز ، وعن الملكات المتفكرة ، والمعتبرة والمتبصرة ، والمستنبطة ، ولسنا نجد آية واحدة تضع أيدينا أو تقود تفكيرنا الى مكان القوة المتأملة بين اهاب البدن الانسـانى ، وبالتالى فالملكات والعقل الذى يخاطبه الاسلام ، ويستحثه القرآن ، وتدعمه السنة جميعها تعنى الأنشطة التى تنظر الى الأشياء نظر تأمل وفهم ، ووعى

وحذم ، واستنباط واستنتاج (٩) .

ومع أننى لست من المغرمين بعملية التوفيق بين أعلام القرآن ونظريات العلم ، ولا من الذين يسعون لتأييد القواعد القرآنية بما وصل اليه العلم حاليا لأننى على ثقة من يقين النص القرآنى ودقته حتى ولو لم ننته فيه الى تفسير قاطع ، ايماننا المبنى على الخبر والقائم على متابعة النصوص فى ساحة الواقع المجدب يدعونا الى زيادة الاطمئنان بأن القرآن أرق حتما ، وأعمق نظرا من الآراء العلمية التى تظهر ثم تختفى ، وتتغير وتتبدل .

أقول على الرغم من أننى لست كذلك لكن لا بأس أن نذكر بما دوناه فى كتابنا « المنهاج القرآنى » من افلاس العلم فى مضمار الوصول الى كنه الادراك العقلى (١٠) خاصة ، والادراك بصفة عامة ، ولما كان الأمر كذلك فان [الاتجاه الحديث الآن هو دراسة ووصف النشاط العقلى أو الانتاج العقلى أو السلوك أكثر من الاهتمام بدراسة القدرات أو الملكات فى حد ذاتها] (١١) .

وما يقال عن عمليات التعقل يقال عن الذكاء فى حقيقته فهو ليس عندهم قوة ذات مكان خاص فى بنية الانسان وانما هو اشارة الى عمليات عقلية كالتجريد والتكيف والاستدلال والتعلم والتحصيل والقدرة على النقد ، أو هو مجموع العمليات العقلية والقدرات الأخرى التى يستعملها الفرد لفهم وادراك الحقيقة . وذلك مثل التفكر والتذكر ، وادراك العلاقات . وحل المشكلات .

ولما كانت العمليات العقلية والذكائية هى أنشطة نلاحظها لدى

---

(٩) أنظر كتابنا : المنهاج القرآنى ٢١٢ — ٢١٣ .

(١٠) نفس المرجع السابق ٢٣٤ ،

(١١،١٢) د/ عبد الرحمن عيسوى : علم النفس بين النظرية والتطبيق ١٦٨ ، ٨٩ — ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٥٨ .

البشر من خــلال مواقفهم ، وأحكامهم ، وهى ليست قوى يمكن أن نلمســها ، لذا جــوز علماء النفس أن يكون العقــل والذكاء تكوينا افتراضيا أو مفهوما مجردا (١٢) .

والعلم عندما يفلس فى مضمار الظواهر الكونية أو النفســية يستخدم عبارات تخرجه من ورطة الافلاس مثل كلمات الصــدفة ، والتوليد ، والتكوين الافتراضى وغيرها ، لم لا يكون التعقل خصيصة نفسية شأنها شأن الميل ، والعاطفة ، والحب والبغض ، وأمثال ذلك من الجوانب النفسية التى نحسها فى أعماقنا بما لا يدع مجالا للشك ، وتظهر علينا ظهورا لا ارتياب فيه ، وليس شرطا كلما وجدت الحقائق فينا أدركناها بعقولنا ، ووصلنا فيها الى مصادرها الأصلية ، أو سبرنا أغوارها البعيدة ، بل ان كثيرا من الحقائق توجد فعلا فى تكويننا الداخلى دون معرفة لنــا بها ، وهى هى نشاهد آثارها فى تصرفات الانسان القوليــة والفعلية ، ألا ما أكبر الكون الذى لا نفهمه فنقول بالصدفة ، وما أعمق النفس البشرية التى نجهــل خفاياها فندعى الافتراضية ونلوذ الى وضع الصيغ المجردة لمــا لا نفهم ، وما أعظم الخــالق المدبر الذى أبدع ما فوق العقول حقيقة وبداية وما فى امكانها نظرا وتتبعا للآثار والمظاهر فحسب .

والعلم فى رحاب الايمان كما صوره الاسلام مثمر وجاد وفعال ، ومتواضع يعترف بما يستطيعه وما لا يستطيعه ، وكما مجد الانسان العلم وشرع النظــر والتفكير ، وطــوف بالعقل فى الســماء والأرض والنفس والآفاق فانه قد جعل عبارة « لا أدرى » (١٣) اجابة على سؤال السائل عندما لا يعلم المسئول شيئا عن المسألة المطروحة ، لأن الانسان مهما أوتى من العلم فهو فى النهاية أقل من أن يحيط بكل شىء ، وحتى نبى الاسلام نفسه ســئل فى مرات عدة فانتظر حتى

---

(١٣) « من قال لا أدرى فقد أجاب » .

تأتيه الاجابة من ربه ، ولمـا وأتته ألقى بها على أسماع الجميـع . فلنتعلم ، ولنحدد قدرتنا ، ولنعرف ملكاتنا .

ضرورة المثيـر للنشــاط :

الانسان اذا يحوى فى داخله كل هذه الطاقات الهائلة من الوعى العقلى ، والملكات الذهنية ، والقدرات المساعدة ، وهو قادر على أن يستخدمها عنـدما تجـد له مواقف معينة ، أو يتعرض لنقــاش من أى لون ، أو تصادفه مشكلات خاصة أو عامة ، أو يستثار من الآخرين طلبا للنصح أو المشورة أو ابداء الرأى ، وتبعا لذلك فان امكانيات الكائن البشرى العقلية وملكاته تظل خامدة الى حد ما ما لم تحركها عوامل داخلية أو خارجية ، وبمقدار سعة تلك العوامل المثيرة أو ضيقها يكون نشــاط الوعى الانسانى كثرة وقــلة ، عمقا وســطحية ، حسا أو تجريداً ، اطلاقا أو تنويعا ، والأفراد ينشطون ذهنا اذا وجدوا فى بيئات أكثر حيوية ، وأوسع ثقافة ، وأبعد عن البساطة والبدائية .

والحقيقة أن القرآن أحدث فى هذا المضمار دويا هائلا فى البيئة التى نزل فيها ، وفى الأوساط الأخرى ، لقد فاجأ العقلية العربيــة بأمور لا عهد لهم بها منذ زمن غائر فى المضى ، وأتاهم بقضايا صارت محل دهشتهم وطالبهم بأحكام لم تألفها عقولهم من قبل ، كما تحــدث مع أهل الكتاب حديث المصحح للفساد الذى تعمــدوه فى أديانهم ، وساق مسائل فى الأديان الوضعية غير قليلة ، وبتلك السعة فى الخطاب لعموم البشرومختلف الأديان أصبح القرآن كتاب العالم . وحديث الله للبشرية كلهــا .

ولو أن القرآن جاء بأخبار عن المسائل المطروحة لكانت اثارته للعقل وملكاته أدنى بكثير من الصيغة التى جاء بها والتى نرتلها فيه اليوم ، انه قد أخبرنا صراحة عن الحق والباطل ، ولم يكتف بذلك بل دلل على الحق فى كل مجالاته ، وفند الباطل من جميع وجوهه ،

وناقش وجادل ، وبين وأوضح ، وفصل وصرف ، وذكر أسـئلة واستفسارات وأجاب عنها ، وبين عشية وضحاها خرج العرب من بساطة تفكيرهم وسذاجته لكى يتأملوا هذا الوحى ، ويعملوا ملكاتهم فيه فمن اهتدى طـرد تفكيره وتقدم ، ونمت ملكاته وارتقت ، حتى صارت تلك الفئـة المؤمنة فى عقد من الزمن علماء يجولون الفكر فى الأشياء ، ويجتهـدون ويستنبطون ، ويقررون القواعد ، ويحررون المسـائل فى الفتيا والقضاء ويحكمون وينظمون شئون عالم متغير ومختلف دان بالاسلام فى حقبه أذهلت التاريخ .

وعلى الرغم من أن فريق الكفار قد تمسكوا بسذاجتهم ، وأن أهل الكتاب ، وبعض أرباب الأديان قد أثاروا المشاكل والجـدال حول عديد من المسائل الا أن القرآن كما قلنا تصدى لهم بحكمـة رائعة ، وناقشهم ببراعة فائقة ومعجزة .

وكان من جراء هذا كله أن ساق القـرآن كما هائلا من الآيات التى تثير العقل وتستحثه على التفكير والتأمل والتذكر ، ونوع فى هـذه الوجوه تنويعا يفسح المجال أمام الملكات كى تنشط وتعمـل بوعى ثاقب وفهم بصير ، وتعتبر تلك الطريقة القرآنية هى المثـير الفعال للعقـل والملكات معا ، حتى آل الأمر بهـؤلاء الذين وصفوا بالأميين وبالجهالة أن يكونوا علماء فى سنين ليست الا ومضة قصـيرة اذا قيست بطيات الزمن وسجلاته الطويلة .

وحـدة العمليات العقلية وتمايزها النوعى :

العقل ليس قوة بدنيـة ، ولكنه عمليات ذهنيـة ، والعمليات الذهنية تنشط بمقدار ما يقـدم لها من مثيرات ، هذا ما بيناه سلفا ، ونواصل الحديث فنلقى سؤالا حول ما اذا كانت تلك العمليات الادراكية الواعيـة فى القـرآن الكريم كالتفكر والتبصر والتذكر الى آخرها مترابطة ، أو متمايزة ؟ واذا كانت مترابطة فما معنى الترابط ؟ واذا كانت متمايزة فما مفهوم التمايز أيضا ؟

وبعبارة أخرى هل هى متفقة فى المعنى مختلفة فى اللفظ فلا تمايز من جهة الحقيقة ؟ أو أنها متميزة فى مفهومها وألفاظها وإن وجـــدت روابط تربطها فيما بينها ؟

قبل أن نخوض فى الاجابة نزيل ما يمكن أن يعلق بأذهان البعض من أن التعرض لهذه الأسئلة ضرب من التعمق الذى لا مبرر له ، أو هو أسلوب من الاستغراق قد يتنافى مع الذوق القرآنى فى السهولة وعرض الحقائق بصورة تخلو من الاستغلاق الذى يبعدنا عن هـــدف القـــرآن الحقيقى ، وهو اثارة الملكات كى تعى ، وتقتنع فتهدى •

أقول ان الأمر ليس كذلك بل المتدبر فى الآيات القرآنيـــة التى تحدثت مع تلك الملكات فى محـــاولات اقناعية يدرك أن طرح هـــذه الأسئلة ضرورى ، ذلك لأن الكتاب الكريم قد ساق عددا من القوى الادراكية فهل يثيرها بطريقة ترادفية ، وبأسلوب التكرار المحض ؟ أو أنه قصد من وراء هذه الألفاظ المتغايرة معانى متنوعة ؟ وعمد الى الكشف عن مكنونات الملكات الانسانية وأحوالها ، ووجوه وعيها ؟ وفى الوقت ذاته يبين أنه لكل منها تأثير خاص فى عملية الاقتناع ، وأثر واضح على الفعـــل والسلوك ، وصلة وثيقـــة برقة القلب ، وتصفية اللب ؟

واذا صح أن القرآن قصد الكشف عن التنوع فى الملكات ذاتها ، وفى وجودها لدى الأفراد فهل يعنى هذا أنه لا توجد رابطة ذهنيـــة جامعة بينها ؟ أو وشائج عقليـــة تسيطر وتوحد بين انتـــاج الملكات وتوجه دفة النشاط المتنوع نحو الغايات المحددة ؟ انه لا يمكننا أن نجيب على كل ذلك الا اذا طرحنا على بساط البحث تلك الأسئلة التى سبقت ، وهى المجموعة الأولى ، ثم بعد ذلك قمنـــا بالاجابة عنها ، وعن مجموعة الأسئلة الملحقة بها بعد ذلك ، وفى ساحة البحث والاجابة نجد الاختلاف حول اتفاق الملكات وتمايزها ساريا بين العلماء ، ونلحظ فى ذلك اتجاهات عدة نشير اليها ثم نركز على الاتجاه الأصوب •

الاتجـاه الأول : يراها بمعنى واحـد :

ويتبناه علمـاء التفسير ، فمهما حاولت أن تفتش فى أقوالهم التى تتعرض للملكات الوعى بين الآيات تجد أنهم يفسرون النظر بمعنى التفكر ، أو التبصر والاعتبار ، وأحيانا يهملون تفسير التفكر على أن مفهومه واضح ، وقد يعرفونه بالمعنى اللغـوى الذى يعنى تردد الخاطر فى الشىء ، وربما قالوا فى التفكر أيضا انه بمعنى التـأمل أو النظر أو الفهم ، والتـذكر هو الآخر قد يحمل معنى التفكـر أو الاعتبار ، والتبصر تفكر وتذكر ، والتدبر هو الفهم أو العلم الى آخـره .

وهكذا يحلون واحـدة مكان الأخرى فى الشرح والتـأويل ، ولا يعمدون الى التعريف المميز الذى يفصل بينها من جهـة الحقيقة أو الآثار النفسية لدى المدرك ، ويفضلون التعريف بالمرادف وبمـا أنها مترادفة فى نظرهم ، فكل واحـدة يمكن أن تفسر الأخـرى ، ولا داعى لبيان الفروق أو التعمق فى البحث عنها ، أو تحديد النشاط لكل ملكة لأنهـا جميعا ترتبط بالعقل ، وتصب فى الوعى ، ولهـا سـمة ذهنية عامة ، ونريد منها أن تتحـرك صوب غاية معرفيـة واضحة هى الايمان بوجود الله ، والعمل بأوامره والصدق فى طاعته ، ومن هذا الجانب لم يكلف المفسرون أنفسهم جهد البحث عما يمكن أن تحتمله الملكات من فروق ومميزات .

ولقد حاولت قدر طاقتى أن أبحث فيا تحت يدى من تفاسـير على أعثر على اشارات مميزة لثقتى أنها لابد أن تحمل بين معانيها من الخصائص ما يميز الواحدة عن الأخرى فلم أظفر بتهمتى وكنت أعود من الرحلة بفيض من الأقوال تتحدث عن فضل الملكات خاصـة التفكر ، وبيان ثمارها ، وحض المفسرين على أن يتجه البشر الى معرفة الله من خلال آياته المتنوعة ، وهذا وان كان حسنا جـدا لكن بيـان الفروق يظل سبب التنوع اللفظى الوارد فى باب الادراك ،

والمعبر عن تلك الملكات ، وأيضا فان الاهتمام بذكر الفروق يجعلنا دائما نضـــغط بكل تركيز نفسي وشــعوري على معنى كل ملكة كى نثيرها ، أو ننبهها تنبيها يقظا ، كما يجعلنا فى حالة اكتشاف واضح لمـــا يمتاز به الأفراد من بين تلك الملكات ، فيساعدنا ذلك على اقناعهم من خلالهـــا .

الاتجـــاه الثانى : وجهة نظـــر الغـــزالى :

ينظر حجة الاسلام الى الملكات بمنظارين غير متباعدين :

أولهما : أن هذه الملكات يجمعها عامل واحد هو التفكر ، وأنهـــا تنضوى تحت رابطة معينة لا يخـــرج عنها حال من أحوال الادراك المذكورة فى القرآن ، ويرى أن العـــامل الذى يوحدها ويجمعها ، وتدخل فى شباكه هو حال التفكر الذى يعمد الى معرفتين سابقتين ليستخرج منهما معرفة ثالثة ، والقيام [باحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا] .

ونحن من جانبنا يمكن أن نكشف عن شيء جديد فى نظرة الغزالى هذه اذا أخذنا فى اعتبارنا أنه لا يقصد الوحدة المعنوية ، أو الاتحاد فى مفهوم هذه الملكات التى ذكرها مع التفكر فى النص السابق . وانما يقصد العامل الترابطى الذى ينظم العمليات العقلية ويؤلف بينها ، ويشكل عنصرا مشتركا بين جميـــع أنشطتها ، فالفكر عنده عامل عام لا تستغنى عنه أى عمليـــة عقلية ، وأظن أننا بهذا الفهم نجعـــل الغزالى فى مكان الصدارة بالنسبة لعلماء النفس الذين يبحثون عن العوامل والقـــدرات التى تربط بين عمليـــات العقل أو الذكاء مثل «ثورنديك» صـــاحب نظرية العـــوامل المتعددة ، و « ســـبيرمان » صاحب نظرية العاملين فقط ، و « ثرستون » الذى يتزعم القـــول

بالعوامل الطائفية (١٤) .

ولو أخذنا بهذا الفهم وأتيقنه صحيحا أعتبرنا ما قاله الغزالى سابقا من باب البحث عن العــامل الذى يربط بين تلك الأنشــطة الذهنية ، وهــذا البحث عنده مع بيان أن الفكر عامل مجمع هو فى محل الصدارة بالنسبة لتلك المشكلة . واذا صرح بأن الملكات العقلية من اعتبار وتذكر ونظــر وتأمل وتدبر هى تفكر فباعتبار القــاسم المشترك بينها وهو حال التفكر .

على كل كان من الممكن أن نجزم بصحة هذا الفهم ونسير معه الى ما لا نهاية ، وأن نخرج الغــزالى من عداد القائلين بوحــدة العمليات العقلية لولا ما صرح به فى الفقرة التالية :

وثانى المنظارين : هو التفرقة بين بعض العمليــات من حيث الوحدة والتمايز ، فهناك ملكات ذهنيــة هى عين ما سواها وملكات أخرى متنوعة :

ويجزم بأن [التدبر والتــأمل والتفكر — عبارات — مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة] والعبارة واضحــة فى الدلالة على العينية المعنوية لا تحتاج الى تعليق ، على حين يقــول بعد ذلك [أما اسم التــذكر والاعتبار والنظر فهى مختلفة المعــانى وان كان أصل المسمى واحدا ، كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شىء واحد ، ولكن باعتبارات مختلفة]

---

(١٤) د/ عبد الرحمن عيسوى : علم النفس بين النظرية والتطبيق ٩٨ — ١٠٠ ، وتعنى نظرية العوامل المتعددة ان الذكاء والعمليات العقلية تخضع لمجموعة من العوامل والقدرات ، بينما يتمسك ثورنديك بعاملين احدهما عام والآخر خاص ، ويرى الأخير ان العوامل الطائفية مثل قوة الذاكرة والادراك ، وقوة الاستدلال هى الربط بين العمليات العقلية والمؤثرة فى عمليات الذكاء : راجع المؤلف السابق .

وبما أن الأسماء الثلاثة تطلق على آلة حربية تسمى بالصارم من حيث كونها قاطعة ، وبالمهند من حيث نسبته الى موضعه فى الهند. وبالسيف من غير اشعار بهذه الزوائد [فكذلك الاعتبار يطلق على احضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما الى معرفة ثالثة . وان لم يقع العبور ولم يمكن الا الوقوف على المعرفتين فيطلق عليه اسم التذكر لا الاعتبار ، وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً] .

والتذكر عنده تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحى وتلك فائدته ، وثمرة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة [وهـذا هو الفرق بين التذكر والتفكر] وهو فرق يجعل التفكر أعم من التذكر ، بحيث يكون [كل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفـكر] (١٥) .

وواضح من خلال أقوال الغزالى هـذه أنه يبنى مفهوم التفكر على أساس من الصيغ المنطقية المعروفة . أى أن حالة الادراك الفكريه الجامعة هى تلك التى تصـوغ قياسا مكونا من مقـدمتين ونتيجة ، وهذه أرقى عمليه عقلية يقوم بها الانسان كما تصور ، وبدون تشكيل تلك الصـيغ فلا يكون التفكير ساميا ولا جامعا ، وأى حالة فكرية تأملية لا تقوم على ركيزتين ونتيجة لا تسمى تفكرا ، ويرى أن التدبر والتأمل والتفكر عبارات تعنى بالمقدمتين والنتيجة ، بخلاف التـذكر والاعتبار فلا عناية لهما بالقياس المعهود ، ولذا فهما أدنى من الحالة الفكرية ومما رادفها من التدبر والتأمل .

وأرى أن الغزالى تحكم فى مفهوم التفكر ، وأخرجه من المعنى العام المقصود الى مرادفتى لدى طائفـة بعينها هم المناطقة مع أن الانسانية تفكر وتستخرج علوما قبل أن تعرف المقدمتين والنتيجة من

---

(١٥) ابو حامد الغزالى : الاحياء ج٦ ٦٢ — ٦٣

أرسطو واضع علم المنطق ، وأيضا هناك ضربات فى الصميم وجهت الى هذا العلم بكل صيغه ، فكون الغزالى يقصر مفهوم التفكير على صيغة من صيغ المنطق هـذا تحكم وتضييق لمعنى التفكر العام ، والقرآن الكريم بالقطع لم يرد من وراء التفـكير هذا المعنى الذى يلبسه الغزالى لتلك الملكة ، وانما أراد منها المعنى الذى يتبادر الى أذهاننا جميعـا وهو اعمالهـا فى الأشـياء بطريقة صحيحة ، ونبـذ المؤثرات الاجتماعية والموروثة التى تعرقل عملية التفكير وجريانها .

ومع عملية التحكم السابقة التى قام بها الغزالى لمفهوم التفكر ، ومع انه قصره عن معناه الواسع وضيقه فقد جعـله من جانب آخـر مستوعبا لغيره من الحالات العقليـة الأخرى كالاعتبار والتذكر ، واقتضاه هذا المسلك أن يقلل من شأن هاتين العمليتين ، وأن يجعل الاعتبار معبرا عن المقدمين الى النتيجة والتذكـر ترديد للمعـارف التى يستثمرها الفكر فى المقدمات والنتائج أو التى يتوصل اليها من خلال اجراء تلك الصـيغة ، والمعبر والتكرار أو الترديد عمليـات تخدم وظيفة التفـكر وداخلة فى اطارها ، وبالطبع فان الذى يقرأ القرآن لا يشم من آيات الاعتبـار أى رائحة لكونه قنطرة فكرية لنتيجة ما ، بل يلمس أنه حالة شعورية واعية تحدث للانسان عندما يتأمل الأمور تأملا دقيقا ، وهى ادراك راق ورقيق فى الوقت نفسه ، ولذا يأتى مع أولى الأبصار ، ومع الذين يخشـون ، أى أن الاعتبار الذى طالب به القرآن هو ختام لجهـد تفكيرى ناجح يوصل الى الازدجار والتراجع عن الخطـأ ، والاعتراف بالحق والشعور به ، والانفعال معه ، وأربابه أهل البصـائر والخشية ، وسـوف نزيد النقطة وضوحا فيما بعـد .

وكذلك التذكر ، فان القرآن لم يرد به ما يراد عند علماء النفس من الترديد والحفظ للأشياء بل أراد به — حسبما نفصل بعد ذلك — حالة الاتعاظ والارعواء ، وهو الآخر يأتى مع أولى الألباب ، ومع

المؤمنين ، ومع من [كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد] والذين يتصفون به قد قطعوا شوطا بعيدا فى التفكير الأولى وعندما وصلوا الى تلك الحالة كان لديهم فكرة وموعظة ، عقل ولب ، ذهن وصفاء قلب وحضور جوارح ، وشهود للحقيقة ، فأين التفكر اذا من تلك الحالة ؟ ؟

الاتجاه الثالث : التمايز الادراكى وقواعده :

يبدو واضحا أنه لا يستطيع أحد أن يتناول الأحوال المعرفية فى القرآن الكريم دون أن يلحظ فروقا بينها ، بل ويكون حالنا كذلك بالنسبة للعمليات العقلية كلها ، ويعتمد هذا الشعور بالتمايز على قواعد هامة : منها ما هو عام يرتبط بطبيعة ادراكنا للأشياء على وجه العموم ، وما هو خاص يتعلق بالملكات التى حدثنا القرآن عنها وأثارها فينا ، وطالبها بأن تنشط فى محيط أياته •

أما بالنسبة الى القاعدة العامة فقد أشار اليها السمرقندى فى قوله [نحن نجد فى أنفسنا أن لنفوسنا قوة بها تتمكن أن تلحظ الحقائق والمعانى ، واذا تعلقت بمعنى تصل النفس اليه ، ويتحقق الادراك ، وتلك القوة هى البصيرة ، وتلك الملاحظة هى الفكر ، وأول الوصول هو الشعور ، واستثباته هو التعقل (١٦) •

وقوله يعنى أن حالة الوعى فينا شديدة الوضوح لا تحتاج الى دليل اثبات ، وكل منا يحسها فى أعماقه ، وربما كانت أشد حالة يقين وضوحا لدى طلاب الأساسيات اليقينية (١٧) ، ولم يقدم الأنبياء براهين على صحة وجودها ، بل اعتبروها قائمة

---

(١٦) شمس الدين السمرقندى : الصحائف الالهية : ٧٢؛

(١٧) وكلنا يعلم انها هى التى اخرجت « ديكارت » من الشك ، وما من احد سوى السوفسطائيين انكر تلك الحالة فى نفسه .

فعلا . وخاطبوا الأقوام على أساس من الاتفاق على وجودها ، وقبل أن يجادلوهم ، ويسوقوا اليهم الحجج فى القضايا المختلفة حولها ذكروها بنعمة السمع والبصر والفؤاد ، ثم بعد ذلك دخلوا معهم فى نقاش حاد حول الأمور المتنازع عليها .

وبصرف النظر عن تسمية تلك القوة الادراكية التى نحسها فينا بالبصيرة كما سماها السمرقندى فليس هناك اتفاق حول تلك التسمية، بالعكس ارتبطت كلمة البصيرة بالادراك القلبى فى مقابل القوة العقلية التى يتحدث عنها صاحب « الصحائف الالهية » نقول بصرف النظر عن التسمية فالثابت أن فينا قوة عاملة فى حقل الوعى والفهم ، وعملها له مراحل ، وكل مرحلة متميزة ولها اسم يخصها ، وتبدأ تلك المراحل هنا بالملاحظة وتسمى بالنظر أو التفكر ، واذا اقترب النظر أو التفكر بالأشياء اقترابا ذهنيا مليئا بالوعى سمى ذلك بالشعور ، وعندما يتثبت من الأمر المنظور تسمى الحالة تعقلا .

على هذا النحو تصور السمرقندى أحوال الادراك ومراحله وأسماءه ، وكل واحد منا يمكن أن يتصورها على نحو آخر ، ولكن فى النهاية نتفق على وجودمراحل فكرية متميزة ، فها هو الامام محمد بن ادريس الشافعى يعرض للتمايز من زاوية أخرى فيقول [صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور . والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة] ، ثم يقول ناصحا [فكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم] (١٨) .

لقد ازدحم نصه بعبارات الادراك مثل صحة النظر ، والروية والفكر والفطنة والمشاورة باعتبارها تمحيصا للفكر الخاص ، وربط نشاط هذه الجوانب العقلية بالارادة والحزم والعزم وهى

---

(١٨) الاحياء ج٦ ٦٢.

دوافع العمل القوية ، وبها ينجو من المهالك ، ويتخلص من صدمات الفشل ، ووخز الندم ، وداء الغرور وخطر التفريط ، ثم تأم بترتيب دقيق شامل للجوانب العقلية وما يتبعها من العمل ، فطالب بالتفكر قبل العزم ، وبالتدبر قبل الهجوم وبالتشاور قبل القدوم ، وهذا يدل على أن مراحل التفكر متنوعة أن التفكر غير التدبر ، وكلا منهما غير التمحيص للفهم بعرضه على الآخرين •

وإذا انتقلنا الى قواعد التمايز الخصة بحديث القرآن عن الملكات وجدنا أن أقوى تلك القواعد هي الثقة في أن القرآن الكريم لا يعرض للمعنى الواحد ، أو الحالة المحددة بألفاظ متغايرة ، وعلى فرض وجود معنى جامع مثل التعقل ووجود ألفاظ تدل على أنشطته ووجوهه فليس من الحكمة المساواة بين هذه الألفاظ مساواة كاملة ، ومن الدقة أن نبحث عن الفروق بينها بدلا من أن نسوى بين مدلولاتها جزافا ، أو قعودا عن طلب التنوع اعتمادا على وجود المعنى الجامع ، وينبثق من هذا الفهم القول بأن القرآن لايحمل تكرارا لفظيا بحتا ، وأن كل لفظة مهما تشابهت بغيرها فلها مميزات معنوية تخصها ، والتسليم بصحة هذه القاعدة وما جاء فيها يتفق مع كون القرآن حكيما ومعجزا ، ومفصلا ومصرفا ، ويتفق كذلك من باب أولى مع الايمان بسعة العلم الالهى واحاطته ، واطلاق الحكمة الالهية ودقتها ، فاذا قال الحكيم جل جلاله قولا أو تكلم بكلمة فلها مدلولها الخاص ضرورة أن اللجوء الى الترادف أو التكرار اللفظى قصور في العلم ، وضيق في القدرة على التنويع جل جناب الحق أن يتصف بذلك •

والأستاذ العقاد عندما عرض لتلك النقطة قال : [ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة ، بل هى تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها ، وخصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته]

وحديث القرآن [يعم كل ما يتسع له الذهن الانسانى من حاسية ، أو وظيفة وهى كثيرة] ويقول [وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الانسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها(١٩) ومدلولاتها المتنوعة] .

ومن القواعد الخاصة التى تصحح الحكم بتمايز كل ملكة من ملكات الوعى التى تناولها القرآن ما يفرضه السياق نفسه ، فالجو الذى تساق فيه حالة النظر أو التفكر أو التذكر أو التبصر أو التدبر يختلف من حالة الى حالة ، والألفاظ المجاورة لكل ملكة تختلف عما يكتنف الأخرى من ألفاظ أو يحيط بها ، فعلى سبيل المثال ترد كلمة السير مع النظر ولا تأتى مع التبصر أو التدبر ، وتأتى ملكة العلم مع النجوم ، وملكة التفقه مع النفس البشرية فى سورة الأنعام (٢٠) ، وترد فى سورة الرعد حالة التفكر والتعقل مع الآيات الأرضية من جبال وزروع مختلفة الأكل ، وقد فضل الله بعضها على بعض كون الماء واحدا والتربة واحدة ، وقد جعل الله فى كل الثمرات زوجين اثنين ، فلما كانت المسألة تحتاج الى تعمق فى فهم الآيات الكونية أتى بالتفكر تارة وبالتعقل أخرى ، لم يأت بالعلم أو مجرد النظر ، وتقتصر حالة التذكر على أولى الألباب وليس كذلك بالنسبة للتفكر « انما يتذكر أولو الألباب » (٢١) .

وهذه مجرد أمثلة لا تدخل فى باب الحصر .

والتمايز الموجود فى الآيات دقيق ولكنه موجود ، وعميق ولكنه واضح ، وملحوظ لمن يتأمله ولكنه يحتاج الى روية ، والملكات مهما بدت قريبة المدلول حينا فان بعضها [ينفرد بمعناه على حسب

---

(١٩) التفكير فريضة اسلامية ٧ — ٨
(٢٠) الآيتان ٩٧ — ٩٨
(٢١) الرعد ٣ ، ٤ ، ١٩

السياق فى أحيان أخرى] (٢٢) . والتعقل أوسع من أن يدل عليه بكلمة واحدة ، وحالاته متنوعة لا ينبغى أن تنضم تحت حالة منها ، وأحكم تصرف هو أن نعبر عنها بكلمات متعددة ، وأن تخرج أحوال التفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم دالة على معانى مستقلة متخصصة بعبارات متنوعة ، ومجارى الأفكار ، وموضوعات الادراك هى الأخرى متعددة فمن اللائق جدا أن يقابلها تنوع فى ملكات الفهم كذلك .

أضواء على الترتيب بين الملكات :

بعد أن اتضح لنا التمايز بين الملكات بقى أن ننظر فيما عسى أن يرد من نصوص وأقوال تلقى الضوء على هذه المسألة ، وتقدم الينا صوره من صور الترتيب التصاعدى بين الملكات . ونلتقى أولا مع نص لا نعتبره محاولة للترتيب ، ولكنه مصدرها الأصيل ، فعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصاحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه »] .

ان حقيقة الأمر قد انصب على النظر بالبصر فى المصحف ، وذلك لمن يحفظ القرآن ، واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النظر البصرى عبادة ، وعندما طلب الصحابة مزيد ايضاح حول حظ العين من العبادة كان الجواب من النبى صلوات الله وسلامه عليه مبينا للمسئول عنه وزيادة ، وأوضحت الزيادة العلاقة بين النظر حال كونه عملية ادراكية وغيره من العمليات الذهنية ، وبعبارة أخرى أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم النظر معنى ادراكيا ، ولم يجعله مجرد نظر بصرى ، ووضعه فى المرحلة الأولى ، ثم ثنى بالتفكر فى آيات الله المتلوة ، ثم ختم بالاعتبار عند عجائب القرآن .

---

(٢٢) التفكير فريضة ١٢ — ١٣

وإذا أخذنا فى اعتبارنا بواسطة نصوص أخرى مثل « فاعتبروا يا أولى الأبصار » أن التبصر سابق ومقدمة للاعتبار يصير الترتيب هكذا : **النظـر ثم التفكـر ، ثم التبصر ، ثم الاعتبـار** ، ويمكن الحاق التذكر بالاعتبار لقرب مدلوله فيكون رديفا له فى الترتيب السابق ، ويقع عقبـة •

وجريا على تلك السـنة فى الترتيب بين الملكات سار ابن قيم الجوزية ، لقد بدا أثنـاء تناوله لمسألة التفكر متأثرا بالغزالى فى كثير من مواقفه ، ولكنه تخلى عن هذا التـأثر وسلك طريقا مستقلا ازاء تمايز الملكات ، وقام بعملية ترتيب واضحة •

فى البـداية استخدم نفس المثال الذى ساقه الغـزالى لشرح قضية التفكير ، ثم سخره بعد ذلك للتمييز بين الأحوال الادراكيـة من وجهة نظر ابن قيم المستقلة ، تحدث عن النظر فى أحوال الدنيـا والآخرة وكون الثانية أبقى وأدم ، ومن تفكر جيدا آثر الباقية على الفانيـة ثم قال عقب ذلك [وهـذا يسمى تفكرا وتذكرا ، ونظـرا وتأملا ، واعتبارا وتدبرا واستبصارا ، وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء وتتفرق فى آخر] •

وأما اجتماعها فانها كلهـا عمل العقل الجـامع ، وتؤدى الى العلم بالمطلوب •

وأما افتراقها فمن وجوه دلالتها ، وكون كل واحدة لهـا معنى مستقل ، ولم يترك تحديد المعنى المستقل بعد اثباته بل قام بتحديده طبقا للمثال المطروح وهو النظر فى ايثار الآخرة على الأولى ، فرأى أن النشاط الذى قام به العقل ازاء الموازنة بين الدنيـا والآخرة ، وما توصل اليه من ايثار الآخرة [يسمى تفكرا لأنه استعمال الفكرة فى ذلك ، واحضاره عنده] •

ومن جانب آخر [يسمى تذكرا ، لأنه احضار للعلم الذى يجب

مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا »] .

ومن ناحية ثالثة [يسمى نظرا لأنه التفات بالقلب الى المنظور فيــه] .

وكذلك [يسمى تأملا لأنه مراجعة للنظر كـرة بعد كـرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبــه] .

وهو اعتبار لأن الناظر أو المتفكر يعبر منه الى غيره ، وهــذا الوضع الجديد الذى يعبر اليه قد صار حالا لصاحبه بعد أن اجتاز المرحلة المـاضية ، فكأن العبد المتفكر عبر من العلم والمعرفة الى حال العبرة والخشية فهما ثمـرة المعرفة السابقة .

وأيضا يسمى تدبرا [لأنه نظر فى أدبار الأمور وهى أواخرها وعواقبها] .

وأخيرا [يسمى تبصرا واستبصارا ، وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه ، وتجليه (٢٣) أمام البصيرة .

وما صنعه ابن قيم لا يعدو تمييزا بين حقائق كل ملكة ادراكية مستخدما فى ذلك مثال الغزالى ، ولا يجوز أن ننظر الى أقواله تلك على أنها الترتيب الأمثل فى نظره لأننا نجد له محاولة أخرى وازن فيها بين ملكة وأخـرى ثم انتهى الى ترتيب أفضــل ارتضاه ، واستقر عليــه .

وفى اطار هــذه المحاولة يبين أولا علاقة النظر بالتفكر فيقرر أن الآيات أو الموضوعات المدركة تكون موضع نظر العين فى الدرجة

---

(٢٣) ابن قيم الجوزيه — مفتاح دار السعادة ح١ ٢٣٠ — ٢٣١

الأولى ، ثم تنقل الى نظر القلب ، ويقوم التفكر بدور اســتخراج المعارف العلميــة من الموضوعات التى نقلت الى القلب عبر النظر العينى ، وبذا يكون النظر مقــدما يليــه التفكر •

ثم يتحدث ثانيا عن علاقة التفكر بالتذكر : فيبين من جــديد ضرورة النظر لجلب مدركات تكون محلا للتفكر وذلك لأن التفكــر طلب القلب ما ليس حاصلا من العلوم من أشياء هى حاصلة ، وتلك حقيــقة التفكر ، فاذا لم يجلب النظر مراد للتفكر لم يكن ثم مراد بكون موردا للفكر ، وبالتــالى يستحيل الفكر ، ضرورة أن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المرادات اذا كان المطلوب بها حاصلا لم بتعلق بهــا التفكير أيضا ، فيتحصل أنه لابد من أن يقوم بجــذب موضوعات جديدة لكى تكون محلا التفكر ومجرى له ، وعن طــريق اعمال التفكر فى الموضوعات القادمة من خلال النظر تزاد المعــارف وتنمو وتتكاثر ، ويوجد فى القلب ما ليس حاصلا من ذى قبل •

وبعد ذلك مباشرة تأتى مهمة التذكر ، وتتمثل فى تكرار القلب لــا علمه وعرفه عن طريق التفكر ليرسخ فى الفؤاد ويثبت فلا يمحى ، وبين التفكر والتذكر وشائج قوية ، بحيث لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ولا يحل أحدهما مكان الآخر ، ولابد من وجودهما معــا ، لأن التفكر مستخرج للفهــوم من الموضوعات المتطورة ، والتذكــر مذاكر لتلك المعــارف ومكرر لهــا حتى تهضم وتستقر وتثبت ، فهما ضروريان من جهة المعرفة ، وكلما زاد التفكر من تحصيله عاد التذكر على المعلومات المحصلة من جهة التفكر فرسخها وقواها ، وكان ذلك خدمة للتفكر من وجه جديد كذلك •

ويستشهد ابن قيم فى فهمــه السابق بقــول الحسن البصرى [ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القــلوب حتى نطقت بالحكمــة ، أو فاذا لهــا أســماع

وأبصار] (٢٤) وتستمر عملية المعاودة بين التفكر والتذكر طالما بقيت حالة الاستعداد للفهم والوعى ، كلما غكر كرر وتذكر حتى يرسخ ، فاذا رسخ العلم المحصل تفكر فيه من جديد واستخرج منه شيئا لم يكن موجودا أو أضاف اليه ما لم يكن محصلا فيعود التذكر على ذلك كلــه مرة أخرى وهكذا دواليــك ، وبذا يكون التفكر والتذكر أصلين للمعرفة وللهدى والفلاح • أى أنه اذا ظفر بالمطلوب وتفكره وتذكره أدرك الحقيقة ، وابصر مواقع الفعل والترك •

وبهذا يكون ابن قيم قد رتب الأحوال الادراكيــة على النحو التالى : نظــر ، تفكر ، تذكــر ، وهو قريب جدا من الترتيب المستفاد من الحديث السابق •

ولنا أن نسأل ابن قيم صراحة أين موقع التبصر ؟ هل أدغمته فى التذكر ، أو ضمنته اياه ؟ أو ماذا ؟ عنــدئذ يجيبنا على الفــور كلا : الفكر باب التبصر والتذكر [فاذا فكر تبصر ، واذا تبصر تذكر] ويؤكد على أن النظر جالب ومستدع ، والفكر باب ومحصل ، والتبصر مترتب على النظــر والتفكر ، والتــذكر ثمــرة ذلك كلــه [فتأمل ذلك حق التأمل] (٢٥) قال تلك العبارة الأخيرة تأكيدا على أن هذا الترتيب قمــة التــأمل عنده وأنه حقيقة الوعى فى المسألة فيجب الحرص على ما قدم من بيــان ، وما قام به من صلات بين تلك الملكات ، علاوة على أنها من الدقائق التى يلزم الاستمساك بها •

ومن جانبنا نميل جدا الى هذا الترتيب ونستحسنه لندرة من قام بهــذا التوضيح ، ولأنه مستند الى نص شرعى هو الحديث السابق ، ويتمشى مع روح النصوص القرآنية وسياقها ، ومع القواعد المذكورة آنفا ، وما دام الأمر كذلك فسوف يكون ترتيب الدراسة فى هــذا

---

(٢٤) انظر المرجع السابق ج١ ٢٦٨.
(٢٥) نفســه ج١ ٢٦٧ — ٢٦٨.

الباب قائما على هذا الترتيب ، فنقدم النظر ، ثم التفكر ، ثم التبصر ، ثم التذكر والاعتبار ، وأخير نتناول التدبر والتفقه على أنهما حالان داخلان بعد الهداية ، يعنى لا يكونان الا بعد أن يؤمن الانسان ويتذكر ثم يقبل على القرآن متدبرا ومتفقها ، علاوة على أن التدبر والتفقه لا يعملان الا فى مجال القول وحده ولذا سنفصلهما بدراسة مستقلة تأتى عقب التذكر مباشرة .

عصارة المسألة :

لا بأس أن نستجمع فى سطور ما قلناه لنضع تحت أيدينا ملخصا وافيا لهذه النقطة من الدراسة ، ولكى نبرز الأفكار الرئيسية نرى أن القرآن الكريم لم يشر الى الملكات على أنها أجهزة بدنية تعمل فى داخل الانسان وخارجه ، وانما أشار اليها على أنها استعدادات ذهنية تقوم بأنشطة واعية ، وتتحرك لفهم ما يجرى من حولها ومن داخلها ، وهى قادرة على النظر والتأمل والتحصيل والاستيعاب ، وكل واحدة من تلك القوة الادراكية لها وعيها المتميز ، وعملها الذى يخصها ، والقرآن الكريم وهو يثير النظر أو التفكر أو التبصر أو غيرها انما يثيرها باعتبارها متمايزة فى النشاط والتأثير على الانسان ، وباعتبار تنوعها فى الأفراد كذلك .

والتركيز على التميز والخصوصية فى النشاط لا يعنى انفصال تلك الملكات عن بعضها انفصالا تاما أو شبه تام بل هناك رابطة تجمعها هى رابطة الوعى والادراك ، فالعقل الانسانى ليس مكونا من وحدات مستقلة تماما ، وانما هى وحدة متفاعلة يؤثر بعضها فى بعض ، وجميع العمليات المعرفية يكمل بعضها بعضا [٢٦] ويشير الغزالى الى تدخل الفكر فى كل العمليات فيقول :

---

(٢٦) دكتور عبد السلام عبد الغفار : مقدمة فى علم النفس العام ٢٧٧

[ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم] ويتمثل سفيان ابن عيينة هذا المعنى سابقا به الغزالى فيردد :

اذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة (٢٧)

وأخيرا فان الملكات مع تمايزها وترابطها معا تترتب بصورة أفضل على النحو التالى :

الملاحظة والنظر ، ثم التفكر ، ثم التبصر ، ثم التذكر ، ثم التدبر والتفقه ، وهذا هو الخط الذى سنتبعه فى الدراسة التفصيلية لتلك الملكات .

وتأكيدا على استقامة هذا الخط نذكر ما سجله أبو هلال العسكرى فى كتابه (الفروق) بين النظر والتفكر وغيرهما من الملكات :

يفرق أولا بين النظر والتأمل من حيث أن النظر طلب معرفة الشىء من جهة غيره ومن جهة نفس الشىء أو هو طلب ادراك الشىء من جهة البصر أو الفكر ويحتاج فى ادراك المعنى الى الأمرين جميعا ، ويحدث النظر بالاقبال على الشىء بالبصر ، والاقبال عليه بالفكر والقلب ، أما التأمل فهو النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ، ولا يكون الا فى طول مدة ، فكل تأمل نظر ، وليس كل نظر تأملا .

ثم يفرق ثانيا بين النظر والتفكر ، من حيث أن النظر يكون فكرا أو يكون بديهة والفكر ما عدا البديهة ، ويرى من ناحية ثالثة أن التفكر غير التدبر ، فالتفكر تصرف القلب بالنظر فى الدلائل ، والتدبر تصرف القلب بالنظر فى العواقب على حين يقرر أيضا أن

---

(٢٧) الاحياء ج٦ ٥٩

المستبصر هو العـالم بالشيء به تطلب العلم ، والاستبصار هو أن يتضح الأمر لصاحبه حتى كأنه يبصره ، وهذا غير التفكر والنظـر كذلك ، والتذكر هو استعادة ما علم فلا يكون الا عن عزوب (٣٨) ، وبهذا يفرق بين كل ملكة من الملكات . وهـذه التفرقة تتفق مع مذهبه فى أن تنوع العبادات يدل على تنوع المعانى والمفاهيم .

(٣٨) الفروق فى اللغة ٦٥ — ٧٤

الفصل الثانى

ملكة النظر

—

النظــــر :

اننا لم نقــرأ عن دين من الأديان أعطى للحقيقة العقلية نصيبها من الاهتمام والاحترام مثلما أعطاها الاسلام ، لقد أشـاد بالقـوى العقلية فى حد ذلتها ، وهذا هو مقصدنا بعبارة الحقيقة العقليـة ، لقد نبـه الانسان اليهـا باعتبارها نعمـة عظمى من الله بهـا على البشرية ، وهى نعمة تستحق الشكر من الانسانية التى ميزها خالقها بتلك الميزة عن سائر الكائنات حتى قيل أنها تعنى الأمانة التى عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها « وحملها الانسان » (1) وكان اسم العقل واردا بين المعانى التى شرح المفسرون بهـا كلمـة الأمانة .

وبتلك الحقيقة حمل الانسان من صفات الحق معانى محدودة تليق بمخلوقيته ، فصار قادرا على التدبير والابتكار ومعرفة الحـق والصواب ، وتحرى الصحيح من الخطأ ، والتمييز بين العدل والظلم ، والخير والشر ، والفضيلة والرزيلة ، وبها أضحى لا يفعل فعـــلا الا لحكمة وعن روية ، وحتى حين يتفلسف أو يدعى ذلك ، أو يبنى حكمه على شبه فهو يستند الى تلك القوة المودعة فى نفسه لقيم له

---

(1) الأحزاب : الآية ٧٢

سندا على تصرفه ، أو تقـدم له تبريرا مقبولا لديه هو على وجهته التى يولى وجهه نحوها .

والله سبحانه يخاطب البشر فى القرآن على أساس من وجود تلك القـوة ، سواء كان المخاطب مؤمنا صح نظره ، أو كافرا سـاء عقله ، الطرفان يخاطبان بنـاء على أنهما يحملان استعدادا صالحا لفهم الخطاب وجميع الظروف المحيطة به ، وكل من المؤمن والكافر له خطابه ، وفى اللحظة التى يصف فيها الخطاب الالهى قوى المنكرين العقلية بالتوقف والشلل التام أو الجزئى فانما يفعل ذلك ليتخـذ أربابها طريقا جديدا يصححون فيه مسار الادراك لتلك القوى .

وما دمنا نحمل تلك الطاقة الهائلة فمن الضرورى أن تعمل ، ان الخطاب الالهى لهـا ، وان حديث الله مهما كان محكما فى كتاب هو القرآن فليس فى منطق الحكمة الالهيـة أن يكون الوحى بديلا بالكلية عن العقل وملكاته ، انه عامل هام جدا ينبه النظر ، ويحفز الفكر ، ويدفع ملكة التـأمل والتذكر ، وينير حال التبصر . والوحى نفسه مجال من مجالات التدبر والتفقه ، ان مصادرة الوحى على العقل غير واردة بين ثنايا آيات الكتاب الكريم ، حتى فى تلك المسائل التى تبدو بعيـدة الغور فى التجريد ، ويتناولها القـرآن على أنها أمور غيبية تخضـع هى الأخرى لنظر العقل بصـورة مناسبة لكل مسـألة .

وفى مثل تلك الأمور الغيبية يفرق القـرآن فى تعامله مع منطق العقل وحقيقته ونشاطه بين حال الثبوت والوجود ، وحال الاستدلال عليهما وبين أحوال الكيف والخصائص ، فللعقل ونظره أن يعمـل ليصل الى الاثبـات ويدرك الوجود . وعليه أن يكف بعد ذلك عن تصور الكيفيات ، وأن يلجـأ الى طريق الشرع لمعـرفة التفاصـيل المتعلقة بالغيوب ، وما تكون عليه أحوالها .

ان نظـــرة القرآن الى ملكات الوعى نظـــرة اكبار بلا حدود ، ومنذ اللحظة الأولى التى وفـــدت الى الأرض من الله أحرف الوحى الأولى بدت سمات الرسالة الجديدة تظهر أمام الجميع على أنهـــا رسالة دين وتعليم ، وحى وتثقيف ، بيـــان وتذكير ، ظهرت تنبـــه الأذهان الى القراءة والعلم (٢) ، وتبنى قواعد التدين على الفهم والتأمل وما القراءة والعلم بآلاته ، والفهم و لتـــأمل الا بنـــاء على وجود ملكات ادراكية تخـــدم هـــذا الغرض ، وتنهض به .

ومن هـــذه الجوانب تميزت رسالة الاسلام عن رسالة تهتم باخراج اليد بيضاء من غير سوء ، وبعصا اعجاز تفعل فعلها الخارق بقدرة الله ، وعن رسالة أخرى يحيى صاحبها الموتى باذن الله ويبرىء الأكمـــه والأبرص ، ويدعو باحضار مائدة لدنية خالصة (٣) .

والقرآن اذ يعتد بالحقيقة العقلية ، ويثير نشاطها ، ويوجهه الوجهة الصحيحة لا يفعل ذلك بدون ترتيب حكيم ، بل يدعو الحياة العقلية كلها ، بجميع وظائفها أن تعمل مبتدئة من ملكة النظـ ر ، ومتسلسلة بعد ذلك الى ما وراءها ، وهو لا يضع الملكات الادراكية على أول طريق الوعى ويتركها تســـير ، وانما يتابعها فى كل مرحلة ويقف معها ناصحا وموجها ، ومرشـــدا وهاديا ، ومبينا لهـــا كيف تعمل بصورة أفضل ، وكيف ينتج وعيها انتاجا سليما ، ويحذرها من السقوط فى الهاوية ، ومن الوقوع فى الخطأ ، ويبين لهـــا أســـباب السقوط والزيغ مثل تقليد الأسلاف ، واتباع الأهواء والشـــهوات الى آخـــره .

---

(٢) « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقـــرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

(٣) اشارة الى رسالة موسى وعيسى عليهما وعلى نبينا افضـــل الصـــلاة واتم التسليم .

النظــر أوليــة ادراك شاملة :

وانطلاقا من كل ما ذكر فى النقطة السابقــة ، ســواء باعتبار الحقيقية العقلية ، أم باعتبار نشاطها نرى أن الله سبحانه جعــل مقدمة الادراك هو النظر ، ولفت انتباهنا الى أنه باب نطل منــه بأذهاننا على الكون بأسره ، وعلى كثير من علاقاتنا ، وأنه أوليــة ادراكية نستشرف بها على كثير من مظاهر الوجود المتعددة والمترامية.

ان الحياة بكل ما فيها مجال لهــذا المبــدأ العــام : الوجود كلــه محل للنظر والفهم ، وعلاقتنا به ، وصلاتنا العامة والخاصة ، وتخطينا لهــذا العالم وعلاقاته الى ما فوقه ، وتطلعنا الى موجده ، كل ذلك لابد فيه من النظر والوعى ، وجميع ما فيه ينبغى أن نتأمله اذا أردنا معرفته ، أو رغبنا فى الوصول الى مبدعه .

وعلى الرغم من أن القرآن ملىء بالأخبــار التى تعرفنا بالله وصفاته ، وبالنبوة والرسالة ، وبالعــالم الأخروى وما يحتويه ، وبما يجب أن يكون عليه الناس ايمانا وتشريعا وسلوكا الا أنه مع ذلك يستحثنا على أن نتيقن من صــدق ذلك كلــه بالنظــر مع كون الأخبــار يقينية ، وأن نبنى معارفنا بالعالم وبخالقــه على أساس من التـــأمل القلبى السليم اذا لم نستجب لمجــرد الأخبـــار الصادقة أبــدا .

ان الذى أمرنا بالايمان به عن طريق وحيه هو نفسه جل جلاله الذى نبهنا أن نتجول بأنظارنا فى آياته لندركها فى ذاتها ، ولنعــلم يقينا من خلقها ؟ وما من واقعــة كونيــة أو انسانية ، أو مبدأ دينى الا وهو فى متناول النظر ، وللتأمل معه وقفــة واعية ؛ وليس هناك ما هو مسلم لا مجال للنظر فيه ، وما هو مسرح التأمل ، الكل سواء فى النظر ، اللهم الا حقيقة الذات الالهية وحدها فهى التى تسمو فوق مداركنا بكنهها لا من حيث وجودها كما أشرنا فى الفقرة السابقة .

ولكى نتحقق من أولية النظر الادراكية ، وشمولية تلك الملكة ، وتنبيه القـرآن لهـا علينا أن نقوم الآن باستعراض شامل لمعـانى تلك اللفظة ، وما تحتويه من دقائق ، سواء من الناحية اللغوية أم من ناحية استخدامها فى القرآن الكريم •

والملاحظة التى يجب تسجيلها قبل هذا الاستعراض هى أن مادة « نظـر » فى اللغـة أو القـرآن تحمل معانى التـأمل والتروى والدراية والفهم اما صراحة واما ضـمنا ، وليس هناك معنى من معانيها الواسعة يخلو من اعمال الروية •

النظر الكونى ادراك بصرى وبصيرى :

يقول ابن فارس [النون والظاء والراء أصـل صحيح يرجـع فروعه الى معنى واحـد وهو تأمل الشىء ومعاينته ، ثم يسـتعار ويتسـع فيه] (٤) ويقول الراغب الأصـفهانى [النظر تقليب البصر والبصيرة لادراك الشىء ورؤيته] (٥) •

ويتضح من النصين أنه ادراك شامل للتأمل الذهنى والمشهود البصرى ، وأن أصحاب التعريفين قد قدما التأمل على الرؤية العينية، والقواميس الأخرى وكتب المفردات تذكر أن معنى نظر الى الشىء أبصره وتأمله بعينه ، وقد يطلق على البصر بمعنى الحاسة ، وفى الوقت نفسه يقولون نظر فى الأمر تدبره وتأمله وفكر فيه ، والأمر النظرى هو الذى نتناوله بحثا بالفكر لا بالتجربة ، والنَّظَر البحث وهو أعم من القياس ، وتناظر القرم تباحثوا ، وتباروا فى المحاجة ، وتناظروا فى

---

(٤) معجم مقاييس اللغـة جـ٥ ٤٤٤ .

(٥) المفردات ٤٩٧ ، والبصيرة يراد بها العقل لا البصيرة التنبيـة المرادة عند الصوفية التى هى محل للالهـام ، أو حاسة تدرك بلا سبب ظاهر ، وقد تسمى « عين القلب » .

الأمر تجادلوا وتراوضوا ، والمناظرة المباحثة ، واستحضار كل مايرى بالبصيرة ، والنظر الفراسة والحذق (٦) .

وعلى هذا فالنظر اطلالة بصرية متأملة ، وتفكر عقلى واع ، ولا يقتصر على مجرد الرؤية بالعين الا عند العامة ، وأما أرباب العلم فلا يفهمون منه الا أنه ادراك يجمع بين الحس والتأمل معا ، فان نظرنا بحاستنا البصرية فقد تأملنا المنظور ، وان حاولنا فهمه ووعيه فمن الضرورى أن نشاهده طالما أننا نصرح مع تلك العملية بكلمة النظر ، فهو اذا من الناحية ادراك مشترك بين رؤية العين الثاقبة وتأمل العقل الواعى وكل من نظر العين والعقل له مدخل فى فهم الأشياء .

والآيات الواردة فى نظر العين لا تخلو من الاعتبار مثل قوله تعالى [**واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون**] وقوله جل شأنه [**واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون**](٧) ومثل [**ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رايتموه وأنتم تنظرون**] (٨) .

قال القرطبى [وأنتم تنظرون.. معناه بأبصاركم.. أو ببصائركم للاعتبار] ويقول فى الآية الثانية أى يتراءون وهى يموتون بمعنى يقابل بعضهم بعضا ، أو تنظرون الى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصاعقة ، وهذا هو التأمل (٩) ، واذا نظر الانسان ولم يتأمل فقد اعتبره القرآن فى عداد من أصيبوا بالعمى .

---

(٦) الفيروز ابادى : القاموس المحيط ج٢ ١٤٤ — ١٤٥ .

(٧) البقرة ٥٠ ، ٥٥

(٨) آل عمران ١٤٣ ومثل ١٤٣ الأعراف ، الأنفال ٦ ، الأحزاب ١٩ وغيرها كثير .

(٩) الجامع لأحكام القرآن ج١ ٣٩٢ ، ٤٠٤ .

كما أن الآيات التى حثت على التأمل فى الكون كلـه أو فى بعض مظاهره لا تخلو هى الأخرى من نظر بالعين طالما كان ذلك مستطاعا مع وجود الحاسة ، ومع امكان رؤية المنظور اليه ، ومن الآيات التى دعت الى تأمل الكون قوله سبحانه [وهو الذى أنزل من السـماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبـا متراكبا ، ومن النخـل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان متشابها ، أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] ٩٩ الأنعـام ، [أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فبأى حديث بعـده يؤمنون] ١٨٥ الأعراف [قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون] ١٠١ يونس [أفلم ينظروا الى السـماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لهـا من فروج ، والأرض مددناها والقينـا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج] ٦ ، ٧ ق [فلينظر الانسـان الى طعامه انا صببنا المـاء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخـلا ، وحدائق غلبـا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم] ٢٤ — ٣٢ عبس [أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت] ١٧ الغاشية .

القرآن الكريم فى هذه الآيات يحول عين الانسان وعقله وقلبه الى الوجود كله ، والى ظواهره المتكررة المشاهدة والى أقرب تلك الظواهر منه مثل الطعام ومصادره حتى وصل اليه والابل وكيف خلقها البـارى له ، ولا يخفى أن الظواهر التى سيقت فى القرآن الكريم لتكون مجالا ادراكيا هى تلك التى تتسم بالعظمة والابداع الفائق ، والتحول والتغير ، وفى الوقت ذاته تتصف بالجمال والفنية الرائعة ، ونحن نستشعر الحاجة الضرورية اليها جملة وتفصيلا ، ذلك لأن أقرب الأشياء الينا مثل الطعام يرتبط بأبعد الأشياء عنا كالسـماء وفروجها وأفلاكهـا .

وعلى الانسان أن يفتح عينه ناظرا الى هذه الآيات الباهرة . ذى الصنعة الدقيقة والجمال المبهر ، وأن يتأمل بعقله نظامه العجيب وترتيبه الدقيق ، وترابطه المستمر ، وتغيره الهادر ، كى يعتبر بكل ذلك ويعلم أنه لا يمكن أن يكون الكون هكذا كان ولكن هكذا خلق ، وأن كينونة العالم يستحيل أن تكون من ذاته ، ولكن من قوة أبدعته ودبرته .

ومن المعقول والملائم للحكمة أن يشترك النظر العينى مع القلبى فى تأملات واعية للكون ، لأن الانسان يفتقد كثيرا من الحس الواعى لو أغمض عينيه عن مشاهدة الوجود فى جماله وأطـواره ، وأشكاله وألوانه وفنيته الفاتنة ، اننا فى كثير من الأوقات نقف مبهورين أمام كثير من المناظر الخلابة التى حبا الله بها الوجود ، تصور كم من المرات سرحت النظر فى زرقة بحر تداعبه لطائف النسـيم فتتكسر زرقته فى تموجات خفيفة كأنها مكعبات بللور أزرق اخترقته أشـعة أضـواء منعكسة ، أو هبت عليه رياح عاصـفة فأحالت الوجه الجميل الوديع الى ثورة غاضبة ، تنفس عن نفسها بكتل من الأمواج لا تهـدأ حتى تظهر قوتها أمام الناظرين على الشواطىء ونحن أيها النظار مشدودون بأبصارنا اليه فى حلمه وغضبه .

وتصور خرير المياه فى الجـداول وانسيابها البرىء ، وتصور الشلالات وهى تهبط بشدة كأن قوة المـاء تريد أن تدك الأرض من تحتها ولكن هيهات ، أنظر الى المـاء يمشى رويدا رويدا فى مجراه النهرى يختال أمام الرائى حينا ، ويستحث الخطا حينا آخر ، واذا به يجد الهوة السحيقة تخل من توازنه فيهوى سريعا مدويا كفاتن ممشوق يمشى مليا فى أبهة الثياب ، ثم يكبو فيقوم فى قوة وكبرياء يشق طريقه من جـديد كأن شيئا لم يكن كذلك المـاء مع الشلال .

تصور هـذا وتصور مناظر الربيع ، وطفـولة النبات وبريقه الناصع ، يكاد يضحك لك مع كل ورقة ، وتكاد أنت تحس رقيق ملمسه

فى كل زهـرة ، يا لهـا من مناظر رائعـة تدور مع الزمن . وتتحف الانسان . وتتزين له لتمتعه . وترتدى له أفخر الأثواب لتسرى عنه كثيرا من عناء البشرية مع بعضها ، ولتسحب من داخله حرارة هم . وآلام حزن انتابه من أخ أو صديق أو قريب أو جار •

اذا فما الذى يمكن أن يحس بكل هـذا الجمال وبكل هذه العظمة لو لم تشترك العين مع العقل ، ان الأذن وحدها عنـدما تسمع خرير المياه أو هدير الرياح ، أو حفيف الشجر ، أو دق الرعود لا يمكن أن تقف على حقيقة المظاهر وأشكالها ، من ثم كانت الأذن متخصصة فى غير هذا ، وانطلقت العين سابحة فى رياض الكون تجذب وراءها عقل حكيم ، ولب فاهم ، وذهن متقـد ، وفراسة حاذق ، وهذا ما يريده القرآن الكريم عندما يطالب الانسـان أن ينظر ، يطالبه بأن يقف ويسير ناظرا فى ألوان الوجود وأشـكاله البديعة ، ومتأملا نظامه وحركته الدقيقة •

وتبعا لهذا فان حالة النظر شاملة للعين والقلب ، لمـا أنها تعنى النظر الى الشكل والصورة واللون ، وتعنى النظر للموضوع والنظام والكيف والارتباط ، وأسرار التغير والحركة ، وعلل الظواهر وغاياتها، والاعتبار بعد كل هذا والوصول الى واحدية الخالق مع تحصيل ثقافة كونية دقيقة •

ومن الذين أقروا توجه النظر الى الكون بالبصر والبصيرة ابن الجوزية (١) ، وجعل الأول مختصا بالأجرام والأشكال والألوان ، والثانى بالتجول فى آفاق السماء وباطن الأرض باحثا عما فى داخلهما وما فيهما من سـنن وقوانين • وكذلك المفسرون لم يهملوا واحـدا منهما ، بل عندما تناولوا الآيات السابقة جمعوا بين النظر البصرى ،

---

(١) مفتاح دار السعادة ح ١ ٢٥٤

والبصيرى ،ولم يتخلوا عن ذلك الا عندما يكون النظر البصرى غير ممكن ، وكثيرا ما جاءت عباراتهم تحمل ضرورة الجمع بينهما للاعتبار والوصول الى الله ، ويرددون دوما ألفاظ التدبر بالبصر والنظر بالقلب ، ويطالبون بأن يكون النظر فى كل من الحالين الادراكيين مليئا بالتأمل والاعتبار والاستبصار والاستدلال وتبين الحقائق . وتلك هى ألفاظهم كما ساقوها فى تفسير الآيات السالفة . وبلغ بهم من الدقة فى تطبيق ذلك أن كان شريح يقول [اخرجوا بنا الى الكناسة حتى ننظر الى الابل كيف خلقت] ولو لم يكن النظر البصرى مع التأمل العقلى مرادين لما قال شريح هيا الى الكناسة وهى سوق الكوفة التى ترد اليها الابل ولما علل ذهابه الى السوق بالرغبة فى الادراك لا لطلب الشراء (١١) .

ولم يترك القرآن فكرة اغراق النظر البصرى والبصيرى فى مباهج الكون ودقائقه الا عندما يريد تأنيب البشر على غرورهم واستكافهم عندئذ يقول [**فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب**] ٥ — ٧ الطارق يقول ابن كثير [ومنها تنبيه للانسان على ضعف أصله الذى خلق منه وارشاد له الى الاعتراف بالمعاد] (١٢) فقد حول نظره من المباهج الفاتنة ليوقظ تأمله الى الماء الذى تكون منه ، كما ينبهه أحيانا الى طينته الأولى .

التأمل النظرى فى مجال العلاقات

قلنا سلفا ان النظر أولية ادراكية شاملة ، وهذه حقيقة تتمشى

---

(١١) انظر تفسير القرطبى ج٧ ٤٧ — ٥٠ ، ٣٣٠ ، ٤٣١ ج٨ ٣٨٦ ج١٧ ٦ ج١٩ ٢٢٠ ج٢٠ ٣٦ — وتفسير ابن الجوزى زاد المسير ج٢ ٩٥ ، وتفسير البيضاوى ج٢ ٢٠٠ ، ومختصر تفسير المنار ج٢ ٥١٥ ، وتفسير الطبرى ج١ ٩٣ ج١١ ١٢٠ ، وتفسير القمى غرائب القرآن هامش الطبرى ج٩ ٨٨ — ٨٩ ج١١ ١١٩ ، والزمخشرى فى الكشف ج٢ ٣١ - ١٠٦ — ٢٠٥

(١٢) تفسير القرآن العظيم ج٤ : ٤٩٨

مع تلك المـــادة فى اللغة والقرآن الكريم ، فحتى المعانى التى يمكن أن نتصور أنها غير داخلة فى التأمل عند التعمق نجدها غائصة فى صميم الوعى والفهم ، ومن أمثلة ذلك ما يقال نظر لفلان رثى له وأعانه ونظره بعينه أى رحمـــه ونظر الشىء حفظه ورعاه ، ونظر الله الى عبـــاده أحسن اليهم وأفاض نعمه عليهم وعكسه لا ينظر الى من لا يطيعه أى لا يرحمه ولا يحسن عليه قال تعالى عن الكفار يوم القيامة **[أن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العـــذاب ولا هم ينظرون]** ١٦١ — ١٦٢ البقرة أى لا تنالهم رحمته لعلمه بأحوالهم وكفرهم .

والذين ينظرون الى الآخرين ويعطفون عليهم انما يفعلون ذلك بدافع من التأمل الداخلى ، والتطلع البصرى الى أحوالهم الظاهرة ، فقـــد انبنى الرثاء والعطف على المشاهدة لرثاثة الحال ، أو لمـــا يحتمل أن يكون قد حدث من مصائب أو أضرار بدنية أو نفسية ، كما انبنى أيضا على النظر البصـــرى الذى دفع صاحبه للنجـــدة أو العطف أو التقـــدم نحو الآخرين بالمعونة والاحسان .

وبدون تتبـــع حرفى لمعـــانى الكلمـــة واشتقاقاتها فى اللغـــة ، أو استعمالها فى القرآن نجد أن تلك اللفظة تتدخل بمعانيها ، وتقتحم بمضمونها الادراكى كثيرا من مجالات العلاقات الانسانية فيما بينهم وبين خالقهم من علاقات العمل والطاعة ، أو بينهم وبين بنى جنسهم ، حيث ترد بمعنى الحكم والفصل والتبين والترقب والتوقع والامهال والتـــأخير فى الدين أو البيـــع ، ولذا يتســـمى الذى يدير أمرا أو جهـــة ، أو يبحث قضية ، أو يترأس قبيلة بالناظر والناظور ، ونقول لمن قاس شيئا بشىء وماثل بينهما ناظر بين شيئين الى آخر هذه المعانى (١٣) .

---

(١٣) راجع القاموس المحيط ج٢ ١٤٤ — ١٤٥ والمفردات للراغب ٤٩٧ ، ومعجم الفاظ القرآن ج٢ مادة نظر والقرآن يستعمل اللفظة فى تلك المعانى مثل [ثم جعلناكم خلائف من بعدهم لننظر كيف تعملون] ١٤يونس=

ولا نتصور قاضيا أو متوليا لأمر ما لا يتأمل ما يعرض عليه من قضايا أو أحوال الغير ، ولا يشاهد ما يجرى فيما تولى عليه ، وكل من يترقب شيئا أو يتوقعه بفتح عينيه على كل الدلائل المتصلة به ، ويتأملها ، ويتفحصها تحليلا وتعليلا ، والذين يرقون لحال المدين فيؤخرون الدين وينظرونه ، أو يرجئون البيع انما يفعلون ذلك بعد النظر البصرى والعقلى فى أحوال الآخرين وظروفهم ، وفى الحوادث والملابسات التى تصاحب علاقاتهم بالغير ، وأيضا فعمليه التناظر بين شىء وآخر لا تقوم بدون مشاهدة عينية ، وتأمل ذهنى ، والنظر فى حال المماثلة هو قياس تمثيلى واضح ، وهو تقدير دقيق لأوجه التشابه والتكافؤ والتمايز بين الشيئين المعروضين ، واللغة تبرز ذلك واضحا بين معانى النظر ، والكتاب الكريم يأمرنا بالنظر فى الأمثال التى ضربها الغير ، وكيف تبدو متهافتة متناقضة .

وربما يحلو لكثير ممن كتبوا فى المفردات أن يجردوا اللفظة « نظر » فى ساحة المعانى المشار اليها حاليا من الادراك والوعى ، وليس كذلك فان أى تصرف من التبين أو الترقب أو المماثلة أو غيرها مبنى على النظر الواعى من البصر ، وعلى التأمل الثاقب من العقل ، والقرآن اذ يشير مادة النظر وسط هذه المرادات يريد أن تكون علاقات الانسان كلها فى أحواله مع ربه ومع البشرية محكومة بقانون النظر ، ومبدأ التأمل .

تأمل العواقب

وردت كلمة « النظر » فى القرآن الكريم فى (١٢٩) موضعا ، وجاءت نفس الكلمة مع تأمل العاقبة والنهايات للمعتدين ، والظالمين،

= [والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين] ٣٣ النمل [وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة] ٢٨٠ البقرة [فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر] ٢٣ الأحزاب [انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا] ٤٨ الاسراء .

والمفسدين ، والمكذبين ، والمنذرين ، والمجرمين ، والمشركين فى حوالى (٤١) موضعا ، وهذا أوسع معنى جاءت تلك المادة فى سياقه ، ولنا أن نعى مقدار تلك السعة اذا راجعنا تعدد المعانى للفظة . وكم وردت فى القرآن ، ثم وازنا بين مجيئها فى سياق التحذير من سوء المصير الذى يلقاه المكذبون وبين كل معنى على حدة ، عندئذ يتضح لنا أن القرآن قد حث بصورة مركزة وفسيحة على تأمل أحوال السابقين ، وما آل اليه أمرهم بعد أن وقفوا من الأنبياء موقف الجحود .

واذا أردنا من الناحية الموضوعية أن نعلل سر كثرة العدد للفظة النظر مع هذا المعنى بالذات وجدنا ابن قيم الجوزية يصرح بأن سبب ذلك راجع الى أن خاصية العقل النظر الى العواقب والغايات (١٤) ، والانسان فى الغالب مشدود الى أماله ونهايات تصرفاته وسلوكه ، والتفكير فى خواتم الأمور يصاحب وقد يسبق التفكير فى بداياتها ، وأحيانا نحن لا نشغل بالنا بشىء الا بالنظر فيما يعود علينا منه ، لما كنا على هذا النحو أثار القرآن الكريم فينا هذا الاهتمام ، وكلف النظر القيام بتلك العملية ارشاد الى أن العاقل، والذى يتأمل جيدا هو الذى تترجح لديه المصلحة فيقبل عليها ، ويعرف المفسدة فينفر منها ومن أسبابها .

وليست السعة لتلك اللفظة هى وحدها التى انفردت بها المادة بالنسبة للنظر فى العاقبة دون بقية المعانى بل حدث شىء فريد فى بابه وهو أن كلمة السير لم تأت بكثرة مع أى حالة ادراكية الا مع النظر فى العاقبة ، اللهم إلا استثنينا مجيئها مع النظر فى بدء الخلق مرة واحدة ، وحتى تلك المرة الوحيدة كانت استدلالا بالبدء على الاعادة (١٥)،

---

(١٤) مفتاح دار السعادة ح٢ ٣٩٨ .

(١٥) قال تعالى [أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] ٤٤ فاطر ، ونظيرها ١٠٩ يوسف ، ٩ الروم ، ٢١ غافر ، =

ولا يخفى أن الاعادة هى العاقبـــة النهائيـــة ، ومن مجموع الآيات التى حذرت من العواقب ، وحثت على الاعتبار فيها بصـيغه النظر مجردة أو بها وبالسير يتكون العدد الضخم لاحياء تلك الملكة لدى الانسان ، وبعثها بعثا تأمليا دقيقا .

فهل لنا أن نتلمس علة لمجىء السير مع النظر فى العواقب كما فعلنا فى تعليـل كثرة المـادة الواردة حول هذا المعنى ؟ نعم يمكننا ذلك بسهولة خاصة اذا وضعنا فى اعتبارنا أن ادراك العواقب التى منى بها السابقون ممن جحدوا الرسالات ، أو النهايات التى يلقاها كل انسان على وجه الأرض كالموت ، أو تلقاها الكائنات الحية كلها يوم يحكم من الله على هذا العالم أن يزول ، وتتغير أشكاله وقوانينه الى عالم آخر تتغير فيه أشكال الحياة وأنماطها وعلاقاتها ويتمايز الخلق طبقا لـما قدموا فى سابق وجودهم ان ادراك هذا يحتاج الى سير مع نظر ، أو نظر منفرد .

يحتاج الى ســير مع نظر ان كان الادراك متعلقا بنهايات لقيها أقوام سابقون ذهبـوا وبقيت آثارهم شاهدة على سوء صنيعهم ، والمصير الذى لاقوه من جراء ذلك ، فبالسير نشاهد بأعيننا ، ونلمس بكل حاسة فينا معالم الأمم الظالمة ، تلك المعالم التى اقتضت حكمة الله سبحانه أن تبقى دلالة على عصيان البشر ونفورهم ، وما وقع لهم بسبب ذلك ، وكم من المرات نبه المولى ســبحانه على آثار جماعات بأعيانهم ودعا أقواما لاحقين أن يتأملوا ما حدث للسابقين كى يعتبروا ، وفى بعض المواقف التى ظهرت بوضوح أمام الناظرين تعمدت القدرة الالهية اظهار الآية فى العاقبة أمام شهود الموقف كما حدث مع فرعون

= ١٠ محمد ، ١٣٧ آل عمران ، ١٣٦ النحل ، ٦٩ النمل ، ٢٠ العنكبوت ، ٤٢ الروم ، هذا عدا ما جاء فى النظر الى الموت أو الصاعقة ، أو العاقبة مجردا بدون كلمة السير .

اذ أنجاه ببدنه ليكن آية لمن خلفه ، ولكن تكون رواية القصة فى تلك الواقعة التاريخية ليست معتمدة على الخبر وحده بل على تواتر المشاهدين وهم جماعة ، فيكون شأنها شأن حوادث التاريخ التى لا تكذب وان تقادم عهدها لتوافر عنصر التواتر فيها .

وكلما اجتمع السير مع النظر قوى الادراك والاعتبار ، ولذا لم يحمل المفسرون السير على التأمل العقلى بل أولوه بالسفر الحقيقى بغية التأثر والازدجار يقول القرطبى تأويلا لقوله سبحانه [**قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين**] ١١ الأنعام [أى سيروا فى الأرض وسافروا فيها بقصد الاعتبار ولتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب ، وأليم العذاب ، وهذا سفر مندوب اذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار] (١٦) .

وفى تفسير قوله سبحانه [قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين] ٦٩ النحل يقول [**سيروا فى بلاد الشام والحجاز واليمن وغيرها فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المجرمين الذين كذبوا رسلهم] (١٧) .**

وبالسير نرى بأعيننا متأملين ، وبالنظر نفهم ونعى ونحلل ، ونعرف ، والسير وحده كاف طالما أنه سير للاعتبار ، ولكن الله سبحانه يريد الجمع بينهما من باب التأكيد على قوة التفكر واليقظة فى للوعى .

وادراك العواقب يحتاج الى نظر منفرد ان كانت الآثار قريبة لا تحتاج الى أسفار ، أو احتاجت ولكن القرآن يلفت الانتباه الى

---

(١٦) الجامع لأحكام القرآن ج٦ ٣٩٤ — ٣٩٥ .

(١٧) نفسه ج٢ ٢٢٩ وراجع ايضا ج١ ٣٩٢ ؛ ٤٠٤ ج٤ ٢١٦ ، ج٨ ٣٤٥ ، ٣٦٥ ، ج٩ ٢٧٥ ج١٠ ١٠٣ — ١٠٤ ، ج١٤ ٤١ ، وتفسير البيضاوى ج١ ١٥٣ — ١٥٥

النظر مرة بعد مرة لأنه هو المقصود ، وبدونه لا يتحقق المطلوب من الأسفار الى مواطن العبر والعواقب ، وكل من السير والنظر مجتمعين أو حال انفراد النظر لابد من تضـــافر رؤية العين مع قوة التـــأمل البصيرى •

ويبدو جليا لمن يتأمل القرآن أن كلمة النظر جاءت مع الاعتبار بالعواقب ولم ترد معه لفظة التفكر بحالها لـما تحتاجه الآثار الى الشـــهود العينى أولا ، وهو الأمر المعتبر مع التأمل العقلى فى ملكة النظـــر •

وثمة ملاحظة أخرى يجب الوقوف عنـــدها ، وهى أن القرآن الكريم عندما طالبنا بالسير والنظر لم تقف المطالبة عند حـــد الاعتبار المطلق ، وتأويل العلماء للنظر بالاعتبار فحسب كما جاء فى التفاسير أمر يدنو عن مطلوب الآيات التى حملت الحث على السير والنظر ، ان المطلوب أعمـــق وأدق من ذلك ، انه يتعلق بالاعتبـــار الادراكى لا الشعورى أو الانفعالى المحدود ، والذى قـــد يقوم على الاتعاظ والتأثر الوجدانى ، ومقصودى من تلك العبارة أن التأثر قـــد يقع فى النفس نتيجة وعى كامل بالأسباب والحقائق والنتائج ، وهـــذا ما عنيته بالاعتبار الادراكى ، وقـــد يقع بسبب الانفعال الوجدانى بما تقع عليه النفس من آثار التدمير للأقوام دون ركائز عقلية تتصل بتحليل الموقف ، أو الحدث التاريخى ، والواقعة الزمنية ، والاعتبار الادراكى حالة عقليـــة تخضع للتحليل والتعليل ، والاعتبار الوجدانى حالة شعورية تخضع للاتعاظ أكثر مما تخضع للبرهان والاستنتاج •

والمتتبع للسياق القرآنى يراه ميالا الى التنبيه على الاعتبار الادراكى وان كان لا يلغى الجانب الآخر لأن الاعتبار على أى نحو هدف من أهداف اثارة النظر فى الكتاب العزيز ، ويمكن أن يكون ايقاظ الوعى نحو السير والنظر وتأمل العواقب للأمم يحمل من أهدافه كذلك الطريقة الصحيحة لدراسة الحوادث التاريخية ، تلك التى تحتاج الى

وقوف طويل عندها ، والى تحر عميق جدا بنصها وسندها ، والى تحليل واف لمعناها ومغزاها كى نصل فى النهاية الى مرحلة التعليل والاستنتاج •

وليس هذا الكلام تجنيا على النص القرآنى أو مجرد تأويل بعيد ، ولكنه مأخوذ من ظاهر النصوص التى وردت فيها كلمة السير والنظر ، حيث نقرأ بعدهما مباشرة المراد من تلك العملية المتطلبة لسفر متعمق ملىء بالوعى والتأمل ، هذا المراد هو فهم الكيفية لعاقبة المكذبين ومن على شاكلتهم ، ولم تتخل لفظة « كيف » عن التعجب من عدم السير والنظر ، أو عن الأمر بهما للذين ينكرون صدق الرسالة ، ولما رأينا كلمة « كيف تتوسط بين السير والنظر وبين عاقبة المنكرين ، ومعروف ما يراد من معرفة الكيفية فهمنا أن الاعتبار الادراكى مطلوب فى الدرجة الأولى ، وتوسعنا فى ذلك فأشرنا الى أن مثل هذه النصوص هى التى فتحت أعين المسلمين على دراسة التاريخ وتحليل أحداثه وتعليلها •

وتعتبر اشارة القرآن دعوة صريحة الى ما سمى بعد ذلك بعلم فلسفة التاريخ لكون هذا العلم يقوم على تحليل النصوص وتعليلها وبيان العبر منها ، وهذا ما يعتبر أحد الأهداف الرئيسية فى اثارة السير والنظر نحو فهم الحوادث التاريخية السابقة ، ونحو دراسة الأمم الماضية بما جد لها ، والمؤرخون المحدثون من شرقيين وغربيين لا ينكرون تأثير القرآن فى بعث روح التأريخ عند المسلمين (١٨) ، تلك الروح التى شعت على الأوروبيين منذ أن عرفوا كتب التاريخ عند المسلمين عامة ، وبعد أن ترجمت كتب ابن خلدون بصفة خاصه (١٩) ،

---

(١٨) راجع : فرانز روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين .

(١٩) ومما زاد فى قيمة الاعتبار الادراكى واوضح دور هذه النصوص فى اثارة الرغبة نحو دراسة التاريخ ما ورد من كون تلك النهايات سننا ثابتة [قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظر كيف كان عاقبة =

النظر قد يكون تأمل بصيري فحسب

قلنـــا ان النظر رؤية عينية مفعمة بالتأمل القلبى ، واعتبار عقلى مفتتح بالشهود البصرى ، وســـار الأمر على صحة ذلك فى الفقرات السابقة ، وها نحن نرى تلك القاعدة لا تطرد الى النهاية بل ينحصر النظر فى التأمل البصـــيرى وحده ، وذلك عندما تكون الرؤية بالعين متعسرة لا لفقدها ولكن لطبيعة الشيء المنظور نفســـه ، تلك الطبيعة التى تجعله غير ذى موضوع يرى بالباصرة ، وذلك مثل النظر فيما نقدمه لأنفسنا من أعمال تنفعنا فى الآخرة ، وأى الأعمال أفضل ؟ ، وأى المســـاعى يجب أن تبذل ، وأى الآمال ينبغى أن تتحقق ؟ هل نبـــذل قصارى جهدنا فى السعى لاعمار دنيانا وأغراضنا فيها أو أن الأوجب والآكد هو تقـــديم الصالحات لاعمـــار الآخرة ، ان عملية التمييز والتفضيل هذه لا ترى وليست محلا للنظر بالعين ، ولكنها موضـــع للتأمل والتمييز العقليين .

قال تعالى [**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغـــد**] ١٨ الحشر ، يقول ابن كثير (أى حاســـبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصـــالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم) (٢٠) وكل هذه أمور لا مجال فيها لأبصارنا ، ومن باب ذلك قوله جل شأنه [**يوم ينظر المرء ما قدمت يـــداه**] ٤٠ النبأ ، ولأن رؤية الأعمـــال المقدمة متعذرة فقـــد فسر القرطبى النظر بالعلم هنا .

وهناك مجال آخر يستحيل على العين أن تعمل فيه ، وهـــو

= المكذبين] ١٣٧ آل عمران [فهل ينظرون الا سنة الاولين] ٤٣ فاطر والسنة الطريقة الثابتة ، وجعلهـــا كذلك يشجع على دراستها وتحليلها وتعليلها والاعتبار بهـــا .

(٢٠) التفسير ج٤ ٣٤٢

مجال الأقوال ، فاذا ورد النظر فى سياق القول أو الخبر فالنظر المطلوب هنا مقصور على تمحيص الرأى واختبار صحته من كذبه ، وذا لا يكون الا بالتبين العقلى ، ألا ترى أننا اذا سمعنا الحق يقول [**انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون**] (٢١) هل يمكننا أن ننظر بأعيننا الى حقيقة كذبهم ، يمكننا أن نرى آثار ذلك لكن حقيقته تنعدم الرؤية معها ، من ثم يفسرها القرطبى قائلا [والنظر فى قوله أنظر يراد به الاعتبار] (٢٢) وكذلك اذا تلونا ما قاله سيدنا سليمان للهدهد حين أخبره خبر بلقيس [**سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين**] (٢٣) عندئذ سنفهم النظر على أنه تأمل وتصفح (٢٤) لا رؤية بصرية .

حدود تلك الملكة فى الادراك

لا سبيل لنا فى عملية التقويم لملكة النظر الا أن نحتكم للغة ولاستعمال القرآن الكريم ، واذا لجأنا الى هذين المصدرين وجدنا أن حالة النظر قد تعطى حكم التدبر والتفكر ، أو الحكم والفصل ، والفراسة والحذق ، أو المعرفة الحاصلة فعلا بعد ذلك .

وأحيانا تعطى درجة أقل من ذلك فتطلق ويراد بها مجرد التوقع والترقب لحدوث الشىء ، أو البحث فى أمر ما أو التعجب ، وكون الناظر يرمق شيئا اشتهاء له وربة ، وربما أطلقت وأريد منها التأمل والتبين والفحص ، أو أريد منها الملاحظة الدقيقة للأشياء .

وهكذا بعد استبعاد معنى الرؤية البصرية من معانى النظر يتبقى لنا صنفين من المعانى : صنف يصعد بها الى درجة الملكات

---

(٢١) الانعام ٢٤
(٢٢) الجامع لاحكام القرآن ج٩ ٢ ٤٠٢
(٢٣) النحل ٢٧ .
(٢٤) تفسير القرطبى ايضا ج١٣ ١٨٩

الأخرى مثل التفكر والتدبر ، ويعطيها حق الحكم على الأشياء . ومن مجموع الأحكام القادمة منها تتكون المعرفة ، أو يكون النظر هو تلك المعرفة بذاتها .

وصنف آخر من المعـــانى يدنيها عن تلك الدرجة ، ويسبغ عليها معانى البدايات فى الادراك كالبحث والتبين ومجرد التوقع أو الفحص، وبين ثنايا هذه يأتى معنى الملاحظة تفسيرا لحال النظر .

وأرى أن ملكة النظر هى أشـــبه بالملاحظة الدقيقة والقوية ، وأنها تعتبر بذلك بابا ومدخلا لملكات أرقى تأتى بعـدها بدليل أنهـــا تحمل بين معانيها دلالات التحير والترد ، وما من شأنه كذلك يفيـــد قلة الغنـــاء المعرفى كما قرر الراغب الأصفهانى ، واذا أفاد تلك الفائدة القليلة فلا يمكن أن نرقيه الى مصاف الملكات السامية جدا الا بشواهد قوية تنقله من المعنى المتردى الى معان أدق ، وعلى ذلك يحمل وصفها بالتدبر والحكم والمعرفة كما جاء فى الصنف الأول من معانيها .

واذا لم نعثر على شواهد الترقية فتبقى على وضعها فى بداية الأحوال الادراكية .

ومما ندلل به على كونها ملاحظة دقيقة أننا لا نجد القرآن الكريم يجعلهـــا غاية من وراء اثارة الآيات فيختم بها تلك النصوص المثيرة للوعى الراقى فى الانسان بأن يقول عقب الحديث عن الآيات الكونية أو الاعجازية أو المتلوة لعلكم تنظرون كما ختمها بالملكات الدقيقـــة الأخرى فقال لعلكم تتفكرون ، ولعلكم تعلمون ، ولعلكم تفقهون ، ولعلكم تتذكرون ، أو لقوم يعقلون الى آخره ، وتلك عادة القرآن ، اذ يختم آيات الاقناع بوسائل الادراك الراقية كما ذكرنا ، أو بالغايات العليـــا من وراء عملية الاستدلال نفســـها فيقول . لقوم يؤمنون ، أو يتقون ، أو بلقاء ربكم توقنون .

ومن ناحية ثالثة فان لفظة النظر تجمع مع غيرها ، كما جمعت مع التفقه فى قوله تعـــالى [**أنظر كيف نصرف الآيات لقوم يفقهون**] (٢٥)، والجمع مع أخرى يفيـــد التغاير فى المعنى ، وكون التفقه جاء علة بعد لعل يفيد أنه أرقى ، وكون النظر جاء بداية ومقدمة لغيره يدل على أنه أدنى مما جمع معه على الأقل .

وبنـــاء على كل هذا فالنظر هنا أشبه بالملاحظة العلمية الدقيقة ، وبما أن من شرائط الملاحظة أن تكون مقصودة لا عابرة ، ودقيقـــة لا ساذجة ، وشـــاملة لجوانب المنظور فلابد أن يكون النظر كذلك ، وأيضا فلما كانت الملاحظة ليست هى مرحلة اصدار القوانين ولكنها مدخل لهـــا فكذلك النظر لا يعتبر مرحلة اصدار الأحكام وصـــياغة البراهين ، ولابد أن تليه مرحلة تالية أكثر دقة وتركيزا حول الأشياء التى نظرنا اليها ، وتعتبر المرحلة التاليـــة هى التى تقوم فيها بجمع الملاحظات التى تكونت عن طريق النظر ثم نفحصها ، وتردد فيها العقل والخاطر حتى نصل الى أحكام عامة وصائبة ، وتلك المرحلة هى المسماة بالتفـــكر .

---

(٢٥) الأنعـــام ٦٥.

الفصل الثالث

قـــوة التفكر

تمهيــــد

صحيح أن هــذه المرحلة هى التى تلى النظر الدقيق ، وسوف نتناولها كما تناولنــا النظر من حيث الوقوف على طبيعة هذا الحال الادراكى ، وقوة نشاطه ، والنتائج التى حصــل عليها من ورائه ، ولا نقف عنــد بيان فضــله أو أهميته كما يفعل البعض ، ولا عنــد الحديث عن اهتمام القرآن به فحسب ، بل ننظر مدى هذا الاهتمام وعمقــه .

وبيان تلك الملكة من ناحية الحقيقة والثمرة ، والمصدر والمورد ، والمجــرى والمسرح ، والطريقة والكيفية مهم للغــاية ، كما أنه من الضرورى بمكان أن نعلم كيف نفكر ، وفيماذا نتفكر ، ولمــاذا يكون التفكر ، وما الذى يطلب به ، أهو مراد بعينه أم لثمرة تستفاد منه ، فان كان لثمرة فما تلك الثمرة ، أهى من العــلوم ، أو من الأحوال ، أو منهما[1] جميعا ؟ ؟

---

(١) ابو حامد الغزالى : الاحياء ح٦ ٥٩

مصادر التأمل الفكرى

هل معنى أننا قلنا ان النظر ملاحظة جيدة بالعين والبصيرة أن يفهم من ذلك أن التفكير عملية تتجاوز المحسوسات كلية باعتباره مرحلة تالية للنظر كما اتفقنا ، فهو يبدأ من حيث انتهت المرحلة الأولى ؟ أو أنه ينبع من مصادر حسية وواقعية مشاهدة هو الآخر ثم يتخصص بعد ذلك فى عملية تعمق قوية قد لا يصل اليها حال النظر السابقة ؟

الذى يقرأ القرآن الكريم بتدبر ما يتضح له أنه لم ينقل التفكر من الظواهر الكونية العامة أو الجزئية ولم يقصر التفكير على المعانى وحدها ، أو الأمور التجريدية الصرفة ، وانما قذف بل بين المشاهدات وظواهرها وصورها ، ووضعه أمام حالات الدهش القوية التى يقذف بها الكون تجاه تأملاتنا لقد قاده الى السموات وزينتها وأفلاكها وما فيهن ، وأوقفه بين الموجودات الأرضية الشامخة كالجبال والبحار وبين مظاهر النعم المتعددة كالنباتات والحيوانات ، وبين دقة وترابط هذه الكائنا طالبة أن يفكر ، وأن يعمق تفكيره (٢) .

وعلى هذا فعملية التفكير ليست سحبا لعقولنا من حومة الوجود الحى المتحرك الدافق ، وليست تأملا مجردا ذاهلا عن الواقع المحسوس ، وليست سابحة فى تصورات مفرغة من عالمنا المشاهد ، أو غارقة فى أوليات وبديهيات بحتة ، ليست تجريدا كليا ، ولا وهما أو خيالا على طول الخط ، ولكنها واقعية روحية أو روحية واقعية .

واقعية روحية اذا تفكر الانسان فى هذا الكون فرأى بأم رأسه وعين قلبه أنه لا يمكن أن يصدر هذا العالم من ذاته بل لابد له من

---

(٢) انظر الآيات البقرة ٢١٩ ، ٢٦٦ ، آل عمران ٩١ الانعام ٥٠، الأعراف ١٧٦ — ١٨٤ ، ٢٢٤ ، الرعد ٣ ، النحل ١١ ، ٤٤ ، ٦٩ وغيرها.

قوة أبدعته ، فتكون البداية محصورة فى تفكير واقعى يخلو من الصوارف الحاجبة عن رؤية الحقيقة العظمى ، ثم تخطى التفكير فى البدايات المشاهدة الى العلاقات بينها ، الى موجد هذا الكون ومبدعه ، ولما بدأ من الواقع وذهنه خال من اعتقاد سابق ، ومن صوارف تمنعه عن الوصول الى الحقيقة ثم أدركها وأيقن بها قلنا انه تفكير واقعى روحى ، وهو يختلف بالطبع عن التفكير الواقعى فحسب الذى تصاب فيه العقول بغشاوة المادة وتقف عندها لا تتجاوزها ، هذا تفكير ملحد ، وذاك تفكير قد آمن .

ونقول هناك تفكير روحى واقعى ، وهو حال المؤمنين الذين أيقنوا بوجود الله لأى سبب ثم شغلوا أنفسهم بالتفكر فى الكون ومظاهره ليزدادوا ايمانا ويقينا ، أو ليعرفوا قدرة الله بصورة أتم من ذى قبل، أو ليدركوا حكمة الله فى الأشياء ، وهؤلاء يتعبدون الله بهذا التفكر .

وفى كل من العمليتين يستند التفكر على واقعية العالم وأحداثه ، وظواهره وتغيراته ، ويعتبر العالم مصدرا لتفكير الواقعيين الذين يريدون الايمان ويبحثون عن طرقه ، ومصدرا لتفكير المؤمنين الذين يتجولون بعقولهم فى ملكوت السموات والأرض ليعلموا عظمة المبدع ، ويزدادوا معرفة به ، ووقوفا على أسرار ابداعه ودقة خلقه .

واذا اعتبرنا الواقعية مصدرا أوليا للعمليتين فيكون حال التفكير فى الاسلام مختلفا عنه عند الفلاسفة الذين لا يعبأون بالحس ويرونه خيالات وظلالا للمعارف العقلية (٣) ، ويتصورون أن العقل هو الذى يمنح عالم الحس وجوده ، كما تختلف عملية التفكير فى غايتها الروحية عما يقصده علماء النفس والتربويون ، وذلك لأن غاية

---

(٣) وذلك كما نراه عند المثالين العقليين من بداية افلاطون الى فلاسفة المسلمين الى المدرسيين الغربيين الى العقليين مثل هيجل ومدرسته .

التفكير في الاسلام تتجاوز المحسوس الى اللامحسوس ، والعالم الى ما وراءه والمخلوقات الى الخالق ، بينما يقف النفسانيون والتربويون بالتفكر عند غاية التكيف مع البيئة أو اشباع الحاجات ، وتلك غايات دنيئة لا ترقى بمستوى تلك الملكة العظيمة التى وهبنا الله اياها ، والبون شاسع بين نظرة تقدر التفكير ، وتوجهه الى الكون والخبرات السابقة ليحصل على معرفة جيدة به تنفعه فى دنياه ، وليصل من ورائه الى معرفة أرقى هى معرفة الله سبحانه ، وليكتشف وجود الغيب من التغيرات المشاهدة ، وليدرك وجود الأزل من حركات الظواهر الجارية ، وليؤمن بحكمة العليم القدير من دقة الصنع لما يرى ويطلع ، شتان بين نظرة كهذه وأخرى يدعونها بالتربوية تقف بالذكاء والتفكر فى كل مراحله عند حدود الحاجات البشرية وطرق التعامل مع الآخرين •

وبهذه المناسبة ننبه الى مادية الفلسفة النفسية والتربوية ووقوفها بالانسان عند حدود العالم المادى وما فيه ، وحاجات الانسان المادية لا الروحية ، ونطالب بالحاح أن يترقى العلماء العاملون فى هذا المجال بنظراتهم ، وأن يتخلصوا من تأثير الغرب المادى ، وأن يعرفوا قدرات الانسان الشاسعة ، ويقيموا تربيته على أساس من نظرة الدين التى تجمع بن البدن والروح والعقل ، بين الدين والدنيا ، بين الحياة والآخرة •

طبيعة التفكر وخصائصه :

للحديث عن هذه النقطة يطلعنا بجلاء عن الفرق الكبير بين النظر والتفكر •

ان الواقع الكونى والنفسى يجمع النظر والتفكر على ساحته ، فهما يلتقيان على دروب الوجود وتغيراته ، ويتمانقا أحيانا كثيرة ، ولكن خطوات النظر تظل واقفة عند الرؤية العينية أو البصرية ،

وعند حدود من التأمل لا ترقى فى عمقها وتحولاتها واستنتاجها الى مستوى عملية التفكر ، تلك العملية التى تبدأ حيث انتهى النظر على ما يبدو . وذلك لأنها لا تكتفى بمطلق النظر العينى المتيأمل ، ولا بالروية أو الفهم أو التأمل البصيرى المحدود ، ولكنها تتعمد التجول والترداد العقلى والقلبى فى الشىء الذى يراد معرفته ، انها تكرار التأمل ، وتنويعه ، وفحص الشىء من جوانبه المختلفة ، والتجول أو الترداد والتكرار ، أو التنويع والفحص لا تنبع من التحير والشك ولكن تنبع من مقصد معرفى هو ادراك الشىء وفهمه بطريقة أدق ولغاية معلومة مقصودة .

ولقد أشار كل من عرف التفكير الى تلك الخصيصة فقال ابن فارس [الفاء والكاف والراء تردد القلب فى الشىء] يقال تفكر اذا ردد قلبه معتبرا ، ورجل فكير أى كثير الفكر (٤) ، ويقول الفيروز أباء [الفكر بالكسر ويفتح اعمال النظر فى الشىء] (٥)، ووافق القرطبى وابن الجوزى (٦) على ما جاء عند ابن فارس فى التعريف ، وأما ابن العربى فيقول [حقيقة التفكر هنا ترديد العلم فى القلب بالخبر عنه] (٧) ، وهذا كله يعنى أن التفكر يبدأ عندما تصوب القوة المدركة نشاطها نحو الموضوع المدرك فى تأمل متكرر ، كل مرة يكون للانسان فيها معنى ، أو وجه من الوجوه .

ويتحصل له من جراء عمليات الترديد والتكرار وتقليب الشىء كثير من المعانى والوجوه ، والتفكير لا يكدسها فوق بعضها بطريقة جمعية انما يقوم بعد ذلك بعدة عمليات تتناسب مع الأشياء التى نفكر فيها ، ومع مطلوبنا وغايتنا من وراء عملية التفكير ، فأحيانا يعمد

---

(٤) معجم مقاييس اللغة ج ٤ ٤٤٦

(٥) القاموس المحيط ج١١ ١١١ .

(٦) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج١ ٣٦٤ ، وابن الجوزى زاد المسير ج١ ٥٢٧ .

(٧) احكام القرآن ج٢ ٨١٦ .

الانسان أولا الى تجريد هـذه المعانى من موضوعاتها المحسوسه ثم يفكر فى الروابط والعلاقات التى تنشأ بينها أو هى ناشئة بالفعل ، وقد يخضع تلك الوجوه للنقد والفرز والتمحيص لتبين مدى صحتها ، أو لكشف ما فيها من أخطاء ، وغالبا ما تنتهى هـذه المراحل بابتكار شىء جديد ، واستخراج معرفة لم تكن حاصلة له قبل أن يدخل فى غمار هـذه العملية الشاقة والصعبة ، وتعرف تلك المرحلة الفكريه عند علمـاء النفس بالمرحلة الابتكارية (٨) ، وعند المتفلسفة بالمرحلة البرهانية ، وفى القرآن بمرحلة الهداية .

والى هذه المراحل وطبيعة عمل الفكر فيها يصرح بعض الذين تناولوا تلك الملكة مبينين مفهوما ، وذلك مثل الراغب الاصفهانى الذى قرر أن التفكر جدلان تلك الملكة بحسب نظر العقل ، وهو عنـــده [مقلوب من الفــرك لكى يستعمل الفكر فى المعانى وهى فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها] (٩) وتحتاج تلك العمليــة الى دراية كاملة بكثير من المفاهيم ، والى معرفة واسعة بالرموز واللغة .

وجاء فى المعجم الوسيط [فكر فى الأمر فكرا أعمل العقل فيـه ورتب بعض ما يعلم ليصل به الى مجهول] وفكر فى الأمر مبالغة فى فكر وهى أكثر استعمالا من فكر ، يقــال [فكر فى الأمر أو فى المشكلة أعمل عقله فيها ليتوصل الى حلها فهو مفكر] وبالتالى يكون [التفكير اعمال العقل فى مشكلة للتوصل الى حلها] ومثله الفكر أيضا ، وأما الفكرة فهى [الصورة الذهنية لأمر ما] (١٠) وقد تجمعت بعد استخراج المجهول من المقــدمات السابقة .

---

(٨) د. عبد السلام عبد الغفار : مقــدمة فى علم النفس العـــام ٢٦١ — ٢٧٢ . د. عبد الرحمن عيسوى : علم النفس بين النظـــرية والتطبيق ٩٠ ، ٩٤ .

(٩) المفـــردات ٣٨٤ .

(١٠) المعجم الوسيط ج ٢ ٦٩٨ .

والغزالة كما سبق أن ذكرنا يرى أن التفكر [احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معـرفة ثالثـة] (١١) وبنفس هـذا التعريف قال ابن قيم الجوزية (١٢) ، والسمرقندى يقول [التفكر حركة ما للنفس فى المعـانى طلبا للحد الأوسط وهو القضـية المسلم بصحتها بين مقدتين ، وبها نستنتج شيئا جديدا •

ولا شك أن هـذه الأقوال تختلف عما قيل فى المرحلة الفكرية الأولى . لقد كانت ترديدا متصورا وتحصيلا لوجره من المعـانى متنرعة ، ولكن المرحلة الثانية تمتاز عنها بما نراه من عملية الترتيب والفحص والنقد والاستنتاج ، المرحلة الثانية فرك الصـور المحصلة عن طريق الفكر ، والمعـانى التى توصلنا اليها ، واعمال العقل فيها من جديد بغية ترتيبها ترتيبا معينا يتفق مع حقائقهـا لا كما نشتهى ونهوى ، ثم بعد الترتيب نستخلص منها شيئا جديدا لم يكون لدينا قبل ذلك ، او نحل مشكلة تعسر علينا حلها قبل اجراء عملية التقصى الفكرى ، وساعة استخلاص الجديد أو الحل نكون قد أودعنا فى أذهاننا أو قلوبنا فكرة عن الشىء الذى كنا نفكر فيه ، وغالبـا ما تكون تلك الفكرة عمـلا ذهنيا يهـدى القلوب الى معرفة الحقيقة لو سـار تفكيرهم على نظام صحيح •

والقرآن الكريم اذ يطالبنا فى كثير من الآيات التى سوف نشير الى بعضها بالتفكر يهدف من وراء ذلك الى تدريب الذهن على الفهم ، وتنشيطه نحو التفكر ، وتنبيهه الى أن الوسيلة المثلى التى يمكن أن نهتدى بها هى أن نفكر تفكيرا صحيحا يخلو من الهوى والحجب ، ومن الوقوف عند أفكار السابقين والتأثر بهم ، وعملية التنويع فى الظواهر

---

(١١) الاحيـاء ج٦ ٦٢ — ٦٣ •
(١٢) مفتاح دار السعادة ج١ ٢٢٩ — ٢٣٠ •
(١٣) الصحائف الالهيـة ١٨٦

التى قدمها القرآن وعرضها أمام الفكر يقصد بها تدريب متعدد لتلك الملكة ، فلها أن تنظر فى الكون كله أو فى كثير من ظواهره . أو فى النفس الانسانية وأحوالهـا ، أو فى دقة التشريع والوحى الالهى ، وأن تكرر وترتب ثم تستنتج فى النهاية ، ولحظة أن تستنتج ينبهها على الفور « هل من خالق غير الله » « هل خلقوا من غير شىء » ان هذا التنبيه بمثابة الضوء الهـادى الى العقل لحظة التأمل لكى يكتشف الحقيقة على نور من هداه (١٤) .

على أى وضـع أمثل يجب أن نفكر ؟

لمـا كانت طبيعة التفكر تكرارا وترتيبا واستنباطا لزم لهـذه الحـالة أن يكون لهـا وضـع خاص ، وأن يكون المتفـكر على اتزان نفسى ، وانضباط ذهنى تامين ، ولقد أشار العلماء الى بعض الصفات التى يجب أن يتسم بها الانسان أثنـاء عمليـة التفكير .

وأولهـا أن يطيل الانسان من تأمله فى الشىء طولا من شأنه أن يقلبه من وجوهه كلهـا ، وأن يكون الطول مع يقظة فكرية واعية ، وذلك لأن الطول مع اليقظة يترك فسحة من الوقت لادراك الموضـوع فى حـد ذاته ، ويعطى للمتأمل فرصة يعـرض فيها ملاحظاته على ما لديه من خبرة ومعارف سابقة بعد أن يكون قد فحصها فحصا دقيقا بذهنه وذكائه ، والسرعة لا تحقق شيئا من ذلك ، قيـل لابراهيم ابن أدهم [انك تطيل الفـكرة فقال : الفكرة مخ العقل] (١٥) .

والطول وحده لا يكفى بل لابد معه من السكون والصمت ، لأن السكون وقطع الشواغل ، والاستغراق مع الموضـوع المشار

---

(١٤) وعن تدريب نأتى بنماذج من القـرآن تدل على طبيعة عمـل التفكير كما صورناه هنا .

(١٥) أبو حامد : الاحياء ج٦ ٦٠ .

يجعل العقل متفرغا ومنحصرا بقواه لمعرفة ما يريد معرفته ، والسكون والصمت المنشودان يبدوان فى الظاهر ولكن صاحبهما مليء بالحيوية الداخلية ، والنشاط الذهنى المركز يقول الحسن البصرى [من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكونه تفكرا فهو سهو(١٦)] .

والطول مع السكون والصمت تفقد قيمتها وميزتها فى عملية التذكر ما لم يتحقق الانسان بالوحدة والخلوة ، وقد أشار الحسن أيضا الى تلك السمة فقال [طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة] (١٧) .

وينبغى أن ينفر الانسان من الأجتماع الذى يجلب الصخب ، ويقتحم على الانسان فكرته التى تشغله ، ولا يلجأ الى صحبة ما الا اذا كانت تسير على نفس الخط ، وتعينه على ما هو مشغول به ، وتكون محدودة بقدر معين حتى لا تتصادم الآراء وتختلف اختلافا بينا ، لا تصل معه الى حقيقة ما ، ويتعذر تمحيص الرأى بالرأى ، أما فى حالة قلة العدد فان التناصح يكون ممكنا ، وتكون المشورة أكثر دقة ، ولابد أن يتجرد المتناصحون فى أمر ما من الهوى والعصبية .

وحول ضرورة الوحدة ، والاجتماع المحدود يقول الحق جل جلاله **[قل انما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة أن هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد]** (١٨) والآية فى صدد ما نحن فيه من الحديث عن طبيعة التفكر وخصائصه وأمثل الأوضاع المناسبة له تحمل أمورا هامة :

---

(١٦) نفسه ج٦ ٦١ .
(١٧) ابن قيم : مفتاح دار السعادة ج١ ٢٢٧ .
(١٨) سبأ : ٤٦ .

منها أن الله سبحانه صدرها بما يشبه الايقاظ واثارة الانتباه نحو الموضوع الذى يجب أن يتفكر فيه وهو صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتمثل هذا أوضح ما يتمثل فى أمر الله لنبيه أن يقول للمشركين قل لهم انما أعظم وأحذركم وأذكركم ، وكلها تلقى على العقل مسئوليه التفكر ، وتوجهه الى المطلوب .

وتعد تلك الايقاظة واللفتة العقلية يحصر لهم موضوع التفكير فى خصلة واحدة ، لا فى أمور شتى ، وذلك لأن العقل اذا أوقظ وحددت له المسألة التى يتفكر فيها كان ذلك أدعى الى خدمة المراد من وراء عملية التفكير ، وأقوى على العملية ذاتها .

ومن باب الاستعداد الكامل للتفكر فى هذا الأمر الجلل يطالبهم القرآن من جديد بالقيام ، ويعنى طلب الحق لا القيام ضد القعود ، كما يعنى الانتصاب للأمر ، والنهوض فيه بالهمة والاخلاص والنصيحة ، وترك الهوى ومجانبة كل صارف .

وتعتبر اثارة الايقاظ وتحديد الموضوع والتوجه اليه فى قوة من المقدمات الضرورية لتخلية النفس واعدادها نحو عملية التفكر ذاتها ، ويعقب ذلك مباشرة مطالبة القرآن للمتفكرين بأن يكونوا مثنى أو فرادى ، أى على حال غير مشغلة ولا مشوشة بل مفيدة ومثمرة ، واللفظتان مثنى وفرادى تحددان بدقة علاقة الانسان بالاخرين عندما يكون مشغولا بالتفكير فى مسألة ما ، فلا بأس من تلك العلاقة لكن من الأفضل أن تكون محدودة ، وأن يكون ذلك على قدر الضرورة ، ومع أناس لهم صلة بنفس الموضوع محل التفكير ، ولهم نفس الرغبة فى الوصول الى الحقيقة ، واستعدوا نفسيا لذلك .

وكل واحد من الذين التقوا على غرض معين عليه أن يقوم بالتفكر وحده وأن يجد فى التأمل ليصل الى فكرة ما يعرضها على الآخرين ويناصحهم بها ، وان استراح لما توصل اليه مفردا واطمأن قلبه بذلك فنعما هى ، والا شاور الثلة الأمينة الصادقة .

يقول الطبرى فى ذلك [مثنى .. أى يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة هل علمتم بمحمد صلى الله عليه وسلم جنونا قط ، ثم ينفــرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر فردا هل كان ذلك به فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم (١٩)] ويفسر القرطبى مثنى وفرادى بقوله : أى وحدانا ومجتمعين ، أو منفردا برأيه ومشاورا لغــيره ، أو مناظرا مع غيره ومفكرا فى نفسه ، أو مثنى فى النهــار وفرادى بالليـــل لأنه فى النهـــار معـــــان وفى الليـــل وحيـــد ، ثم يقــول عقب هــذه الأقــوال [الذهن حجــة الله على العبــاد ، وهو العقل ، فأوفرهم عقــلا أوفرهم حظا من الله فاذا كانوا فرادى كانت فكرة واحـــدة ، واذا كانوا مثنى تقــابل الذهنــان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفـــراد] (٢٠) وبنحو ذلك ساق ابن الجوزى فى تفسيره .

وقد لمس الزمخشرى تلك النقطة لمسا قويا وعميقا اذ رأى أن الاثنين يتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكرة على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتبــاع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية حتى تهجم بهما الفكر الصالحة ، والنظــر الصحيح على جادة الحق وسننه .

وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكرة على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .

وأما التفكير فى جماعة فيشــوش الخاطر ، ويعمى البصائر ،

---

(١٩) التفسير ج٢٢ ٧١ .

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن ج١٤ ٣١١ — ٣١٢ ، وزاد المســـير ج٦ ٤٦٥ .

ويمنع من الروية ، ويخلط القــول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، لا يسمع الا نصرة المذهب أو التحمس لفرقة معينة (٢١) .

وبعد هذا الايقاظ ، وتحديد المراد ، وبيان ضرورة الهمة معه ، وتوضيح الكيفية التى يكون عليها المتفكر فى ذاته أو مع غيره يدلنـا القرآن على أن عمليـة الاعداد تلك تستغرق وقتا زمنيا أو مجاهدة نفسية ولذا يأتى بلفظة « ثم » بعدها ، وهى تدل على التراخى العام .

ولقد جاء الطلب القرآنى بانشاء التفكر بصيغة « تتفكروا » لا بصيغة « تفكروا ولا فكروا » لأن الأولى تدل على طول التـــأمل مع التكرار والترداد ، والتجول فى الموضوع المثار ، ولا شك أن وقوف الذهن طويلا أمام المسألة ، وتجوله فيها من أهم الأسباب المؤدية الى النتائج الصحيحة ، فالقرآن اذ يلقى الطلب على الأسماع يريد أن تكون حالة التفكر على أتم ما يكون ، ولا ينتظر فى الوقت ذاته ما تأتينا به الفكر من نتائج ولكن يصرح بهـــا فى وضاحـة قائلا **« ما بصاحبكم من جنـة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد »**.

والتصريح بالنتيجة لا يعنى اجهاض عمليـة التفكير بسرعة ، وتوليدها قسريا ، وانما يهـدف الى مساعدة العقل فى الوصول الى الحقيقة ، ومعاونته على ذلك ، وتوضيح الأمر بصورة تجعل العقـل يسير اليه فى اتزان واعتدال .

ان الله سبحانه رسم بداية حال التفكر ، وهيأ الانسان والأذهان لذلك ، وحدد الموضــوع ، وبين الجو المناسب للتفكير ، وألمح الى الكيفية الجيدة التى ينبغى أن يكون عليها المتفكر من طول التـــأمل وترديد الذهن ، ثم صرح بالنتيجة ، وأراد من الانسان أن يطبــق

---

(٢١) الكشاف ج٣ ٢٦٣ — ٢٦٤ .

شرائط المقدمات . وخصائص التفكير ، وأن يجرى عملية الاستدلال بنفسه كى يصل الى النتيجة المعلنة ، ان هذا الاجراء من قبل القرآن أسلوب تربوى فى غاية الدقة والحكمة ، تراه أشبه بمؤدب ومربى قدير هيأ تلميذه عقليا ونفسيا لدراسة موضوع ما ، وقام المؤدب نفسه بالاعلان عن نتيجة المسألة المطروحة ، ثم قال للتلميذ عليك أنت أن تجرى العمليات العقلية أو الحسابية حتى تصل الى تلك النتيجة ، وأن تستخدم كافة المقدمات الصادقة ، وتتريث تماما أثناء سيرك فى خطوات الحل ، وبذا يمكنك الوصول الى النهاية المعلنة ، أو الحقيقة التى وضحت لك .

فبدلا من أن يتيه التلميذ أرشده الى الطرق السليمة التى يمكنه أن يسلكها ، وبدلا من أن يضل غايته المنشودة أوضحها له فى يسر وسهولة كى يخطو نحوها فى ثبات ويقين ، وكى يتأكد بنفسه من صدقها ، وبهذا يكون الوحى موجها وهاديا للعقل ، وليس مصادرا عليه ، أو معطلا لقوته .

وفى النهاية يحذر القرآن العقل الانسانى من ضرورة السير نحو المطلوب وطبقا للعلامات الهادية ، ويذكر كل انسان بأن النبى صلى الله عليه وسلم ما هو الا نذير للبشر ، جاء يسبق عذابا شديدا لمن لم يتبعه ، أو لم يسلك الطريق السليم للايمان به ، ومن ثم يكون القرآن قد أيقظهم فى أول الآية ، وحذرهم وأنذرهم فى آخرها ، ووضعت عملية التفكير بمراحلها المشار اليها بين بداية اتسمت بالوعظ الهادىء والايقاظ الرحيم ، وبين نهاية قرعت النفوس بالتهديد والانذار والعذاب اذا لم يفكروا جيدا .

التفكر بين سعة المجال وقلة الرجال :

قد نتعجب كثيرا اذا اعتبرنا مرحلة التفكر أرقى من الادراك بالنظر فى الوقت الذى لا نرى مادة « تفكر » ترد فى القرآن الكريم

أكثر من ثمان عشرة مرة فى مقابل مائة وتسع وعشرين للنظر ، ولكن التعجب لا يبقى الا ريثما ندرك طبيعة عملية التفكر فى حد ذاتها ، وفى قوتها ، وفى مقدرة البشر على القيام بها .

ان تلك الحال الراقية عميقة فى تفهم الأشياء ، وبعيدة فى سبر أغوارها ووجوهها ، وتحتاج الى ما قلنـا . من التجول والترتيب والتفرغ والمناصحة بالرأى للآخرين ، وهى مع ذلك مرحلة التمييز والفرز والتقدير واصدار الأحكام ، وهـذه كلهـا أمور ليست فى مقدور عموم البشر ، وانما لا يسعها الا خاصتهم ممن امتازوا بقـوة الفراسة ، وطول الروية ، والمقدرة على الموازنة الصائبة ، والتمييز الجيـد ، ثم الاسـتدلال والاستنباط فهل نشاهد أمامنا كثيرا من بنى جنسنا لهم تلك الخصائص ، وعندهم كل هـذه القدرات ؟ أظن ظنا الاجابة بالسلب ، وأننا نعترف من خلال علاقتنا بالغير وعلمنـا بمميزات الأفراد أن طبيعـة التفكير وخصائصه على النحو الذى سبقت الاشارة اليه لا يتصف بها الا قلة من الناس .

وعندما نصل الى تلك النتيجة المبنية على المشاهدة والتجـربة والخبرة المباشرة ندرك المناسبة بين قلة ورود لفظة التفكر فى القرآن وبين قلة المتصفين بها من بنى البشر ، ونعلم مع ذلك أن الآيات التى حملت تلك المـادة بين ثنايا عبارتها ، ودعت أرباب الذهن المتقـد أن يعملوا قرائحهم فى المعانى المطروحة جاءت فى سياق غاص بدراسة أمور على غاية من الدقة والأهمية مثل تأمل الكون والوصول منه الى معرفة مبدعه وأنه لم يخلق الكون عبثا ، والتفكر فى دقائق النبـوة ومضاهاتها بما هو عند النبى صلى الله عليه وسلم ثم الحكم بأنه واحد من الأنبياء ثبت له مثلما ثبت لهم ، وما ثبت له أيقن (٢٣) وأقوى مما

---

(٢٣) والى هـذا المعنى تشـير الآية [ومصدقا لمـا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه] المـائدة من الآية ٤٨ وما كان لغيره حرف وبدل ، والآيات التى نزلت عليه معجـزة محفوظة لا تمتـد اليها الأيدى بالعبث أو التغيير .

سكان لغيره . وأيضا فإن تناول الآيات المتلوة ومعرفة دقة التشريع فيها كل هـذا يحتاج الى ذكاء من نوع ممتاز ، والى قدرة على التفكر لا تتسنى الا لصفوة من أرباب العقول أو أولى الألباب .

ولا يعنى ما نقوله أن ملكة التفكر منعدمة عند الأكثرية موجودة عند قلة ، وأن جمهورا غفيرا من البشرية حرم تلك الحالة من التأمل بينما تمتع بها بعضـهم ، لسنا بالطبع نقصد ذلك ، وانما يهـدف الحديث الى أن ملكة التفكر بالعمق المقصـود ، والاستدلال المثمـر لا تتحقق الا عند فئـة بعينها بينما يبقى للجمـوع الأخرى ملكات التفكر بالمعنى العام ، وكل واحد منهم يفكر قدر طاقته واستطاعته ، كما أن له أن ينظر حسب جهده وقريحته .
واعتبار التفكر الدقيق المثمـر للاستدلال وما يمكن أن يتحقق به فى الأفراد هو الذى يميز بين تلك الحالة وحالة النظر فى سـعتها معنى ووجودا وتحققا بين الناظرين .

والقرآن الكريم فى ايقاظه للوعى الانسانى يستحث الجميـع على النظر على حسب جهد كل وكفاءته ، ويثير التفكر بالمعنى العـام حتى يترك الفرصة لكل من يلمس فى نفسه حدا معينا من التأمل ، كما يطالب الأفذاذ ممن يقدرون على ايراد الشبه أن ضبطوا تفكيرهم حتى تستقيم طريقتهم ويصح استدلالهم ، ويدفع الآخرين من نفس الطراز على أن يعملوا عقولهم بصورة أرقى ليستخرجوا أدلة كونيـة أو نفسية يثبتون بها وجود الله ، أو يصلون من ورائها الى الايمـان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم .

هذا وتبقى هنالك جموع متعـددة يخاطبهم الله بأسلوب الوعظ أو التمثيل أو القصة ، أو يخوفهم وينذرهم أو يبشرهم ويرجيهم ، وهناك من لا يقـدر الا على تقليـد الغير فحسب .

والخلاصة أن التفكير الدقيق الذى ينتج استدلالا مقنعا ليس الا لقلة من البشر ، وما سوى ذلك من النظر والوعظ وغيره فلجماعات

متنوعة الاستعداد ، لكل منهم حسب حاله واستطاعته ، والخطاب البشرى قائم على اعتبار أحوال النفوس وطاقاتها ودوافعها •

وقفة مع مسارح التفكر

على أثر ما قيل ربما يتصور بعض من الناس أن قلة المادة الخاصة بلفظة التفكر تعنى قلة المجالات التى يمكن أن تتطرق اليها تلك الملكة ، ولما كان الأمر على عكس ذلك لزم ضرورة أن نلقى بعض الأضواء على تنوع المجالات التى أثارها القرآن أمام تفكيرنا لنتأملها ، وأن نتبين من ثنايا الحديث عنها أنها متشعبة وشاملة للكون والنفس وآيات الله المتلوة ، ولفت النظر الى ما فيها من دقة التشريع والى ما تحمله من دلالات على صدق النبى صلى الله عليه وسلم •

وأحب أن أنبه ونحن بصدد الحديث عن المجالات أنه وان وجد تشابه فيها الى حد أن لحظنا مجالا معينا يكن مسرحا للنظر والتفكر معا كالمجال الكونى ، أو آخر تتناوله ملكة التفكروالتبصر كالنفس ، أو مجالا ثالثا يكون محلا للتفكر والتبصر والتذكر والتدبر كالقرآن فان هذا التشابه أو التداخل راجع الى أن أظهر المجالات هى الكون والنفس والآيات ، وأنها بعينها قد تكون ساحة لعدد من الملكات ، تمارس نشاطها بين دلالاتها ومظاهرها وتحولاتها وحكمها •

ومع كون المجالات مجارى للمسلكات الا أن كل قوة ادراكية لها نشاط خاص ازاء كل مجال ، ولها طبيعة خاصة حين تعمل فيه ، كما أن تعلق كل ملكة بذات المجال يختلف عن الأخرى من حيث الدقة والاستدلال والأثر النفسى الذى تتركه لدى صاحبها ، والشخص المتأمل قد يأخذ وصفا حسب حاله فى الفهم والوعى فهذا مجرد ناظر ، وذاك عاقل ، وثالث من أولى الألباب ، أو من أولى الأبصار ، وقد يعلم شخص ويؤمن آخر ، ويفقه رجل متدبر الى غير ذلك •

ونقد وضـع الغـزالى حصراً للمجالات التى ينبغى على الانسان أن يفـكر فيها ، وارجعها الى ما يتصل بالله . وما يتصل بالعبد .

وبين أن ما يتصـل بالله جل جلاله فان تعلق التفـكر بالذات وصفاتها ومعانى الأسماء فهذا مما لا طاقة للفـكر به . وان تعـلق [بأفعاله ومجارى قـدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره فى خلقـه فانها تدل على جلاله وكبريائه ، وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من آثار صفاته ..] والتفكر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما .. وجميـع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرته ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العـدم ، ولا نور أظهر من الوجود [ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس] .

والموجودات التى هى فعل الله وخلقه اما أن تقع تحت الحس وخاصة البصر واما أن لا ، ولا سبيل لنـا الى ادراك ما لا يقع تحت حواسنا مثل الملائكة والعرش والكرسى وغير ذلك مع أنها موجودات، ولنعدل فى تفـكيرنا الى ما هو أقرب الى الأفهام وهى المدركات بحس البصر كالسموات السبع والأرض وما بينهما ، وما فى كل منهما من مخلوقات ظاهـرة ، واستفاض الغـزالى فى بيان عجائب كثـير من المخـلوقات .

وأما ما يتصل بالعبد فالانسان بكل ما فيه حل لملكة التفـكر ، لهـا أن تنظر فى بداية الانسان وخلقه وأطواره وما يشتمل عليه من دقائق الايجاد وكثـير من المميزات ، كما أننا مطالبون بأن نتأمل فى علاقتنا بالله وما ينبغى أن تكون عليه من الصفات والطاعات ، وما يجب أن نتخلى عنه من المعاصى والمذمومات (٢٣) ، كل ذلك مسرح لأفكارنا ، وعلينـا أن نتأمله بدقة لنصحح مسار حياتنا على وعى وفهم .

---

(٢٣) الاحياء ج٦ ٦٦ — ٩٠ .

ومن الجدير بالذكر أن ابن قيم الجوزية جارى الغزالى فيما يقال مع زيادة وتوسع فى بيان حال كثير من الموجودات (٢٤) .

والأصل فيما فصله الغزالى وابن قيم ، وفى كل حديث يتناول عملية التفكر هو ما تجـده فى القرآن الكريم من بيان تعلق التفـكر بمجالات الكون والنفس والنبوة والآيات المنزلة ، فنقرأ مثلا فى سورة الرعد [**الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعـل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**] (٢٥) .

وعن التفكر فى النفس يقول الحق [**ومن آياته أن خلقـكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسـكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفـكرون**] (٢٦) .

وفى مجال الآيات المتلوة وما يتصل بها من دلائل على الحكمـة والنبوة يقول سبحانه [**وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر وأنزلنـا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون**] (٢٧) ويقول [**يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفـكرون**] (٢٨) .

---

(٢٤) انظر مفتاح دار السعادة من ٢٣٢ وما بعدها .
(٢٥) الآيتـان ٢ — ٣ .
(٢٦) الروم ٢٠ — ٢١ .
(٢٧) النحـل ٤٣ — ٤٤ .
(٢٨) البقـرة ٢١٩ .

وحديث الحق جل شـــأنه فى هـــذه الآيات وفى نظائرها متنوع الأساليب ، فأحيانا يسأل المولى عز وجل عن امكان أن يخلق كائن من لا شىء ، أو أن يكون هناك خالق غير الله ، أو تكون الآلهة قـــد خلقوا مثل خلقـــه كله أو خلقوا شـــيئا من الأرض ، أو شاركوا فى خلق السماء (٢٩) ، وهـــذا التحدى لفـــكر الوثنيين والماديين معا يقتضى أن قدموا اجابة على ما يدعون •

هل يمكن عندكم أيها الملحـــدون ان يوجد شىء من لا شىء ، أن المشاهدة تقول الأشياء من أشـــياء فهل يمكن أن يستمر الأمر الى ما لا نهاية ، ان العقل السليم لا يجوز ذلك ، وحتى عقل المـــاديين يحيل هذا الأمر ، ولكنه بدلا من أن يعترف بالحقيقـــة أو بالعجز يخترع كلمة الصـــدفة ومثيلاتها من الفروض العلمية الوهمية التى تفسر نشأة الموجودات ، ان السؤال المطروح من قبل الحق جل جلاله يريد جوابا محـــددا ، اما باثبات أن شـــيئا يوجـــد من لا شىء ، أو باثبات الاستحالة ، أو باقرار العجز عن الجواب ، ولا مفـــر من تقـــديم واحد من تلك الثلاثة ، والأول غير ممكن • لأننا لا نعـــلم شيئا وجـــد من لا شىء ، والعقل السليم يحيل ذلك بناء على المشاهدة والتجربة الدقيقة ، فلم يبق الا الاعتراف باستحالة ذلك أو بعجزهم عن الجواب ،والمـــاديون اليوم يفضلون العجز عن الاقرار بالاستحالة ويخترعون ألفاظا لا تزيل عجزهم ولا تعفيهم من الاجابة عن السؤال المطروح •

وأحيانا يأتى السؤال من الحق عن خلق أجزاء من العـــالم ، أو تبديل ظواهر معينة ويتحدى الخطاب البشر أن يثبتوا خالقا لتلك الأجزاء ، أو قادرا يعيد ما غيره المولى من سنن ، وفى مناسبات أخرى يطرح السؤال عن خالق الظواهر ثم يجيب الله بأن الفاعل لها هو الله وأنه لا اله معه فى الخلق الكلى والجزئى •

---

(٢٩) الطـــور ٣٥ ، ٣٦ ، الرعد ١٦ ، فاطر ٤٠ ، الأحقاف ٤ •

وفى الآيات السابقه التى سيقت لبيان خلق الله للكون رضلبنا بالتفــكر فيها كما حدثتنا سورة الرعد ينسب الحق سبحانه كل شىء وكل سبب يربط بين الأشــياء الى ذاته ، والخطاب عجيب فى قــوته وأثارته لملكة التفــكر ، انه يفاجىء العقل بحادثة مذهلة ، حادثة رفع السماء بكل ما فيها ، ولا يسع القارىء المتدبر ، أو السامع المتــأمل للآيات الا أن يرفع بصره على الفور ليلقى نظرة على السماء ، والمجال الجوى مفتوح تماما لآلاف النظرات التى تمتد من الارض الى السماء ، والعين قادرة على التطلع الى السماء فى الليل والنهار ، فى الليــل ترى آيات وفى النهار ترى أخرى ، ومهما كانت موانع السحب فالعين قادرة على اختلاس النظرات من بين كابوس تلك السحب ، وفى اللحظة التى تتشابك فيها أجسام السحاب لتسد صفحة السماء تقول للناظر هأنذا آية أخرى أحمل أسرارا وعليك أن تتأملنى ، هذا يحدث بالنسبه للنظر فى السماء والتفــكر فيها ولا يحدث فى الأرض ، فنحن لا نرى بأبصارنا مهما كان الجو صحوا والمسافات خالية الا مسافة ضئيله جدا جدا اذا قيست بالمســافة التى تسافرها العين الى الســماء ، والحكمة واضحة فنحن لا نعيش فى السماء فلا بد أن نراها ونتأملها ، ولكننا نعيش على الأرض وخبرتنا بها مستمرة فيكفى أدنى نظر لمعرفتها ومشاهدة ما فيها .

وتتحدث آيات الرعد كذلك عن أن الرفع بغير عمــد ، وهــذا واضح فنحن لا نشاهد أبدا أعمدة مثبتة فى الأرض لتحمل قبــة السماء ، واذا انتفت العمد انتفت الرؤية لهــا ، لأن الرؤية فرع الوجود ، فاذا لم توجــد العمد لا توجد الرؤية ، فما معنى أن ينفيها الله ثم ينفى الرؤية كذلك وهو تحصيل حاصل ؟

يبــدو أن الله جل شأنه أراد أن يلفت نظــرنا الى أن مسألة العمــد ليست حسية ، ولكنها معنوية ، ولو كانت حسية لكان نفيها مقتضيا لنفى الرؤية ، أما وأنه سبحانه لم يجعل الأسلوب مقتضــيا لذلك فمعناه أن العمد ليست كذلك ، ولكنها عمــد أخرى لا ترى ولكن

تدرك بوسائل غير الرؤية فابحثوا وفكروا فى تلك العمد التى هى قوانين ونواميس ثابتة ، حاولوا الوصول اليها . وتأملوا من رفع تلك الأجرام بسنن ونظام لا يختل ولا يتهدم الا يوم يريد الله له هذا . وتأملوا معه أن السنن والقوانين لا تسير بذاتها حتى على يقين أن الله بثها فى الكائنات ولكنه لم يترك هذا العالم لما أودع فيه نظام وانما يدبره كل يوم ، وهو الذى يجرى كل حركة فيه من بدايتها الى نهايتها ومن صغيرها الى كبيرها .

وفى مقابل رفع السماء يكون مد الأرض ، وكما نذهل عندما ننظر الى السماء معلقة بنظامها نصاب بالدهشة عندما نتأمل رقعة الأرض الفسيحة ، والله جل جلاله فى هذه المواقف يحرك الفكر تحريكا قويا عن طريق الاعجاب والانبهار بعظمة الكون كما يصوره القرآن ، وعن طريق الفجوات التى يشير اليها أسلوب الوحى مثل مسألة العمد السابقة ومثل الجبال الرواسى ، ولم كانت كذلك ؟ ، ولم لا تكون الأرض بطبيعتها ثابتة تستطيع أن تتحمل أضعاف أضعاف ما فوقها من جبال لأنها أرض الى ما لا نهاية ، فما معنى كون الجبال رواسى خشية أن تميد الأرض ؟ لابد أن يكون هناك شىء ما فى طبيعة الأرض يحتاج الى دراسة وعلم (٣٠) ، وهذا هو دور التفكر ، وتلك مهمته عليه أن يفحص ويدرس ليعلم علما دنيويا ، وليعلم يقينا علما دينيا يتصل بمعرفة الله والايمان به ، والعلم الدنيوى والدينى لا ينفصلان فى بعث اليقين وانمائه لو سلمت خواطر القلوب ، وصحت تأملات العقول ، وبرئت من صوارف النفس وحجبها .

وبنفس تلك الطريقة المثيرة للتأمل الفكرى الدقيق يشير القرآن كثيرا الى مسألة الزوجية المطردة بين الكائنات ولقد كان العقل فى

---

(٣٠) لقد وصل العلم الانسانى بعد اشارات القرآن الى أن الارض كون يدور وليست ثابتة مما يجعل للرواية قيمة فى تثبيت هذا الكوكب كما صرح القرآن .

بداوته يدرك تلك الحقيقة من خلال مشاهداته فقط للحيوانات ، ولكنه لم يكن يدرى شيئا عن الزوجية بين النباتات والثمرات . وبين الأشياء كلها ، وما دام القرآن يتحدث عنها فهى موجودة وعلينـا أن نديم البحث عنها لمعرفتها .

ويتضح من الآيات أنها أسندت الفعل والتدبير الى الله ، وأنها أوضحت كثيرا من المعارف الكونية ، ولكنها تركت فجوات معرفية يمكن للعقل أن يتساءل عنها ، ثم يحاول الاجابة بعد طول تفـكر وتأمل ، ولم ينتظر القرآن حتى يتنبه العقل الى ما تقتضيه ظروف الظواهر من دراسة بل طالب الانسان بأن يتفـكر فيما علم وما لا يعلم ، وأن يستثمر ذلك فى الوصول الى اليقين .

وقفـة أخرى مع مسارح التفـكر

كلما تعمقنا فى القرآن الكريم تدبرا ازددنا معـرفة بأنه يربى الوعى عن طريق تثقيفه بكثير من المعلومات ويثيره بالمسائل التى يوجه انتباهه الى دراستها ، وضرورة التفـكر فيها ، ومن ذلك ما جاء فى سورة الروم من الآيات السابقة التى تحدثت عن الانسان وبدايته ، وبعض شحناته النفسـية ، وطرق تنفيسها ، نراه يقـدم لذلك بأنه سبحانه قادر على أن يخرج الحى من الميت ، والميت من الحى ، ويحيى الأرض بعـد موتها (٣١) ، ثم يردف تلك بالآية التى تتحدث عن خلق البشرية من تراب ، والأخرى التى تتناول النفس وبعض خصائصها وصفاتها وعواطفها (٣٢) .

والنظرة الاجمالية للآيتين توقف العقل على مقدار الفاصل الكبير بين أصل الانسان الترابى ، وما صار اليه أمر الكائن العجيب ، هذا

---

(٣١) الآية ١٩ من سورة الروم .
(٣٢) انظر الآيات السابقة .

الفاصــل الذى يلقيه القرآن ليكون مثارا للفــكر ، ومسرحا لتلك الملكة ، تجــد وتدقق وتعمق وتراقب لتعرف شيئا عن حال الكائن المتميــز •

وبشىء من التفصيل يفجأ القرآن تفكيرنا بحقيقة مذهلة ، وهى أننا خلقنا من تراب ثم انتشرنا بشرا نتصرف بوعى ودراية فى الحياة ، وكوننا صرنا بشرا جاء عقب ذكر التراب بدون فواصل بالمرة كما جاءت فى سياق آخر ، ذلك لأن الغاء الفواصل الدالة على تطــور المراحل الخلقية ، والتى ذكرت فى مناسبات متعددة أريد به اظهار القــدرة الالهية على تحويل التراب الى كائن يمشى ويتصرف بسرعة فائقــة لا تتجاوز مسافة النطق بحرفين هما الكاف والنون ، وأيضا فان عدم ذكر المراحل هنا يعنى تحريك الدهشة والتعجب من هذا التحول الذى اختلفت فيه خصائص الانسان عن خصائص المصدر الذى تحول عنه وخلق منه ، والدهشة هى العنصر الفعال فى ايقاظ ملكة التأمل والتفكر فى كثير من الأحيان والذى يدلنا على أن هذا العنصر مراد فى الآية ما نجــده من تلاحم النهاية مع البداية ومن التصريح بعبارة تنتشرون هذا بالاضافة الى أن الانسان عندما يسمع تلك الآية على الفــور اما أن يلقى نظرة على التراب الذى يقف عليه ثم يردها : بقــوة الى بدنه ويغوص بها فى أعماقه ، واما أن يفعل العكس ، يتطلع الى ذاته ثم ينتقل منها الى التراب ، وفى كل لا يفتأ بذكر أهكذا كنت ثم صرت ، أو هكذا أنا من هــذا ياللعجب العجاب ، وياللقــدرة البـــاهرة ، ولا شك أن موقفا كهذا سيدفع العقل كثيرا الى التأمل والتفكر •

ولأن الآية الأولى تتناول الحديث عن النشأة الترابية فلم ترد فيها كلمة النفس ، لكن جاءت بعد أن انتشرنا وتحــركنا وتصرفنا ، وشعرنا بأحاسيس فى داخلنا ، وقبل أن نسأل الخالق عن سر هــذه الأحاسيس ، ومصدر تلك الدوافع وكيف نشبع غرائزنا وننمى عواطفنا بادرنا سبحانه بالطريقة التى تشبع أهم الغرائز وأشدها فخلق لنــا

من أنفسنا أزواجا نسكن اليها لأنها تشبهنا خلقة وتفكيرا ، وتتوافق معنا طبعا وسلوكا ، ولو كانت من جنس آخر ما تحققت السكينة المنشودة ، ولا الألفة التى تريح النفس ، ان نفوسنا بحاجة الى سكن كى تطمئن وتستقر ، وان غرائزنا بحاجة الى تنفيس تحكمه قواعد شرعية كى لا تكبت ، والسكينة علاج نفسى رائع لكل الجوانب المشار اليها فى داخلنا ، وبها يسعد الانسان ويتوافق مع أسرته .

وتضم جوانحنا كذلك عواطف جياشة تغمرنا فى رقة ، وتنساب فى داخلنا بعذوبة فما السبيل الى تنميتها وترقيها ؟ يجيبنا الحق بأن حادثة الزواج تعتبر سكينة نفسية وفى الوقت ذاته هى ظاهرة اجتماعية تربط بين البشر ، ونؤسس عليها جسور المودة . وتنشر خيوط الرحمة فيما بينهم ، فيتحقق بذلك السلام الاجتماعى كما تحقق الأمان الأسرى ، ولا شك أن هذا يثير التفكير العميق ، اذ كيف يحدث هذا كله من حفنة ترابية ، وهل يتصور العقل أن يتم ذلك طبعا ، ان التفكير السليم يدرك ويسلم أنه لابد أن تكون قوة عليا قد أبدعت البشرية وسوتها كما صرح القرآن ، والدلائل والآيات الواضحة تثير اهتمام الذهن ، وتقود المتأمل الى الايمان المبنى على اليقين والاقناع .

ملاحظة هامة على صيغة التفكر هنا :

حاول أن نتأمل سويا الآيات التى وردت فيها لفظة التفكر عبر المجالات الكونية أو النفسية أو الآيات المتلوة تجد أنه عندما يكون الخطاب موجها الى المؤمنين أو معبرا عن حالهم تأتى لفظة التفكر مع لعل أو بدونها فيقول الحق **« لعلكم تتفكرون »** (٣٣) ، وان أخبر عن أولى الألباب وبعض صفاتهم عد منها : **« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض »** (٣٤) وذلك على اعتبار أن أغلبية المؤمنين

---

(٣٣) انظر البقرة : الآيات ٢١٩ ، ٢٦١ — ٢٧٤ .
(٣٤) آل عمران ١٩١ .

ذوو أهلية ادراكية يمكنهم أن يتفكروا •

وكذلك يأتى الحديث عن التفكر فى السياق الايمانى مبينا تأثير التأمل على رقة القلوب وعلى زيادة الايمان ونضجه ، كما يستحث المولى عز وجل أن يتفكر المؤمنون فى دقة الأحكام الشرعية ومنفعتها ، وما تحمل من عدالة ، وضبط للنظام وحفظ للنفس والعرض والمال ، وأن يعملوا عقولهم فى الاجتهاد والاستنباط حتى تقوم عبادتهم من الناحية العملية على علم وفقه ، وبذا تدخل عمليات التفكر فى الأصول كما تدخل فى الفروع سواء بسواء ، ويكون لتلك العمليات طابع استنباطى أو شعورى ايمانى رقيق •

ولكن عندما يكون الخطاب موجها الى الكافرين فى المجال الكونى والنفسى أو غيرهما فان عملية التفكر تأتى بصيغة « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » أو « أفلا تتفكرون » ويرجع ذلك الى أن المنكرين ليسوا جميعا أهلا للتفكر بل قوم معينون فحسب ، وهذه الصيغة تدعم ما سبق ذكره من أن التفكر حالة خاصة ومقصورة على فئة بعينها ، كما أنه من البديهى أن تكون اثارة القرآن لهؤلاء الكفار فى حدود المطالبة بتنشيط ملكة التفكر كى يتجاوزوا عقبة الكفر ويدخلوا رحاب الايمان ، ثم يأتى بعد ذلك دور التفكر فى الأحكام التشريعية ، وعليه فتفكيرهم على فرض وجوده وقيامه له صبغة استدلالية اعتبارية •

أهم سمات الانتاج لملكه التفكر :

بعد أن وقفنا على طبيعة عملية التفكر وخصائصها والمجالات التى تعمل فيها يهمنا الآن أن نلقى نظرة على السمات التى تميز انتاج تلك الملكة من الناحية المعرفية طبعا مستندين فى ذلك الى نصوص القرآن الكريم كما هو المنهج المتبع • والذى دعا الى هذا هو ما وجدناه من أن القرآن لم يوقظ تلك القوة المفكرة فحسب

بل بعثها بعثا وألقى كثيرا من الأضواء على نشاطها ، وكلفها بتكليفات تأملية ونظرية فهمنا منها السمات العامة لنشاطها .

وأول علامة تميز تلك القوة المدركة هي أنها قادرة على التفكر وعلى التقدير ، وأعنى بالتقدير اتخاذ موقف ناشىء ومبنى على التفكير بصرف النظر عن كون التقدير المؤسس على الفكرة خطأ أو صوابا ، المهم أنه وجد تفكير تمخضت عنه فكرة ، ونشأ عن الفكرة موقف نظرى أو عملى أو هما معا ، وحول تلك السمة يقول المولى عز وجل عن الوليد بن المغيرة فى موقفه من النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع منه القرآن [**انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ، ثم عبس وبسر فقال أن هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر**] (٣٥) .

وملخص هذا أن الوليد سمع مرة القرآن فأعجب به وقال كلماته الذائعة [لقد سمعت من محمدا آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، أنه ليعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر] فحزنت قريش ، وقام أبو جهل بمهمة اثناء الوليد عن موقفه فى الثناء على الوحى خشية أن يتحول هذا إلى اعتناقه الدين الجديد ، وأثناء المحاورة نفى الوليد لأبى جهل أن يكون كلام النبى صلى الله عليه وسلم من قبيل الشعر أو الكهانة أو الرجز ، ونفى عن شخص الرسول صلوات الله عليه أن يكون مجنونا أو كذابا .

وإلى هنا يبدو الوليد متأثرا الى حد كبير بما سمعه من الرسول ، ومنصفا تلك الشخصية النبوية الصادقة ولكنه تحت وطأة الحيلة التى دخل بها أبو جهل من أن قريشا عازمة على جمع مال تسد به رمق الوليد خشية أن يدخل تحت تأثير الحاجة وضرورة الفقر فى

---

(٣٥) المدثر ١٨ — ٢٥ .

دين محمد وأصحابه راح الوليـــد بعد ذلك يفكر فى الأمر من جديد .
ولقد تغير فيه كل شىء . لقد كان منذ لحظات يفكر فى ضوء ما ســمع
من النبى صلى الله عليه وسلم ، وها هو الآن تعود اليه غشاوة الجاهلية
وحميتها ، وتتراكم حول قلبــه الصوارف والحجب فيفكر فى الأمر
مرة بعد مرة ، ويقــدر كلاما يقوله نابعا من تفكيره ، ثم بعد أن هيــأ
الكلام الذى قدره فى نفسه ودبجه ألقى عليه نظرة أخيرة قبل أن
يخرج به على قريش ، أو أنه فكر فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم
وقدر ما يقــوله فى شأنه ، ثم نظــر فيما يرد به الحق وفيما يدفعه
به ، ثم بعد ذلك اتخذ موقف العبوس والتجهم عندما قابل صــحابة
رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة على الرفض ، وأخيرا أفصــح
عن رأيه بأن هــذا سحر يؤثر ، وما هو الا قول البشر تعلمــه النبى
صلوات الله وسلامه عليه من غيره .

والسياق يدل على أن عملية التفكر والنظر فى الأمر ســارت
بمهل شديد ولم يكن الوليد متسرعا فى اتخاذ الرأى بدليــل استخدام
القــرآن للفظة ثم الدالة على التأنى فى التأمل والتمهل فى التفكر
والنظر ، وكان بين الأفعال الواردة فى السياق تراخ وتباعد ، ولمــا
خطرت بباله دعواه فى أن القرآن سحر وأنه قول بشرى لم يتمالك أن
نطق بها من غير تلبث على حد تعبيرات الزمخشرى[٣٦] .

وبصرف النظــر عن أن التفكير والتقدير فى البــداية كانا للثناء على
القرآن بعد سماعه أو أنه هو والنظر كانا لرد الحق بأفكار مفتراه
فان الذى يهمنا فى تلك النقطة أن التقدير جاء عقب التفكر ولم يأت
مع النظر ، مما يجعلنا نقول ان تقدير المسائل مبنى على التفكر فى
وجوهها المتعددة ، ولقد قلب الوليد الكلام من وجوهه المتنوعة فلم

---

(٣٦) الكشاف ج٤ ١٥٨ ، وانظر القرطبى ج١٩ ٧٤ — ٧٦ .

يجد القرآن ينطبق على واحد منها . كما تفحص شخصية الرسول صلوات الله عليه من جوانبها المتكاملة فنفى أن يكون كاذبا أو دعيا ، وتلك الطريقة التى سلكها الوليد فى البداية مع القرآن ونبيه عملية فكرية بجميع مراحلها من تقليب الأمور ، ومراجعة الخاطر ثم اتخاذ رأى أخير ، وكونه نكص بعد ذلك يرجع الى ملابسات أخرى ، ولو أن الوليد ثبت على موقفه الأول ما ذمه القرآن ، ولكن الذم انصب باعتبار القرار الأخير ، وبما أن الوحى نزل بعد وقوع ذلك كله وبمقتضى علم الله الاحاطى فقد لعن وقتل نتيجة تفكيره وتقديره ونظره وعبوسه .

وأما السمة الثانية للتفكر فهى التمييز ، والقدرة على تبين الحسن من القبيح ، والدائم من الفانى ، والباقى من الزائل ، والفضيلة من الرزيلة ، والصحيح من الخطأ الى آخره ، ولابراز تلك النقطة يقول العزيز جل جلاله [**يأيها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم**] (٣٧) .

والذكر القرآنى هنا يضع التفكير البشرى أمام حقيقتين هامتين : احداهما تبين أن الدنيا دائما مهما أينعت وأخضرت ولبست أفخر ثيابها ، وأبهى حلتها ، وحاولت افتتان ساكنيها ، وظنوا أمام هذه الاغراءات أنهم تملكوها وبلغوا فيها مبلغا عظيما فسيأتيها أمر الله

---

(٣٧) يونس من الآية ٢٣ والآية ٢٤ .

بحيث تصير حصيدا يابسا ذهبت زينته وضاع بريقه ، وخبا لمعانه وبقى حصيده ونتائجه . فليتامل كل مفكر كيف ذهب كل هذا الجمال . وبقى ما يشبه الحصيد ، وليفكر فى هـذا الحصاد وما يحتويه من ثمـار نافعـة .

وفى مقابل تلك الحقيقة الزائلة تاتى الحقيقة الثانيـة التى يرجع فيها الناس الى الله فيخبرهم بما عملوا ، وسوف يعيشون فى دار أبدية . وعليهم أن يميزوا بين زينة دنيوية مليئة بالجمال والغرور ، والخلاف والشقاق ، وهى زائلة وبين حقيقة أبدية فيها جميع ألوان الزينـة والمتع ، وهى سلام كلها تخلو من الخلاف والتنافر . والبعض والغـل ، أى حياة بعد هـذا يختارون ؟

بين هاتين الحقيقة تبرز ملكة التفكر ويطالبها الحـق أن تميز وتختار . يقول الطبرى معلقا على المثل وسياقه [وخص به أهـــل الفكر لأنهم أهل التمييز بين الأمور والفحص عن حقائق ما يعـرض من الشبه فى الصدور] (٣٨) فعليهم ان يتفكروا ويعتبروا .

وعلق الزمخشرى على قوله سبحانه فى سورة البقـرة [**كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيـا والآخرة**] بقـــوله [أى يبين لكم الآيات فى امر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون فى الدنيا وزوالهـا وفنائها فتزهدون فيهـا ، وفى اقبـال الآخـرة وبقـائها فترغبون فيها] أو فتؤثـرون أبقاهما وأكثرهما منافع حسبما يفسر الزمخشرى (٣٩) ، ومعروف أنه لا زهد فى فانيـة ، ولا رغبـة وايثار لباقيـة الا باستعمال التفكر والتمييز ثم الاختيار والانحياز .

---

(٣٨) التفسير ج١١ ٧٢ وانظر تفسير الخطيب الشربينى ج٢ ١٦ والقـرطبى ج٨ ٣٢٤ — ٣٢٨ والكشاف ج٢ ١٨٦ — ١٨٧ والبيضاوى ج٢ ٩٠ .

(٣٩) القرطبى ج٢ ٥٠ — ٦٢ والكشاف ج١ ١٣٣ .

وأما السمة الثالثة فهى أن ملكة التفكر قوة تستطيع صنع الاستدلال من بين المقدمات المطروحة ، وعلى هذا الاعتبار قدم القرآن عديدا من الشواهد والدلائل للعلم بان الانسان قادر على أن يعمل فيها تفكيره ، ويستخرج منها الدليل لو سلك طريقا صحيحا فى التفكير ؛ والمفسرون يدركون جيدا تلك الحقيقة فلا تفوتهم مناسبة تذكر فيها أدلة وترد معها كلمة التفكر الا وأظهروا تلك المقدرة الفكرية، وعلى سبيل المثال يدعو الله سبحانه كل من أنفق مالا فى سبيل الله أن ينفق فى اخلاص وابتغاء مرضاة الله ، وأن لا يتبع انفقه بالمن والأذى ، ويسوق مثالا للمنفقين ابتغاء مرضاته ، فيشبه عملهم بجنة مثمرة تؤتى أكلها ضعفين ، وأما الذين ينفقون رياء أو يتبعون بذلهم بالاساءة أو بذلوا من مال خبيث فلا ثمرة ترجى من وراء ما قدموا كجنة متنوعة الثمار ولكن لحقها اعصار فيه نار فاحترقت ، ويختم الله كل ذلك بقوله : «**كذلك يبين الله الآيات لعلكم تتفكرون**»(٤٠) ويذكر الطبرى عقب ذلك فيقول :

[كما بين الله أمر النفقة حلالها وحرامها يبين لكم الآيات سوى ذلك ... ويوضح لكم حججها انعاما منه بذلك عليكم لتتفكروا بعقولكم.. وتعتبروا بحجج الله فيها وتعملوا بما فيها من أحكامها](٤١) وفى مناسبة أخرى يقول عقب قوله جل جلاله [**وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا**](٤٢) أى [**لقوم يتفكرون فيها فيستدلون** ويعتبرون بها](٤٣) .

وفى تفسير قوله سبحانه [**وهو الذى أنزل من السماء ماء لكم**

---

(٤٠) البقرة ٢٦١ — ٢٧٤ .
(٤١) التفسير ج٣ ٥٤ والقرطبى ج٣ ٣٢٠ .
(٤٢)سبقت الآية .
(٤٣) الطبرى فى التفسير ج١٣ ٦٣ — ٦٤ وتفسير النمى هامش الطبرى ج١٣ ٦٣ — ٦٤ أيضا .

منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتـون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون] النحل ١٠ ، ١١ يقـول الزمخشرى أى [يتفكرون .. فيستدلون بهـا عليه وعلى قدرته وحكمته] (٤٤) أرأيت أن المفسرين قـد أعطـوا مرحلة المتفكر حق الاستدلال ؟ ؟

وتأتى السمة الرابعة والأخيرة وتتمثل فى أن الملكة التى تتحول فى الموضوع والدلائل ، ولها قوة التقدير والتمييز والاستدلال لاشك أن لهـا بالتالى قوة اصدار الحكم ، والله قد خاطبها بذلك فقال لعموم البشر وبخاصة المنكرين للبعث منهم [أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقـاء ربهم لكافرون] (٤٥) ، وفى أنفسهم كما يقول المفسرون ظـرف للتفكير وليس مفعولا ليتفكروا والفرق بينهما أنها لو كانت مفعـولا لكان التفكير واقعا على النفس ، وهى مجال له ، ولكن الله يريد أن ينبه الى أن التفكير ينبغى أن يعمق جـدا ، وأن يغوص الانسان فى أغوار نفسه لاباحثا فيها وفى طباعها ولكن مستغلا كل ملكة بهـا للوصول الى الحكم المطلوب وهو أن الله ما خلق السموات والأرض الا بالحق ولاقامة الحق ، أو بالعدل والحكمة (٤٦) . ولك أن تتصور حال المتفكر عندما تكون مادة الاستدلال المجموعة من مظاهر السموات والأرض ، وقد أمره الله أن يجمعها ويجلس مع نفسه متأملا مستغرقا حاصرا كل قواه ، ومستحضرا كل ذكائه ومعارفه ليستخرج الحكم بالغـاية من وراء هـذا الخلق العظيم وهى أنها ما خلقت الا بالحق ، كيف يكون حال الذى يتفكر اذن ، ومدى قوته واستغراقه فى عملياته ،

---

(٤٤) الكشاف ج٢ ٣٢٤ والطبرى ج١٤ ٥٩ — ٦٠ .
(٤٥) الروم ٨ .
(٤٦) تفسـير القرطبى ج١٤ ٨ ، ٩ والطبرى ج٢١ ١٧ والكشـاف ج٣ ١٩٨ .

ودقة ذلك . والحال أنه لم يفعل كل هــذا الجهد من تلقاء ذاته بل صــدر به الأمر من الله اليه ، وهو أمر لم يرد مثله فى أى ملكة من ملكات الوعى الانسانى فلم نر آية من آيات النظر أو التبصر أو التذكر نبهت الى ضرورة الاستغراق أثناء جريانها ، وان ذلك فانما يدل على تفوق مرحلة التفكر وأنها أعمق مما سواها ، وغيرها مبنى عليها .

وفعــلا لمــا استمع فريق المؤمنين الى هــذا التوجيه الربانى وقاموا فى ليلهم ذاكرين ومتفكرين ومستغرقين نطقوا بالحكم قائلين « **ربنا ما خلقت هــذا باطلا سبحانك** » (٤٧) .

حــدود ملكة التفكر :

تصــل ملكة التفكر الى الحكم ، وقبــل ذلك دللت ، وميزت ، وقدرت ، وقبل هذا كله تجولت وعمقت فى الموضوع المدرك ، وهو ما جعلنا نولى تلك القــوة التأملية عناية خاصة ، فهل ما وصلنا اليــه يفيد أن تلك الملكة بالذات قادرة على التفكير فى كل شىء ؟ والى أى مدى تكون نتائجها ؟ وبعبارة أخرى ما حدود نشاط التفكر سعة فى المجالات ؟ وما الدرجة التى يمكن أن يصل اليها يقينا فى المعرفة ؟

بالنسبة للنقطة الأولى الخاصة بحدود التفكر فى المجالات فاننا نتيقن تماما من نصوص الآيات السابقة كلها ان الله حث الانسان على أن يتفكر فى دلائل قدرته فى السموات والأرض وفى النفس وفى كلام الحق المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهــذا يعنى أن المحيط الذى تعمل فيه ملكتنا المتــأملة هو المخلوقات بأنواعها وصولا الى معرفة الله ، ووحدانيته ، وما سوى ذلك من التفكر فى الذات وحقيقة الأسماء والصفات فهذا ما لا طاقة للكة التفكر أو أى ملكة أخــرى أو العقل البشرى بجميع ملكاته عليه وهو فوق حدود مداركنا وقدرات مجتمعة ومنفــردة ، ومجتمعين نحن ومتفرقين .

---

(٤٧) آل عمران ١٩١ .

وصـور الغزالى فى خطبة الافتتاح لكتاب التفكر ما يمكن أن يتفكر فيه الانسان وما لا يمكن له ذلك لقصور ملكاته وعلو مقام ذات الله ، بينما يمكنه أن يتجول بخواطره فى الكون كله يقول بعبارات دقيقة حينا ورمزية آخر [الحمـد لله الذى لم يقـدر لانتهـاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقـدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام الى حمى عظمتـه مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيـداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، واذا همت بالانصراف نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لهـا أجيلى فى ذل العبودية منك فـكرا ، لأنك لو تفـكرت فى جلال الربوبية لم تقـدرى له قـدرا وان طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا .

فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليـك تترى ، وجـددى لكل نعمة منها ذكرا وشـكرا وتأملى فى بحار المقـادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفـوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وايمـانا وكفـرا ، وعرفا ونكرا .

فان جاوزت النظر فى الأفعال الى النظر فى الذات فقـد حاولت أمرا امرا ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حـد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهـرت العقول دون مبادىء اشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرابا وقهرا] (٤٨) والسند فى ذلك راجع الى قول النبى صلى الله عليه وسلم [تفـكروا فى الخلق ولا تتفـكروا فى الخالق .فانكم لا تقـدرون الله قـدره] .

وأما بالنسبة للنقطة الثانية المتصلة بحـدود المعرفة فان ملكة التفـكر توصل عند سلامة الآلات وعدم الصوارف الى اليقين والا فلم

---

(٤٨) الأحيـاء ج٦ ٥٨ ، ٧٦

يتن الأوامر الصادرة الينا باعمال الفكر معنى لو لم نحصل من وراء نشاطنا على يقين بوجود الله أو بتحصيل معارف ضرورية لنـــا ، وكان الحث على التفــكر حكما شرعيا لا يوصل عنــد تطبيقه الى ثمــار عرفانية عامة أو خاصة ، ولقــد اعترف بتلك الحقيقــة أبو الدرداء رضى الله عنه ، روى ابن القاسم عن الامام مالك رضى الله عنه قال [قيل لأم الدرداء ما كان أكثر شأن أبى الدرداء ، قالت كان أكثر شأنه التفكر ،فقيل له أفترى التفكر عملا من الأعمال قال نعم هو اليقين] (٤٩) أى الوصل اليه .

وأثناء تفسير القرطبى لقوله سبحانه [**وأوحى ربك الى النحـــل أن اتخــذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيــه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفــكرون**] (٥٠) قال [أى يعتبرون ، ومن العبرة فى النحـــل بانصـــاف النظــر والطاف الفــكر فى عجيب أمرها ، فيشهد اليقين بأن ملهما الصنعة اللطيفــة وحذقها باحتيالها فى تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى] (٥١) .

وعبــارة القرطبى تذهب الى أبعــد من الوصول الى اليقين لتصل الى حــد شهود اليقين ورؤيته القلبية وحالة الشهود فى المعرفة أرقى من مجرد ادراك الشىء أو العلم به ، ومع اعترافنا بامكان الوصول أو قوة هذا الوصول وتمكنــه فى القلب حتى كأنما نشــاهد الشىء المعروف الا أنه لا يغيب عن أذهاننا طاقة البشر المحــدودة وقدرتهم القاصرة ، الأمر الذى يجعل اليقين موسوما بالنسبية والتفاوت لدى أربابه ، جاء فى المفردات للراغب عن التفــكر انه [جولان تلك القوة

(٤٩) أبو بكر ابن العربى : احكام القــرآن ج٢ ٨١٦ .
(٥٠) النحــل ٦٨ — ٦٩
(٥١) الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ٩٣ — ٩٥

بحسب نظر العقل .. ولا يقال الا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب] (٥٢) ونظر العقل متفاوت ، ومن الأشياء موجود لايمكن حصول صورته فى الذهن وهو الحق جل جلاله .

التفكر بين الاستدلال والوجدان

الاسلام ينبهنا دائما الى أن الأمور المجردة بينا لها علاقة بسلوكنا وأعمالنا ، وجميع أنشطة الذهن من هذا القبيل ، ولذا دخل التفكير نفسه من بين المسائل التى اهتم بها المسلمون ، وحاولوا أن يضعوا له مكانة فى العبادة كعمل ذهنى خاص ، وأن يربطوا بينه وبين الأعمال الأخرى من أخلاق وطاعات .

وبعبارة أخرى حاول المسلمون أن يتأملوا ملكة التفكر ذاتها ، وأن يتحدثوا عنها من حيث نشاطها الخاص فى المجال النظرى ، ومن حيث علاقاتها بالأعمال الأخرى من سلوك وطاعة شرعية .

وبالنسبة لنشاطها التجريدى فقد جعلوها مسئولة عن حالات التقدير والتمييز والاستدلال والحكم كما بينا ، ويمكن أن نسمى هذا النشاط بالتفكير الاستدلالى وهو عام لدى المؤمن والكافر .

وهناك تفكير من نوع آخر ، وبصورة أرق وأعمق من الصورة الأولى ، وفيها تتجه تلك الحالة الادراكية لدى المؤمنين بالذات الى تأمل مظاهر الكون جملة أو تفصيلا ، والى الوقوف عند النعم الالهية التى أنعم الله بها علينا وقوفا من شأنه أن يتبين جانب الفضل الالهى مع استحقاق العبد أو تقصيره ، وأقرب وصف يمكن أن نطلقه على هذا الحال لدى المؤمن هو أنه تفكير وجدانى .

---

(٥٢) المفردات ٣٨٤

وتصح تلك التسمية الى حد كبير عندما نعلم أن صاحبها أثناء تلبسه بحالة التفكر لا يكون فى وضع نفسى أو شعورى عادى ، انما ينفعل بالحالة انفعالا نفسيا وروحيا معا وربما انتابته حالة وجد شديدة وهو يتأمل ظاهرة كونية ، أو آية قرآنية ، وأظهر ما تكون تلك الحالة لدى الصوفية .

وهناك حوادث مروية تقودنا الى تصديق ما نذهب اليه ، فيروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله [بينما رجل مستلق على فراشه اذ رفع رأسه فنظر الى النجوم والى السماء فقال أشهد أن لك ربا خالقا اللهم اغفر فنظر الله اليه فغفر له] .

ولقد غلبت حالة التفكر على مشاعر أبى الدرداء ووجدانه كما أخبرت زوجته رضى الله عنهما هذا مع تمكنه وثباته ، ورباطة جأشه ، وربما اشتدت فملكت على صاحبها كل أحاسيسه ، واستغرق فيها استغراقا يفقده الشعور بذاته الى حد ما ، فهذا سفيان الثورى جاء الى المقام فى ليلة فصلى ركعتين ، ثم رفع رأسه الى السماء فلما رأى الكوكب غشى عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته ، وأخذ أبو سليمان الدارانى قدح الماء ليتوضأ حتى يقوم الليل وعنده ضيف فرآه لما أدخل يده فى أذن القدح أقام لذلك متفكرا حتى طلع الفجر ، فقال له الضيف ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : انى لما طرحت أصبعى فى أذن القدح تفكرت فى قول الله تعالى [اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون] وتأملت حالى ، وكيف أتلقى الغل ان طرح فى عنقى يوم القيامة ، فما زلت فى ذلك حتى أصبحت] (٥٣) .

ان هذا التفكير ليس تفكيرا عقليا جافا ، ولا يخضع لمعايير

---

(٥٣) تفسير الكشاف ج١ ٢٣٧ ، وتفسير القرطبى ج٤ ٢١٠ — ٣١٥

ذهنية محـــددة ، ولا يقصد أربابه من ورائه استدلالا معينا ، وانما هو تأمل نفسى عميق تثيره حادثة معينة ، فتنفعل النفس من جميـع جوانبها انفعالا يهـز الانسان هـزا ، أو يفقـده حسـه ، وهـو انفعال تكون فيه الروح على أعلى ما تكون رقة وتساميا ، وهى لا تفكر فى الحوادث المشاهدة بل تتجاوزها الى أفق روحى أرحب ، ولا شك أن الحالات التى ذاقها سفيان الثورى وأبو سليمان الدارانى لا تعتبر تفـكرا عقليا عاديا يرتب فيها صاحبها المقدمات ليستخرج النتائج ، وانما يحيا المتفكر لحظات مع النتائج ذاتها ، لا يصوغها ولكن يشاهدها، ولا يتثبت من صحتها ولكن ينفعل بحقيقتها ، ولا يحضر مع ألفاظها ولكن يغيب فى معانيها .

ونظرا لأن بدايتها فـكرة طرأت ، ولأن أصحابها عبروا عنهـا بالتفكر فقد أدخلنـاها فى هـذا المجـال ، ونظرا لانفعال النفس والروح بتلك الحالة فقد سميناها بالتفكر الوجـدانى ، ولاعتبارات تعود على النفس فى صفائها وترقيتها وعلى الروح فى تساميها فقـد أطلقوا عليها اسم العبادة كذلك ، واعتبروا التمتع بتلك الدرجة من التفكير عبادة من أرقى أنواع العبادات ، بل اعتبروا ساعة واحـدة يذوق فيها الانسان هذا التسامى أفضل من عبادة سنة ، ولقـد قيل لابن المسيب فى الصلاة بين الظهر والعصر ما هى فقال [ليست هذه عبادة ، انما العبادة الورع عما حرم الله والتفـكر فى أمر الله] (٥٤)، وكم أشاد بها ابن عباس وأبو الدرداء رضى الله عنهما ، وتعتبر آية آل عمران أصلا لهذا الاتجاه كله (٥٥) .

---

(٥٤) المرجعان السابقان .

(٥٥) الآية ١٩١ [الذين يذكرون الله قياما وقعـودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك] .

التفكير العلمي وعلاقته بالعمل

وأخيرا يأتى التفكير العلمى ، وهو النوع الثالث من انواع التفكير بعد الاستدلالى والوجدانى ، وانما سميناه تفكيرا علميا لكونه يعمل فى مجال خدمة العلوم ، وعن طريقه تتكون المعارف وتتحصل ، وهذا للنوع هو الذى يتصل بالعمل اتصالا وثيقا .

واتصاله به من جهة التفكير يوضح وسيلة العمل فى الطاعة ، ويبصر بالطرق الصحيحة التى تؤدى بها ، كما أنه يعرف الانسان بالشر وعاقبته ، وهذا يدعوا الى الترك ، يقول ابن عباس [التفكر فى الخير يدعو الى العمل به ، والندم على الشر يدعو الى تركه] (٥٦).

والعلماء اذ يتناولون علاقة العلم بالعمل يفصلونها بدقة ، ويتتبعونها من بداية التفكر الى أن تتحول الفكرة الى عمل أو ترك ، ويشيرون الى أن التحول يتم من خلال مراحل ثلاثة رئيسية هى التفكر والعلم والعمل ، وذلك باعتبار أن العلم ثمرة التفكر ، والعمل نتيجة العلم .

وربما أخذت تلك المراحل الثلاث أطوارا خمسة :

الأول : هو التفكر ، ويعتبر المفتاح الرئيسى الذى ندخل منه الى بقية المسالك التالية ، ونصل به الى جميع الخيرات كما يرى ابن قيم . وبه ندرك حقائق الايمان التى لا تدرك بالعمل المجرد ، وعموما فهو يوجب لنا من انكشاف حقائق الأمور وظهورها ، ومعرفة فاضلها من مفضولها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة اليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ، ويدفع موجبها ، وما به يتحصل المرغوب . وما يقف عقبة فى سبيل تحقيقه ما لا يوجبه شىء آخر .

---

(٥٦) الاحياء ج٦ ٦٢

وايضا فالتفكر يوضح الفرق بين الوهم أو الخيال الذى يمنع كثيرا منا من انتهاز الفرص بعد أمكانها ، وبين السبب المانع حقيقة ، فنشتغل بتذليل الأسباب المانعة دون الأوهام والخيالات التى تساورنا ، ولا سلاح أمضى فى قطع الوهم من فكرة صحيحة تبدد غيوم الخيام ، وتزيل سحب الأوهام •

والتفكر الصحيح فى عواقب الأمور هو الذى يهيىء الانسان لاقتحام الصعاب ، وتحمل المشاق ، وترك الراحة والدعة والكسل ، فمن تفكر فى العاقبة فعلم أن نتيجة الشهوات والملذات تفضى الى الخسارة فى الآخرة تركها ، أو تفكر فى استعباد المال والجاه استحى من عقله ونفسه أن يكون عبدا لمملوكه وهو المال . فنحن الذين نملكه ونحصله ، فكيف نصير عبيدا له بعد ذلك ، وعلى العكس اذ تأمل عاقبة الطاعة والفلاح بسببها أقدم عليها مهما كان فيها من المشقات والمجاهدات ، ومهما كلفته من بذل أوفقدان للذات عاجلة[٥٧]•

والطور الثانى هو العلم ، فمن تفكر علم ، من تأمل عرف ، وبالتفكر والتأمل يصير المرء عالما بعد أن كان غير عالم ، وتنقشع عنه سحابة الجهل وظلماته •

واذا علم تغير حال القلب فيصير راغبا فى الشىء بعد أن كان مبغضا ، وتتولد الارادة والميل الشديد نحو الفعل الخير •• وكذا يقال فى الترك فمن علم تغير قلبه من حب الشهوة الى بغضها فتتولد الارادة نحو الترك ، وهذان طوران آخران من الأطوار الخمسة •

ويبقى هناك طورا خير ، يتمثل فى أن الارادة تولد فى الانسان القوة الدافعة الى العمل ، وتقود الجوارح الى الفعل المحمود ، أو

---

(٥٧) مفتاح دار السعادة ج١ ٢٢٨ .

تكبح جماح النفس عن فعل المذموم (٥٨) .

وهكذا تبدأ الأطوار بالتفـكر وتمر بالعلم الذى يثمر تغـير الحال فى القلب ، والذى تنشأ عنه الارادة ، ثم يكون العمل ثمـرة ذلك — ، والله فوق هذا كله هو الموفق الى كل خير والحافظ من كل شر .

---

(٥٨) انظر الاحياء ج٦ ٦٤ — ٦٥ ومفتاح دار السـعادة ج١ ٢٣١ والصحائف الالهية ١٦٦ — ١٦٧

الفصل الرابع

ملكة التبصر

التبصر ادراك قوى وجلى

فى هذه النقطة سوف نقف مع حال التبصر وقفة تحديد لمدى القوة الادراكية فيه ، ومدى ما تحمله من خصائص الجلاء والوضوح ، ونتبين معا هل هى جديرة بأن تترتب على ملكة التفكر ، وترقى عنها أولا ؟

ونبدأ فى الإجابة عن هذا السؤال بما نلحظه من الاشتراك اللفظى بين نظر وبصر فكل منهما يدل على العين والقوة المدركة فيها ، ويقترب التبصر من التفكر من جهة أن كلا منهما يفيد التأمل والعلم .

ومع هذا الاشتراك بينها وبين حالى الادارك السابقين الا أننا بالرجوع الى معانى التبصر فى اللغة نجدها تحمل طبيعة ادراكية تختلف عما جاء فى النظر والتفكر ، وذلك من عدة جوانب هامة .

منها أنها حال ادراكى يمتاز بالقوة ، فيقولون [البصر : العين وقوة الابصار ، وقوة الادراك] والبصيرة [قوة الادراك والفطنة والعلم والخبرة] تلك القوة المعرفية التى لم ترد بين ثنايا

اشتقاقات النظر ، ولم يتصف بها حال التفكر ، وأيضا فان المعارف الناجمة عن طريق التبصر تكون أجلى وأوضح فيقال [أبصرت الطريق استبان ووضح ، وأبصرت الآية صارت واضحة بينة] وكذلك استبصر الأمر استبان ووضح ، ولهـذا الوضوح المقصود نرى القـــرآن الكريم يستخدم في مجال المعرفة أظهر الصيغ الاشتقاقية للكلمة والتى تدل على الوضوح والجلاء مثل « يبصرونهم ، وتبصرة ، وبصـــيرة ، ومستبصر وبصائر ، فهو لا يكتفى بسوق الاشتقاقات الدالة على القوة فى الادراك والوضوح فيه ، ولكنه يشتق منها صيغا تحمل مبالغـــة فى المعنى المراد ، أو تزاد حروفها زيادة بينـــة لتدل زيادة المبنى على زيادة المعنى (١) .

ومما يمتاز به حال التبصر أنه يتعلق بالدين تعلقا أوليا ، وبصورة تفـــوق تعلق النظر والتفكر ، فعندما يتأمل الانسان دينه تأملا صحيحا لا نقول نظير ولا فكير ، ولا ذا نظر أو ذا فكر ولكن نقـــول استبصر فى أمر دينه أو أبصر دينه صار ذا بصيرة فيه ، ومن ثم لا نعجب اذا ما وجدنا كلمـــة البصيرة هى المصطلح الدينى الدال على قوة ادراك خاصة يحصل عليها المتدين بعد طول مجاهدة ومحاسبة . وغنى عن البيان أنه لا يوجد مصطلح آخر لتلك الحالة نستطيع اشتقاقه من النظـــر والتفكر .

ويترتب على ذلك مباشرة ميزة أخرى هى ارتباط شـــدة التبصر بالهداية فيقال : أبصر فلان رأى ببصيرته فاهتدى ، وفعل ذلك عن بصـــيرة أى عن عقيدة .

---

(١) ومن صيغ المبالغة بصيرة على وزن فعيلة ، ومن صيغ الزيادة مستبصر من استبصر ومع ان أصل الكلمة يدل على القوة والوضوح لكن القرآن يزيد هذه المعانى قوة ووضوحا بالمبالغة والزيادة انظر [الأعراف ١١ ، الأنعام ١٠٤ ، الســـجدة ١٢ القيامة ١٤ ، ق ٨ العنكبوت ٣٨] وغيرها .

والذى يتصف بقـوة الادراك وجلائه . وكان بصيرة من دينـه وهدايه تامه وعقيدة راسخه هذا المدرك هو الذى يبصر الآخـرين بما علمه ويوضحه لهم فيقال : بصر الشيء اى عرفه ووضحه وبصر فلانا الأمر تبصيرا وتبصرة علمه اياه ووضحه له (٢) ، وبما ان الآيات الكونية والشرعية تبصر الناس وتعرفهم بالدين الصحيح فهى تبصرة ، ونحن نتبين الأشياء ونراها فى النهار فهو أيضا مبصر لانه يبصرنا بالأشياء حيث نراها على ضوئه .

وهـذا يعنى أن كل من بلغ حـدا فى العلم يستطيع ان يعـلم الآخرين ويبين لهم يقال له البصير ولا نصـفه بغير ذلك . كيف لا والحقائق صارت مشهودة فى قلبـه يراها ويحسها ويذوقها كما يبصر المحسوسات ببصره أو أشد ، ولتلك الدرجه من الوضوح فى المعرفة لزم أن يتصف المبلغون عن الله من الأنبياء وأتباعهم بالبصيرة لا بغيرها من أحوال الادراك الأخرى **[قـل هـذه سبيلى أدعو الى الله على بصـيرة انا ومن أتبعنى]** (٣) .

من هذا العرض تتضح لنـا طبيعة التبصر وخصائصه ، فهـو حال من الادراك قوى وواضح ، ويرتبط بالدين وفهمه أكثر من أى حال ادراكى آخـر ، والذين وصلوا الى معرفة أرقى وأجلى هم أرباب البصائر والهداية وهم أولى الناس بأن يعرفوا الآخرين ما علمـوه وما اتضحت فى قلوبهم حقائقه

ومع ما لهذا التبصر فى طبيعته من مميزات الا أننا لا نقول انه

---

(٢) انظر : ابن فارس معجم مقاييس اللغـة ج١ ٢٥٤ . أبو بكـر الأزدى جمهـرة اللغـة ج١ ٢٥٩ الفيروز ابادى القـاموس المحيط ج١ ٣٧٤ . الراغب الاصفهانى : المفردات ٤٩ — ٥٠ ، المعجم الوسيط ج١ ٥٩ . معجم ألفـاظ القـرآن ج١ ١٠٢ — ١٠٦ .

(٣) يوسف ١٠٨ .

حال أولى فى الادراك بل لكى نصل الى تلك الدرجات من القوة والوضوح ومشاهدة الحقائق يلزم أن نمر بأحوال ادراكية سابقه كالنظر والتفكر ، حتى تقوم هذه الأحوال بتمهيد المعرفة ، وترتيب مقدماتها ، واستخلاص النتائج ، وعندما نصل الى الوضوح التام فى أمر ما نكون قد دخلنا رحاب التبصر ، وتكون الملكات الأخرى قد أسلمتنا فى هدوء الى تلك الملكة ، وقذفت بنا فى أعماقها وخصائصها ، وأضحى وصف هذا الجانب الجلى من المعرفة بالاستبصار أمرا ضروريا ، واطلاقا لابد منه اذا رغبنا فى الدقة أو وضع الأمور فى نصابها •

وتأكيدا على تلك الحقيقة فاننا لم نر القرآن الكريم ينشىء الأمر بالتبصر الا نادرا ، على العكس من صيغ النظر والتفكر التى طالبت بالتأمل والتفكر ، وأغلب ما جاء فى التبصر هو الاخبار بتلك الدرجة من المعرفة ، وبالتالى يكون حديث القرآن عنها حديثا وصفيا لدرجة المعرفة وضوحها لدى انسان أو آخر ، الأمر الذى يدعم ما قلناه من أن التبصر مرحلة ادراكية تأتى عقب مراحل النظر والتفكر ، وأنها وصف لحال المعرفة التى حصلناها سلفا ، ولا يخرج عن هذا الاطار الا أرباب الكشف الذين يمنحون من الله علما ينقدح فى بصائرهم •

ولعلك فهمت من خلال هذه المعانى أن التبصر حال ادراكية تتعلق بالعقل والقلب ، فان اتضحت الحقائق أمام الذهن اتضاحا تاما فهو التبصر العقلى ، وان انكشفت أمام القلب ، وانجلت على صفحته فهو التبصر القلبى ، وسوف نلقى نظرات سريعة على كل منهما •

التبصر العقلى :

التبصر عن طريق التأمل العقلى حال يصل اليه الانسان بعد أن تمر معارفه عبر ملكات ادراكية سابقة وبعد أن يعمق نظره ، ويتأمل

بفكره طويلا ، عندئذ تتجلى الحقائق ، وتنطبع صورها فى الذهن انطباعا قويا ، وتزول الشبه والأوهام ، ويعرف المتبصر أحوال الشىء المدرك من بدايته الى نهايتـــه ، أصوله وفروعه ، أسبابه وغاياته ، محاسنه ومساوئه ، منافعه ومضاره ، وتبلغ المعرفة فى هذا الحال حدا من الوضوح بحيث اذا عرضت الحقائق الذهنية المتصورة عقـــلا فى أشكالها الحسية لا يختلف المتبصر فى قوة ادراكه عند رؤيته لهـــا عما كان عليه من ذى قبل •

وتلك حالة تحدث كثيرا ، فقد نخبر انسانا عن أحوال فرد آخر ، ونظل نحدثه عنه حديثا شاملا لكل ما هو عليه هذا الفـــرد حتى اذا حضر يوما ما أمام من أخبرناه ، وذكرنا اسمه عنده لم يزد شـــيئا عما كان يعرفه عنه ، لمـــا بلغ به العلم قبل أن يراه ، وهذا بعكس ما لو كانت معرفته به قليلة فان رؤيته له تزيده دراية بأحوال وأوصاف لم يكن يعلم عنها شيئا ، وفى معظم الأحيان تكون الرؤية مصـــحوبة بالدهش والاعجاب ، وفى الحالة الأولى استقرت المعرفة فى الذهن استقرار تاما حتى كأنه يراه بحقائقه من بعد ، فلما حضر المخبر عنه لم تضف الرؤية البصرية الى حالة التبصر العقلية السابقة شيئا يذكر ، بخلاف الحالة الثانية فان اضافة البصر الى التبصر تتوالى مع قوة التبصر وضعفه •

والقرآن يتدرج بالانسان فى المعرفة من النظر الى التفكر حتى يصل به الى حالة التبصر تلك ، لأنه سبحانه يريد أن يربى ادراكنا تربية قوية ، وأن يرسى دعائم العلم والمعرفة فينا بصورة راسخة ، وأن يجلى الحقائق تجلية واضحة بأن يزيل عنها الشبه ، ويرد التهم حتى تنكشف أمام العقل انكشاف يصير الذهن معها فى الجلاء كحـــال رؤية البصر مع المحسوسات ، ولتحقيق هذه المعرفة فى نفس الانسان يكثر الحق جل جلاله من عرض الأدلة وتوضيحها ، ومناقشة العقـــل واقناعه ، واثارة الشبه والرد عليها ، وابراز ما انطوت عليه الصدور

ومحاججته وتشبيه المعنـوى والغيبى بالمحسوس مع ضرب الأمثال للتقريب ، كل ذلك لتنجلى الحقـائق أمام العقـل الانسانى فيعلمها يقينا ويبصرها ابصارا .

ودفعا للانسان نحو هذا الطريق نراه يستحثه على بذل أقصى الجهد تفكرا في الآيات الكونية والنفسية حتى يتبصر الحقائق بشـكل يقينى ، وحتى يميز بينها تمييزا صحيحا مبنيا على النصـف لا على الهوى والشهوة ، ومن ذلك قوله جل شأنه **[أو لم يروا أنا نسـوق المـاء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون]** (٤) **[وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون]** (٥) فليتأمل الانسان كل هـذا ، وليتفكر بعمق حتى يبصر قلبه (٦) وتتكشف حقائق الكون والنفس أمامه ، وعليه أن يكـرر التـأمل والتفكر حتى يحصل على تلك الحالة اليقينية القوية ، ومتى وصل اليها كان مبصرا ولو هو أعمى ، واذا لم يسع نحوها ، ولم يبلغ ذروتها وقعد عند حد معين من المعرفة أو العلم لا يوصله الى التبصر العقلى الذى يؤمن على ضوئه ، ويهتدى بشعاعه اذا لم يفعل ذلك كان أعمى مهما حصل كثيرا من المعارف الدنيوية **[فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها]** (٧) .

ويمكن أن نسمى حالة التدرج المشار اليها بحالة الرفع والترقية للادراك حتى يصل الى التبصر ، وان كنت أسجل هنا بوضوح أنه ليس من اللازم أن تكون حالة الايمان والهداية ملازمة للتبصر بحيث يقال اذا وجـد التبصر وجدت الهـداية ، لأن مرحلة الهداية تحتاج الى مواصلة رحلة الادراك حتى تتخطى حالة التبصر الى التذكر والاعتبار ،

---

(٤) السـجدة ٢٧ .
(٥) الذاريات ٢٠ — ٢١ .
(٦) انظر تفسير القرطبى ج١٤ ١١١ ، ج١٧ ٤٠ .
(٧) الانعـام ١٠٤ .

وساعته يضيء المتأمل الى أمر الله وينصاع لحكمه بالايمان والطاعة طالما تداركته عناية الله وتوفيقه وصحبته مشيئته وارادته (٨) .

ولندع الآن رحلة التدرج نحو التبصر حتى نأتى الى حال الوصف لتلك الملكة عند أربابها ، ونسأل هل يتحقق التبصر فعلا ؟ وهل تنكشف الحقائق أمام الذهن حتى ينطق أصحابها أو يوصفوا بذلك ؟

نعم هناك مرحلة ادراكية راقية يتحدث فيها الانسان عن علم نفسه بالتبصر ، وهناك حالة تمكن علمية يقول فيها السامرى لموسى بعد أن صنع العجل لبنى اسرائيل [بصرب بما يبصروا به] (٩) ويصف الله سبحانه وتعالى تحققها لدى أفراد فى الدنيا فيقول عن قوم لوط وعلمهم بفحش اللواط وسوء عاقبته ، وأن هذا العلم تمكن من أذهانهم تمكنا كبيرا حتى بصروه **[ولوطا اذ قال لقومه أتاتون الفاحشة وأنتم تبصرون]**.(١٠) ، ويقول جل شأنه فى علم الكفار بحقيقة السحر والفرق بينه وبين ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم **[لاهيــة قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هــذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر وأنتم تبصرون]** (١١) أى تعلمون أنه سحر علما لا شك فيه .

ولا يليق الجمع بين الانكار والاستبصار فهــذا تعنت وغرور

---

(٨) ونكتفى بالاعتراف هنا بأن حالة التبصر تعتبر معبرا جيدا تعبر عن طريقه الفكرة الى الذكرة ومنهــا الى العبرة ، وهــذا ما لم تتدخل عناية الله فيمكن أن تجب جميع المراحل بالهداية أو تصعد الى الايمان من اى مرحلة كانت .

(٩) طـه من الآية ٩٦ .

(١٠) النمــل ٥٤ .

(١١) الأنبياء : ٣ وكذلك قال فى شان عاد وثمود [وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين] **العنكبوت ٣٨** .

واستكبار ، والقرآن يلقى باللائمة على من بلغ هذا الحد من العلم ثم لم يعمل بمقتضى علمه [١٢] وتبصره ، وأنت ترى أن الآيات التى تحدثت هنا عن قوة الادراك والعلم بالأمور المذكورة معها وقد استخدمت فيها لفظة التبصر لا تتحدث بالطبع عن قوم جاهلين ، أو عن جماعة فاقدة لكل معانى التأمل ، خالية من أدنى درجات المعرفة لكن الأفراد والأقوام المذكورين يتميزون بتحصيل معارف واضحة فى المسائل التى وردت الآيات فى سياقها من هنا كان اللوم الواقع عليهم شديداً .

ولا شك أن العتاب واللوم يتبع درجة المعرفة أو عدمها ، فلو أنكرت جماعة عن جهل ، وأخرى عن علم ، وثالثة عن استبصار فان الانكار مع الجهالة يكون أدناها لوما ، والانكار مع العلم أوسطها تعنيفا ، بينما يكون الانكار أو العصيان مع التبصر أشدها استبشاعا ، والانكار ان صاحب التبصر فى الدنيا فانه لن يصاحب نفس الحالة فى الآخرة ، بل عندما يبصرون بعقولهم ويعاينون الحقائق التى أنكروها فى الدنيا سوف يطلبون الرجوع الى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولن يستجاب لهم [السجدة ١٢ ، ق ٢٢] .

التبصر القلبى أو البصيرة :

قلنا ان التبصر العقلى حال يسلك فيه صاحبه طريق النظر ثم التفكر حتى تقوى الحقائق وتتجلى أمام الذهن فيتبصرها كأنه يراها ، واذا كان هذا المسلك النظرى فى الدين وأحكامه واعتقاده ووقف المتبصر عند حدود معرفة صدق الرسول مثلا أو معرفة بعض الحقائق التى يمكن أن توصله الى اليقين ولم ينتقل مع وضوح تلك

---

(١٢) زاد المسير ج٥ ٣٣٩ — ٣٤٠ ج٦ ١٨٣ وتفسير القمى ج٢ ٩٨ والطبرى ج٢٠ ٩٦ .

الحقائق الى الاعتقاد الصحيح ، والدخول فى هذا الدين اكتفى القرآن بأن يطلق عليه ألفـاظا مثل متبصر ومستبصر ٠

وأما اذا وصل الى تلك الحالة وتخطاها الى اليقين والاعتقاد وآمن بالشرع ، وصدق برسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالذات ، واتبع سبيله ونهجه وطريقته أطلق القرآن على المتصف بتلك الحالة أنه صاحب بصيرة أو مبصر قال سبحانه [**قل هـذه سبيلى ادعو الى الله على بصـيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين**](١٣) ، ويقول [**أن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون**](١٤) ٠

واللفظتان بصيرة ومبصر هنا يطلقان على حال المؤمنين ، ولكن يفرق بينهما من حيث التمكن فى درجة هـذا الحال وقوته ، فان ثبت المؤمن على الايمان ثباتا قويا وخلا قلبه من الهوى ، وانتصر على النفس والشيطان فيستحق لفظة البصـيرة ، وان كان ما يزال واقعا تحت تأثير الشيطان وغفلات النفس ووساوسها ، يسهو مرة ثم يعود، ويغفل ثم يصحو ، وينسى ثم يتذكر ، فهو متقلب الأحوال متلون بين التقوى واليقظة ، وبين الوسوسة والغفلة ، فعندما يغفو ثم يتوب او يستعيذ أو يستغفر تعود له حالته ويسمى مبصرا ، وهذا الصنف يجوز أن يسلك سبيل التمكن فينتقل الى الحالة الأولى وهى الراقية فيتسمى بصاحب البصيرة ٠

وأقوال المفسرين تشهد بالفرق بين الحالين ، وذلك لأن البصيرة عندهم اسم لمعتقد الانسان من الحق واليقين والحجة والبـرهان

---

(١٣) يوسف ١٠٨ ٠

(١٤) الأعراف ٢٠١ ، ولم ترد كلمـة بصيرة سوى مرتين ، مرة فى يوسف واخرى فى قوله « بل الانسان على نفسـه بصيرة » القيامة ، وكلمـة مبصر لم ترد وصفا للانسان فى غير هـذا الموضع المشار نيه ٠

الواضحين ، وأما المبصر فهو الذى يتبين مواضع الخطأ بالتفكر ويتذكر ما أمر الله به ونهى عنه فيبصر السداد ، ويدفع ما وسوس به نفسه ، ولا يتبعه نفسه ، كلما تذكر أينتهى وأقلع عما وقع له ، هذا مع وجود الفرق الا أن كلا منهما على الدين الحق ، والايمان الصحيح .

وكما يظهر من الآيتين السابقتين فان الطريق الموصل الى استحقاق حال البصيرة والمبصر لا يقتصر على العقل والتفكر وحدهما ولكن بالجمع بين السبيل العقلى والشرعى يصل الانسان الى أن من الحالين حسبما أشار ابن كثير ، وكما يؤخذ من صريح الآية الأولى والثانية ، فهما يبينان أن سبيل النبى صلى الله عليه وسلم ونهجه وأتباعه بدقة واستقامة أمور تدفع الى البصيرة ، وتجعل المؤمن متحققا بها ، وأن التقوى والتذكر وترك الغفلة مجاهدات وأذكار بها يستحق الانسان لفظة مبصر بحقائقها وشرائطها (١٥) .

وأخيرا فان الحالين موضوع الحديث يفعملن العقل والقلب معا ، فصاحب البصيرة أو المبصر قد انقدح الحق فى ذهنه وانكشفت له الحقائق واعتقدها بقلبه ، وصدقها بلبه ، وطبق ذلك سلوكا وعملا واخلاصا وصدقا .

التوافق اللفظى والمعنوى بين ملكة التبصر ومجالاتها

نعنى بهذا العنوان أنه لم يحدث من ذى قبل مع ملكة النظر والتفكر أن تسمت الآيات التى تعمل فيها أن من الملكتين باسم مجانس فى اللفظ والمعنى لواحدة منهما ، فلم تطلق لفظة المنظور مثلا على آية

---

(١٥) انظر : تفسير الطبرى ج١٢ ٥٢ ، وتفسير القمى ج١٢ ٥٧ ، والثعالبى ج٢ ٢٦٠ والقرطبى ج٩ ٢٧٤ ، ج٧ ٣٥٠ ، والكشاف ج٢ ٢٧٧ ، ١١١ وابن الجوزى زاد المسير ج٤ ٢٩٥ ج٣ ٣١٠ ، وابن كثير ج٢ ٤٩٥ — ٤٩٦ ، وتفسير البيضاوى ج٣ ٣٩ .

من الآيات ، والأمر بالنسبة للتبصر يختلف اذ تسمت الآيات الكونية والمتلوة والاعجازية بأسماء متجانسة فى المنطوق والمفهـوم مع قوة التبصر . فقال الله سبحانه عن السـماء وما فيها والأرض وما ألقى عليها وما خرج منها [تبصرة وذكرى لكل عبد منيب] ق ٨ ، وقال عن التوراة [ولقـد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون] القصص ٤٣ وسـمى القرآن بصائر فقال [قـد جاءكم بصائر من ربكم] الأعراف ٢٠٣ [هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون] الجاثية ٢٠ وقال فى شأن معجزة صـالح [وآتينا ثمود النـاقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا] الاسراء ٥٩

فما معنى تلك التسـمية ؟ وما علاقتها بالادراك فى صورته التى معنا الآن ؟ وما مغزاها ؟

أما من ناحية التسمية فان الآيات على تنوعها من كونية وشرعية واعجازية تسمى بأسماء متعددة بحسب السـياق والمعنى المراد ، فالآيات الكونية تتسمى بالآلاء وبالنعم وبالدلائل وبالعالم ، وكلام الله قرآن وكتاب مكنون أو محفوظ أو كريم أو مجيـد ، وهو ذكر ونور وبرهان ، والمعجزات تسـمى بالآيات والخـوارق الى آخره ، والمتـأمل فى ذلك يجد أن كل تسمية باعتبار معـين ولهدف خاص ، وتخضع فى الغالب للمعنى المراد فى السياق .

وفى عمق المنطقة التى نتحدث فيها ، وهى منطقة الوعى والادراك يسميها الحق بالبصائر أو التبصرة ، ولا شك أن هـذه التسـمية تتصل بالادراك من كل وجه حملنا عليه هذا الاطلاق ، وليست جميع أحوال الادراك بل تتصل بحال خاص هو التبصر .

نقول ترتبط بالادراك من كل وجه ، أى سواء كان اطلاق لفظة البصائر والتبصرة على الآيات من قبيل الحقيقـة أو المجاز ، لأنه

اذا كان الاطلاق حقيقيا ، وأن الآيات استحقت هذا الاسم لكونها دلالات بينــات وحججا واضحات فى حــد ذاتها ، ولكونها براهين مشرقة ، ومعالم للاحكام والحــدود واضــحة فان درجات وضوحها واشراقها يعين المتبصر على الوصــول الى مشتهاه الادراكى أثنــاء تأمله فيها •

وتزداد تلك العلاقة رسوخا اذا قلنــا ان اطلاق لفظة البصائر على التبصر عليها مجازى ، وذلك لأنها أنوار للقلوب ، وارشاد للعقول ، وهداية لها ، وبها يستبصر القلب والعقل ، وبهذا تكون التسمية من باب اطلاق اسم المسبب على السبب ، يعنى أنه مجاز علاقته السببية كما يقولون [١٦] •

وأما المغزى الرئيسى من وراء هذا الاطلاق فيتمثل فى كون هذه الآيات تدل بقوة على موجدها ومبدعها وتقود عقل المتبصر وقلبه الى وحدانية الله ، وذلك عندما يتبصرها بوعى ودقة ، انها ضوء مبهر فى ذاتها وهى شعاع يضىء طريق الحق لمن يريد أن يســلكه بصدق ، واخلاص ، وتجرد ونزاهة •

---

(١٦) انظــر تفســير القرطبى ج٧ ٣٥٢ ، ج١٣ ٢٩١ ، ج١١ ١٦٥ وتفســير الطبرى ج٩ ١٠٢ ، ج٢٠ ٥٠ ج٢٥ ٨٩ •

الفصل الخامس

عملية التذكر

التذكر

لعلنا على ذكر مما قلناه سلفا من علاقة التذكر بغيره من الملكات الأخرى ، وأنها تقع فى الدرجة الرابعة بعد النظر والتفكر والتبصر ، ويهمنا فى دراسة تلك الحالة أن نقف على طبيعة نشاطها ، وهل هو نشاط واع أو لا ؟ وما خصائص حالة التذكر من الناحية الدينية ، ومدى ارتباطها بالهداية والايمان ؟

والذى يتدبر آيات القرآن يجد حشدا هائلا منها قد وردت فيها تلك اللفظة بمشتقاتها حتى وصل عدد المواضع التى سيقت فيها هذه الحالة الى (٢٧٤) موضعا ، تتناول عديدا من المعانى المتفرعة من المعنى الأصلى للكلمة وهو التذكر ضد النسيان ، والتذكر بمعنى التدبر ، والذكر بمعنى الشرف ، والخطبة للنساء ، والثناء على البعض، والنيل منهم بالعيب والانتصاص ، والذكر بمعنى الاستحضار ، والتمجيد والوعظ ، والقرآن ، وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخره (١٧) .

---

(١٧) ابن فارس معجم مقاييس اللغة ج٢ ٣٥٨ — ٣٥٩ . والقاموس المحيط ج٢ ٣٥ — ٣٦ .

وبالطبع سوف لا نخوض فيها جميعها ، وانما نتناول ما له صلة بموضوع الادراك ، وما يتصل اتصالا وثيقا بالهداية والايمان .

التـذكر ضرورة ادراكية

ما دمنا نحصل على معارف جمة من خلال نظرنا وتفكيرنا وتبصرنا فأين تودع تلك المعارف ؟ وما خزانتها اننـا اذا تركناها بدون حفظ وعناية ، وتجميع سـوف تتسرب من داخلنا فـكرة تلو أخرى ، ومعرفة وراء معـرفة ، اذا لابد من وجود ملكة أخـرى واعية تكون مهمتها المحافظة الشديدة على هذه الأفكار خشية أن تضيع ، وتكون لديها القدرة كذلك على أن تسترجع وتستحضر أمام العقل والقلب ما ادخرته ساعة الاحتياج اليه ، وأن تبحث جيدا بين زوايا النسيان عن أى فـكرة قمنا فى المـاضى بتحصيلها وصرنا الآن فى حاجة اليها.

وجميع معارفنا التى اكتسـبناها فى المـاضى نعيدها بالتذكر ، لا فرق بين كون تلك المعارف لفظية أو فعلية أو أحداثا أخرى ملموسة ، أو غيرها ، ولولا ملكة التذكر ما استطعنا أن نستفيد شـيئا ما من معارفنا وخبراتنا السابقة ، ومن ثم كانت الى أقصى الحدود ضرورية.

ولا ينبغى أن نفهم من هذه السطور أن ملكة التذكر هى حافظة فحسب كلا انها حالة ادراك هامة للغاية وهى مرحلة من مراحل العمليات العقليـة التى لا يتم تصرف صائب أو حكيم بدونها ، وقـد لا يتم تصرف ما على الاطلاق اذا تصورنا عدم وجودها أو أصيب شخص بفقـدها .

أضواء على المفهوم

من الفقرة السابقة نستطيع أن نتصور معنى التذكر وحقيقته ، ولكننا لا نكتفى بهذا بل نسوق المفاهيم الاصـطلاحية لتلك الحالة لندرك الفروق بين الاستعمالات اللغوية وما تواطأ عليه العلماء ،

وأيضـــا لنتبين اتجاه القرآن في اثارته لتلك الملكة هل أثارها كما هي في اللغة العربية ســعة وانتشارا ، أو كما هي عنــد الاصطلاحيين ؟ أو أنه تميز في عرضها تميزا مستقلا ؟

لقــد أشرنا الى سعة الكلمة من حيث الوضع اللغوى فهي ضد النسيان وبمعنى الشرف والثناء والانتقاض الى آخر ما ذكر ، ولكن الاصطلاحيين كما هي العادة لايبقون اللفظة على وضعها وانما يتفقون فيما بينهم على معني يخصها ، ويتواطأون على تعريف محــدد ينقلها من اللغة الى الاصطلاح ، ثم يصير المعنى الذى نقلت اليه أمرا متعارفا عليه ، وتدخــل الكلمة به رحاب علم من العــلوم ، وتدون ضــمن مصطلحاته .

وطبقا لهذا فان الراغب الأصفهاني يعرف التــذكر والذكر بقوله [الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للانســان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة ، وهو كالحفظ الا أن الحفظ يقال اعتبارا باحرازه والذكر يقال اعتبــارا باستحضاره] ثم يبين وجهــا آخر من وجوه التعريف الاصــطلاحي فيقول [وتارة يقال لحضــور الشيء القلب أو القول] (١٨) وجاء في المعجم الوسيط أن الذاكرة [قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة واستعادتها] (١٩) ، ولا تخرج تعريفات المحدثين عن كونها قــدرة على احياء ما اكتسبه الانسان في الماضي ، أو عملية تتطلب من الفرد أن يقرر شيئا حدث من ذى قبل (٢٠) .

ولا يخفى ما بين هذه التعريفات من صلة بالمعاني اللغوية التى

---

(١٨) المفــردات ١٧٩ .

(١٩) المعجم ج١ ٣١٣ .

(٢٠) د/ عبد الرحمن عيسوى : علم النفس بين النظرية والتط ٢٠٥ — ٢٠٦ ، د/ عبد السلام عبد الغفار : مقدمة في علم النفس العام ٢٧٧ — ٢٧٨ .

تشتمل على الاستحضار ، والاستعادة ، وأن تعريف الأصفهانى أسبق زمنا ، وأدق فى بابه لكونه ربط بين ملكة الاستحضار والحفظ فى كلمات قلائل بينما يفرد لها علماء النفس صفحات متعددة . هذا بالاضافة الى أن الأصفهانى عمم التعريف فجعله شاملا لما يقتنيه الانسان من كسبه ، وما يحضر فى قلبه لأى سبب آخر ، وشاملا كذلك للمعارف الدينية والدنيوية ، بينما النفسيون لا يهتمون الا بالمعارف الدنيوية المرتبطة بحاجات الانسان العامة ، أو التربوية بصفة خاصة .

وملكة التذكر بهذه المفاهيم ظلت كغيرها من العمليات العقليـة مجهولة المكان فى بدن الانسان حتى قام الدكتور « وايلد بنفيلد » من جامعة « ماك غيـل » بكنـدا باجراء بحوث على مرضاه ابتداء من علم (١٩٥١) وقدم بعدها معلومات مثيرة عن الذاكرة ، وتلقى الضوء على مكانها فى الهيكل الانسانى .

وملخص تجاربه أنه كان عنـد اجراء العمليات للمصابين بالصرع يلمس اللحاء الصدغى لدماغ المريض مستعملا تيارا كهربائيا ضعيفا ، وفى كل حالة كان المريض يخدر تخديرا موضـعيا ، وبذلك كان واعيا تماما فى أثناء عملية السير للقشرة الدماغية ، وكان قادرا على التحدث مع الدكتور المعالج ، وقرر هؤلاء المرضى أنهم سمعوا أشياء معجبه ، وتراءى من خـلال أقوالهم أن كل شىء يستقر فى وعيهم يسـجل بالتفصيل ، ويختزن فى الدماغ ، ويمكن استعادته فى الحـاضر ، وأكد (بنفيلد) أن الخبرة التى يتحصل عليها بهـذه الطريقة تقف عندما يسحب القطب الكهربائى الذى نستخرج به الذكريات ، ويمكن أن تعاد حينما يعاد القطب هذا ، وكرر هذه التجربة مرارا فكانت النتيجة واحدة .

وقد خرج من تلك التجارب بالنتائج التاليـة :

ان الدماغ يعمل عمل مسجلة ذات أمانة بالغـة ، وان المشاعر ،

التى رافقت الخبرات الماضية تسجل كذلك مع تلك الخبرات وتكون جزء لا يتجزأ منها ، ويمكن للانسان أن يوجد فى حالتين فى الوقت نفسه ، ويكون بذلك ازدواجا داخل الخبرة وخارجها أى يختبرها ويلاحظها ، وأن هذه الخبرات المسجلة بمشاعرها المصاحبة لها يمكن استحضارها الآن ، وفى أى وقت وبنفس الدرجة من الحيوية التى كانت عليها عندما حدثت لأول مرة ، بل ويمكن عيشها من جديد ، وبعد أن تقدمت تلك النتائج قال أحد العلماء [اننى لا أستطيع تذكر مشاعرى فحسب ، ولكنى أستطيع أن أستشعر المشاعر نفسها الآن ومن جديد] وبذلك كله صاروا يميلون الى أن التذكر عملية نفسية وبيولوجية أيضا .

ومع كل ما وصلوا اليه فهم يعترفون أن الكيفية التى بها نختزن معارفنا ونستحضرها ما زالت مجهولة وان عرفنا مكانها فى الدماغ (٢١) .

وفى نهاية هذه الأضواء نحدد بوضوح مقصودنا من تناول الذاكرة بالدراسة ، فنحن لا نتناولها بنفس المفاهيم الشاسعة التى وردت بها فى اللغة ، ولا من حيث علاقتها بالتربية فحسب ، ولا كقوة نفسية مجردة كما يفعل النفسيون ، وانما نتناولها من وجهة النظر القرآنية التى تستحث كل ملكة لدى البشر على النشاط من أجل الغاية العليا التى نيطت بخلق الانسان ووجوده ، وهى معرفة الله وطاعته ، فان أعمل ادراكه وتوصل اليها فانه ينطلق فى بناء نفسه وفى جميع شئونه من تلك القاعدة الأصيلة التى عرفها ، وآمن بها .

والذى يتأمل اللفظة ، ويدور معها فى القرآن الكريم يجد أنها تشير الى اتجاه خاص بنشاطها سوف نحدده أولا بصفة اجمالية ،

---

(٢١) طبائع البشر ٤١ — ٤٧ بتصرف .

ثم نتابع الرحلة مع تلك الحالة الادراكية بتفصيل نقف على مراحلها المتنوعة .

مجمل الاتجـاه القرآنى فى اثارة التذكـر :

يميل النفسيون والتربويون الى أن ملكة التذكر تستعيد ما سبق فى الخبرة دون تدخل جديد منها ، ودون اضافة ، والانسان فى نظرهم لا يتذكر بالوراثة ، ولا يستحضر الا ما عرفه واختزنه ، ولكن التذكر فى القرآن أوسع من هذا وأدق سواء من ناحية مادة المعـرفة التى تستعيدها أم الكيفية التى تعمل بها فى تلك المـادة بعد احضارها .

أما من ناحيـة المـادة فان الكتاب الكريم لا يثـير معارف محصلة فحسب بل يثير مركوزات فى الفطرة البشرية . وذلك لأننـا جبلنا على معرفة الله ، وقد حدثنا الخالق ونحن فى أصلاب أبينا آدم بأنه ربنا ، ثم أخذ علينا العهد والميثاق بذلك (٣٢) ، وكثير ما يسوق الآيات ليطالبنا باستعادة تلك الحقائق التى فطرنا عليها ، وأن نفسح الطريق أما سيرنا بحثا عن المخـزون فى أعماقنا ، وأن نبعد الشـبه والأوهام ونحن نعبر حاضرنا الى ماضينا كى نستنقذ هذا المـاضى من النسيان ، وحتى لا يسيطر الحاضر البغيض علينا .

وبجانب استدعاء المفطورات فانه يطالب باستحضار المعـارف التى تخدم الغرض الأساسى والهدف الأسـمى من عملية التذكـر ، وبالطبع فهو لا يستحث الانسان على استدعاء كل ما لديه من معارف سابقة لأن تلك المعارف قد تتنافى مع الغـاية التى تثار من أجلهـا عمليـة التذكر ، وقد تكون مناقضة للايمان الذى هو المقصد الأسمى واذا كان الأنبياء يأتون لتصحيح أوضاع فاسدة ومعارف الأمم التى بعث فيها الرسل هى حصيلة من تلك الأوضاع فهل يعقل والحـال كذلك أن يطالبوا الأقوام باسترجاع ما جاءوا لتصحيحه ونقضه .

---

(٣٢) انظر كتابنا : الدعوة والانسان ٢٥٤ — ٢٦٨ .

ويترتب على ذلك أن يكون استرجاع ما مضى من معارف مترتبا على فرض صحته بالنسبة . ولم يترك هذا الأمر لتقدير الأمم بل نجد القرآن قد طالبهم بحوادث معينة ما جد بين الأقوام والأنبياء ومن مواقف العبر التى حدثت للمكذبين ، وسنة الله التى لم تتبدل فى الانتقام منهم ، كما بلفت نظرهم الى ما كان عليه السابقون قوة وبطشا وكيف أخذوا بذنوبهم ، وخلفوا وراءهم آثارهم شاهدة على سوء صنيعهم ، تلك الآثار والشواهد التى استقرت فى خبرة اللاحقين جيلا بعد جيل .

وأيضا فان مما يطالبهم باستعادته القرآن أن يتذكروا أصل النشأة ، والبداية الأولى التى خلق فيها الانسان وما جد له أطوار ، وأن يتذكروا مع ذلك فضل الله عليهم فى الخلقة والرزق ، ولا يكتفى القرآن باستعادة هذه أو تلك من الفكر وانما ينشىء لهم أفكارا ومواعظ جديدة ، وينشئها لهم انشاء ليتأملوها .

أقول يتأملوها لأن التذكر الوارد بين آيات القرآن ليس عملية استرجاع صامتة ، ولا هو اضافة معارف لكى تضم الى المخزون السابق ، وانما تسترجع المعارف الصحيحة من الماضى بالاضافة الى التى أنشئت فى الحاضر ، ثم يقوم الانسان بتأملها وفهمها والاتعاظ بعبرها ودلالاتها حتى يصل بذلك الى المطلوب الايمانى ، ونفس هذا المعنى ما قصده الحسن البصرى اذ قال [ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب (٢٣)] فالعودة التى يتحدث عنها ترمى الى تأمل المعارف القادمة من قبل التفكر قبل اختزانها وساعة استرجاعها ، واضافة ما يمكن اضافته من قبل التذكر ، وأما عودة التفكر على التذكر فهى فحص جديد

(٢٣) سبق النص فى الفصل الأول وحدد مرجعه .

للمخزون الفكرى السابق بعد استحضاره ، والقاء نظرة فاحصة على ما أضافته الذاكرة وهكذا تستمر العملية بينهما ، وبهذا الشكل تتضح كيفية التذكر السليمة ، وهى تختلف بالطبع عن كيفية التذكر حسب المفهوم النفسى والتربوى ، وتتميز فى المادة والكيفية .

ولننتقل الآن الى الحديث عن تفصيل الاتجاه القرآنى بالنسبة للتذكر ، وأرى أن اثارة تلك الملكة يأخذ مراحل ثلاثا واضحة فى السياق .

المرحلة الأولى : التذكر المشبع بالتأمل

أحب أن أقول ان تناول الحديث من خلال مراحل ثلاث لا يعتبر مجرد تقسيم تقتضيه ضرورة فنية ، أو هو تحكم منى ، أو فذلكة فى الترتيب ، وانما هى شىء تفرضه طبيعة السياق القرآنى ذاته ، فمن يتأمله يجده كذلك تماما ، فهناك مرحلة البداية ، تليها مرحلة التثبيت ، تليها مرحلة الرقة الوجدانية .

والمرحلة التى معنا الآن هى التى يبتدىء فيها القرآن بايقاظ تلك الملكة بأنواع متعددة من المثيرات ، هذه الأنواع هى بمثابة العوامل (٢٤) التى تعين على التذكر وتبعث عليه ، وتتمثل تلك المثيرات فى تحريك الأنبياء لتلك الملكة ، وتقديم مادة معرفية لدراستها وتأملها والاتعاظ بها والاعتبار بأحداثها ، ثم فى نهاية المرحلة يتحدث القرآن عن الصنف الذى قبل التذكر وما هو عليه من عقل جيد خصب .

---

(٢٤) يتحدث علماء النفس عن ضرورة وجود عوامل تعين على التذكر وتؤثر فيه ، وترجع الى ثلاثة عوامل رئيسية منها عوامل ترتبط بالموقف الذى حدثت فيه الخبرة السابقة ، وأخرى تترك آثارا بين الخبرة ووقت الاستحضار لها وثالثة ترتبط بوقت الاستعادة نفسه : مقدمة فى علم النفس العام ٢٨١ .

وبالنسبة لعنصر التحريك فاننا نجـد القرآن يأمر النبى صلى الله عليـه وسـلم بأن يذكر قومه على وجه الاطلاق وفى كل حالة من الاقبال عليه أو الاعراض عنه ، أى عليه أن يديم التذكير والتحريك سواء استمعوا اليه فى اهتمام أم انصرفوا عنه ولو مستهزئين [**فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون**] (٢٩) الذريات [**فذكر ان نفعت الذكرى**] ٩ الأعلى ، والمفسرون يقولون نفعت أو لم تنفع ، وحذف عدم النفع للعلم به [**فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**] ٢١ — ٢٢ الغاشية ، ولا يكفى مجرد التذكير بمرة أو مرتين بل لابد من الاكثار والادامة والالحاح الحكيم ، ومن ثم كان النبى صلى الله عليه وسـلم لا يترك مجالا صـالحا للتذكير أو مناسبة الا اغتنمها ووعظ بها ، وهذا هو سر التعبير بكلمة ذكرى ، فهى أبلغ فى التعبير من كلمة ذكر ، وتطالب بادامة ذلك وتكراره [**وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون**] ٦٩ الأنعام [**كتاب أنزل اليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين**] ٢ الأعراف، ولما كانت مهمته الكبرى هى التذكير سـمى النبى صلى الله عليـه وسلم بالمذكر ، وذلك لأنه سبب التذكير ، أو لأن القرآن نزل عليه ٠

وهناك حرية كاملة لدى المستمعين فى أن يتذكروا أولا ، أن سلطان المذكر وهو النبى صـلى الله عليه وسـلم لا يتجاوز عنصر الايقاظ والتحريك الى القهر والالزام بفـكرة ما ، ومهما كانت قوة الأسلوب الذى يذكر به ، وقوة الحجة التى يستخدمها فعنصر الالزام القسرى ليس واردا [كلا انها تذكرة فمن شـاء ذكره] ٥٤ — ٥٥ المدثر وعلى انسان أن يتدبر أمره ٠

واكتفى القرآن مع هـذه الحرية بأن ينبههم الى أنهم اذا ذكر فلا يذكرون فهم اما مسرفون أو ظالمون لأنفسهم وليحذروا نتيجـة هذا الصنيع [**قالو طائركم معكم ائن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**] ١٩ يس [**ومن أظـلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنهـا انا من**

المجرمين منتقمون] (٢٥) ٢٢ السجدة .

ولا شك أننا لو جمعنا هذه الخيوط كلها من تذكير مستمر ، والحاح يتخذ وراء من نبى فطن ، ومن اتاحة الفرصة الكاملة للمستمعين ان يراجعوا أنفسهم مرة بعد مرة من الذكرى ، ومن تنبيههم الى انهم لا يظلمون الا أنفسهم باعراضهم ، وأنهم سوف يلقون الجزاء المترتب على آثار الاعراض لا الاعراض فى حد ذاته ، اذ أن الله لم ينتقم فى الدنيا من قوم أعرضوا عن نبيهم مع عدم ايذائه ، وايذاء من آمن به ، لكن انما ينتقم من الذين أعرضوا ورتبوا على الاعراض آثارا أخرى ضارة بشخص الرسول أو بحياة وأموال من معه — وأما فى الآخرة فالكل محاسب بلا ريب ، اننا لو جمعنا كل هذا صح أن يكون عنصرا محركا لملكة التذكر الى أبعد الحدود ، ولقد بلغ بهذا العنصر تأثيرا أن كان مجرد رؤية النبى صلى الله عليه وسلم بدون خطاب يثير التذكر فى نفوس قومه ، ويتناولونه بالتعليق أو يتناولون دينه بالذكر والاستحضار ما بين منكر بشدة ، ومعرض فى صمت ، وقائل دعوة حتى ننظر ماذا يكون أمره ، المهم أن موضوع الدين كان مثار التذكر ومبعث عمل تلك القوة فى النفوس ، وهذا هو المطلوب أولا من مداومة التذكير .

وننتقل الآن الى المادة التى قدمها النبى صلى الله عليه وسلم أمام البشر ، اذ التذكر مبنى على استحضار شىء أو تأمل شىء ، فالموضوع المدرك ، وأهميته ، وقوته ، ومدى تأثيره ، كل هذه أمور تعمل عملها فى بعث ملكة التذكر ، والملكات العقلية بصفة عامة ، والله لم يترك مسألة الموضوع هذه للنبى صلى الله عليه وسلم وانما

---

(٢٥) وانظر الانعام ٤٤ ، الكهف ٥٧ ، الصافات ١٣ وراجع تفسير القرطبى ج٧ ص١٥ ، ١٦ ، ١٦١ ، ج٩ ، ١١٣ ، ج١٢ ٣٥٥ ، ج١ ٧١ ، ج١٩ ٩٠ ، وكذلك ج٦ ٤٢٦ ، ج٧ ١١ ج١٤ ١٠٨ ج١٥ ١٧ ، ج١١ ٢٤٣ ، ٢٥٨ ، ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ .

حددها له تحديدا قاطعا ، فكان أن وجهه الى القرآن ككل ليذكر به ، يذكر بدقته ، وإعجازه ، وبراهينه ومواعظه ، وما يحمل من وعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وكل الآيات التى حملت الأمر بالتذكير عنت الذكرى بالقرآن وبالتالى فالقرآن قوة هائلة لاثارة ملكة التذكر فى النفس ، وترقيتها ، وجذبها الى ساحة الايمان بالله وحده .

وأثناء التذكير بالقرآن ركز السياق على أمور هامة ينبغى الوقوف عندها قليلا لنتبين طبيعة عمل الملكة التى هى محل الحديث ، وهل نشاطها استحضارى فحسب أو استحضارى تأملى اعتبارى .

١ — استحضار المعارف للعبرة :

فى هذه النقطة نشير الى أن كلمة التذكر والذكرى جاءت بمعنى الاستحضار ، واعادة حوادث ماضية كى يستفاد منها فى الموقف الحاضر ، وأبرز ما جاءت فى سياقه هو الحديث عن الأنبياء السابقين ، فبعد أن انتهت سورة هود بما حملت من أخبار الأنبياء ، وما فعله الأقوام معهم ، وكيف واجه الرسل شناعات الأمم وصبروا على ايذائهم قال الله لنبيه [**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين**] ١٢٠ هود .

وعرضت سورة القمر لنفس الأحداث ، فذكرت قصة نوح ، وعملية الاغراق بالطوفان ، وابراز الآية فى ذلك ، وكيف بقيت السفينة قرونا طويلة تذكرة وموعظة ، كما عرضت لأحداث عاد وما فعله مع هود وأحداث ثمود مع صالح ، وما ارتكبه قوم لوط من فواحش ، وكذلك أخبار فرعون مع موسى ، وفى كل مرة يطالب القرآن باستحضار هذه الحوادث من الماضى السحيق أو القريب لكى يضعها الناس أمام تأملاتهم فيعتبروا بها ويدركوا بما فيها يقول لهم [**ولقد تركناها آية فهل من مدكر**] ١٦ ، ثم يكرر عبارة واحدة مركزة اذ يقول

عقب كل حادثة [**ولقــد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**] وفى غير هذه السورة اذ أذكر قصة أيوب أردفها بطلب التــذكر (٢٦) وبين أن التذكير بأيام الله طبيعة الأنبياء فقال [**ولقــد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله**] ٥ ابراهيم.

وبين المفسرون أن عمليــة استحضار الحوادث المــاضية التى تواترت أخبارها ، أو شــوهدت آثارها انما يقصــد بها لفت نظر المخاطبين من المنكرين الى ماحدث للسابقين الذين كانوا على طريقتهم، وما ساقه الله لهم من ويلات جزاء ما اقترفوا ، وأيضا بيان للمؤمنين أنه لا بد من أن يصبروا فتلك ســنة أرباب الدعوات وطريق أهــل الحق ، كى يتحملوا ما يجــدونه من أقوامهم فى بسالة ونجاعة . ولكن عمليــة الاستحضار لهذه الحوادث واستدعاءها ليست مسوقة لمجرد العلم ، بل لكى يعملوا فيها العقول من جديد ، وكى يتذكروها مع وعى وتأمل دقيق ، وأعجبنى تعليق القرطبى على ما جاء فى سورة القمر خاصة تكرار كلمة هل ، قال هذا المفسر المــالكى العظيم .

[فهل من طالب خبر وعلم فيعــان عليه ، وكرر — الآيات — فى هذه السورة للتنبيه والافهام ، وقيل ان الله اقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم ، وقصص المرسلين ، وما عاقب به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان فى كل قصــة ونبأ ذكر للمستمع لو أدكر ، وانما كرر هذه الآية « فهل من مدكر » لأن هل كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، واللام من هل للاستعراض ، والهاء للاستخراج] (٢٧).

أرأيت ما نذهب اليه من أن ملكة التذكر كما هى فى القرآن ليست استعادة مجردة من الوعى كيف أبرزه القرطبى فى فذلكة لفظية ومعنوية

---

(٢٦) الانبياء ٨٣ — ٨٤ ، ص ٤١ — ٤٣ .
(٢٧) الجامع لأحكام القرآن ج١٧ ١٣٤ .

جميلة وعميقة ، ان كل آية حملت كلمة التذكر تنطق بأن تلك القـوة عملية تذكر ضد النسيان ، وضد الغفلة ، وضد الجهالة ، وهى عملية مراجعة وفحص لـمـا يعرض من أفكار حاضرة ، وتأمل لـمـا يستعاد من معرفة سابقة (٢٨) .

٢ ـ التذكـر تأمل وموازنة :

وهـذا الموقف هو أهم موقف يرد بين ثنايا الحديث عن المرحلة الأولى من مراحل اثارة التذكر ، وذلك لأن المتذكر يمتاز بالتأمل الجيد فى أحداث تحيط به أو يلمسها بنفسه ، أو تمسه مسا مباشرا ، والذاكرة مع تلك الأحداث لا تستعيدها وانما تعيشها ، ولا تستدعيها وانمـا تشاهدها ، أو تعلمها علما قويا حتى لكأنما تعانيها ، والقرآن يطالب بصراحة أن نجمع بين التأمل والتفكر فى حالة واحـدة هى التذكـر ، وتتلاحم الذاكرة مع المفـكرة فى حال تأملى مشحون .

ويعرض الله على ملكة التـذكر مسألة الخلق فيقول [**ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلك الله ربكم فاعبـدوه أفلا تذكرون**] يونس ٣ ، [**الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ثم اسـتوى على العـرش ما لـكم من دونه من ولى ولا شـفيع افلا تتذكرون**] ٤ السجدة [**قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قـل افلا تذكرون**] ٨٤ ـ ٨٥ المؤمنون [**ومن كل شىء**

---

(٢٨) وينبه القرآن الى ضرورة الاستحضار والوعى والايمـان قبل ان نتذكر احوالنا وما قدمناه ونحن بين يدى الله وساعتها لا ينفـع شىء [فستذكرون ما اقـول لكم وافـوض امرى الى الله] ٤٤ غافـر [انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار] ٤٧ ص وعمليـة الاستحضار فى الآخرة تأمل يزيد صاحبه حسرة على ما فقد فى آخرته جزاء ما فاته فى دنياه.

خلقنا زوجين لعلكم تذكرون] ٤٩ الذاريات [وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا] ٦٢ الفرقان [أو لايذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا] ٦٧ مريم .

وايضا فانه يذكر البشرية بكونه خالقا ورازقا [يايها النـاس اذكروا نعمة الله عليـكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السـماء والأرض لا اله الا هو فانى تؤفكون] ٣ فاطر ، ويذكر بنى اسرائيل بالنعم التى حباهم بها ، وبالعهود والمواثيق التى اتخذها عليهم(٢٩) ، كما يذكر المؤمنين ببعض نعمه عليهم حتى يثبتوا على الايمان ويزدادوا يقينـا (٣٠) .

ويضع الانسان فى موقف التمييز والحكم فيقول [مثـل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون] ٢٤ هود [أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون] ١٧ النمل .

أن اثارة هذه المسائل من الخلق ، والرزق ، ومن التفرقة بين اله قادر وشركاء لا يفعلون شيئا ووضـعها أمام الذاكرة يعنى أن تلك الملكة لديها قدرة على المعرفة ، وتستطيع أن تتأمل الأشياء وتعرف أن الذى خلق وقدر ، وأنعم ورزق هـو المستحق للعبادة وحده ، ووردت بين ثنايا عبادات المفسرين ألفـاظ التدبر والعلم والاعتبـار والمعرفة والاستدلال ، وذلك أثنـاء تناولهم لمعانى التذكر الواردة فى الآيات السابقة (٣١) ، مما يدل على أنهم فهموها ملكة قادرة على ذلك ،

---

(٢٩) الآيات : البقـــرة : ٤٠ ، ٦٣ ، المـائـدة ٢٠ ، الأعراف ٦٩ ، ٧٤ .

(٣٠) الاحزاب ٩ ، ٣٤ والبقرة ٢٣٩ ، آل عمران ١٠٣ .

(٣١) انظر الكشاف ج٣ ٥٤ ج٢ ٤١٨ وابن كثير فى التفسير ج٢ ٤٠٦ ج٣ ٢٥٣ ، ٤٥٧ ، ١٣١ ، ٥٤٧ ، ج١ ٨٢ — ٨٣ ، والقرطبى فى التفسير ج٨ ٣٠٨ ، ج١٢ ٢٥٣ ج١٤ ٨٦ ، ج١١ ١٣١ ج٧ ٥٤ ، ج١٣ ٦٦ . ج١٤ ٣٢١ — ٣٢٢ ج١ ٣٣١ ج٦ ١٠٨ — ١٠٩ ج١ ٤٣٧ .

وأنهـا أصح ما توصف به فى معارفها بأنهـا أقرب الى الحضـور العقلى أثناء تأمل ما سبق عرضه من الآيات والآلاء .

وبعبارة أخرى ان القرآن عندما يعرض على قوة التذكر الآيات الموضحة لا يطالبها باستحضارها فقط بل يضعها أمام العقل الانسانى فى موقف جديد من التأمل والاتعاظ . وفى الوقت نفسه لا يحيلة فيها على قوة عقلية أخرى بأن يقول له فكر ثم تذكر ، ولكن يطالبه بانشاء التذكر والمعرفة فى نفسه بناء على رؤيته أو علمه بتلك الحقائق .

تفرقة دقيقـة

وقد يقال اذا كانت ملكة التذكر تأملية فما الفرق بينها وبين ملكة التفكر المختصة بتلك العملية أساسا والتى سبق أن أوضحنا أن ملكة التذكر تعتمد عليها ؟

نعم هذا سؤال ينبغى أن يرد على أذهاننا ونحن نتابع مرحلة التذكر فى موقفها التأملى ، خاصة وأن المفسرين يعطون لتلك الملكة ما يعطونه للتفـكر ، وآيات القرآن وضعت الحقائق الكونية والآيات المنزلة والآلاء ، ومشـكلة الخلق أمام التـذكر كما قدمتها للتفكر ، وكانت المجالات التى تعمل فيهما كل منهما واحدة على وجه التقريب ، وهـذه الأمور جـديرة بأن تجعل السـؤال يخطر على الأذهان ، واذا سلم بصـحة السؤال كان التذكر عين ملكة التفكر ، ومهمتهما واحدة ، ونحن قلنـا فى البداية انهما يتمايزان .

نعم هما يتمايزان عند التحقيق ، ولكن قبل أن نوضح درجـة التمايز ينبغى أن نلم بطرف يسير عن طريقة القرآن فى عرض الحقائق بصورة اخبارية ، أو فى عرضها أمام الادراك الانسانى ليتأملها ، انه عندما يخبر عن شىء ، أو يثير الانتباه نحـوه لا يسـير بنفس الطريقة التى نتبعها نحن فى كتاباتنا ، بمعنى أنه ينتهى من نقطة ليبدأ

أخرى ، ويحيل فى المستقبل على ما مر فى الماضى . كلا انه يعرض القصة فى أكثر من موقف ، والحكم فى أكثر من صورة له ، والعبرة فى ألوان متعددة من الصيغ ، وبالنسبة للملكات الانسانية الواعية فانه لا يفصل بينها فصلا كليا لأن الانسان داخل وعيه ليس مصابا بالانفصام فى قواه العقلية ولكنها مترابطة على نحو ما بينا سلفا ، وبالتالى فاعتبار التداخل بينها أمر قائم ومحتمل ، والأنشطة قد تتشابه أحيانا أو هكذا تبدو لنا .

والقرآن أيضا لا يتعمد التفرقة بين الملكات ، ولا يحيلك فى موقف ادراكى على موقف ذهنى سابق ، فلا يطالبنا ونحن فى حال التفكر أن نرجع الى ما لاحظناه بالنظر ، ولا ونحن فى حال التبصر أن نعود الى ما انتهينا اليه فى التفكير وكذلك لا يلفت نظرنا اذا طالبنا بالتذكر أن نستعيد ما تم وعيه بالنظر والتفكر والتبصر ، بل نراه يطالب كل ملكة أن تعمل على حدة وكأنها القوة الوحيدة التى يملكها الانسان وتقدر على الادراك والمعرفة ، وذلك حق على اعتبار قوة الترابط الفكرية بين القوى العقلية فى الانسان من جهة ، وأن أى واحدة لو قامت بنشاطها على وجه مرضى يمكن أن تفعم القوى الأخرى بما توصلت اليه ، ولذلك فانه فى الموقف الذى يخاطب فيه أى ملكة واعية يخاطبها بتركيز شديد كى يؤثر عليها فيكون قد أثر على بقية الجوانب .

وما دام الأمر كذلك فانه لكى نكتشف الفروق الدقيقة فانه يلزم أن نقوم بملاحظات عميقة فى الآيات التى حملت الحديث عن كل ملكة ، ولقد فعلنا ذلك قدر الجهد فى الملكات السابقة ، وبالنسبة لقوة التذكر فانها كما بينا تستحضر المعارف وتتأملها وتميز وتعلم ، وتقترب من التفكر أو التبصر ، ومع ذلك تبقى هناك فروق واضحة بينها وبين ما سبقها .

وأهمها أن الله سبحانه عندما ساق الآيات الكونية ، وآيات النعم

وعرضها على قوة التذكر ، وشممنا منها المطالبة بالتأمل والتفهم انما ساقها بطريقة تختلف عن تلك التى ساقها بها مع النظر والتفكر مثلا ، فهناك يطالب كل قوة أن تتأمل الكون ، وتتدرج فى التأملات كى تنتقل منه الى مبدعه ، ومن ثم تكون قوة التفكر قادرة على التأمل والاستدلال واصدار الأحكام ، وهى قوة تفهم الكون بما فيه ، وتصعد منه الى ما وراءه ولم يوجد هذا اللون بالمرة مع ملكة التذكر ، وسياق الآيات التى ذكرناها توضح لك ذلك ، فانها جاءت كلها تقريبا تخبر بأن الله خالق ورازق ، وأن غيره من الشركاء عاجزون ، ولو سألنا الانسان المشرك عن ذلك لاعترف بتلك الحقيقة ، ولو استشهدنا بنى اسرائيل أو المسلمين عن النعم المسوقة لأخبرونا بصدق هذا الحديث ، وبالتأمل فليست هناك مطالبة باثبات ألوهية الله ، والمقصود الرئيسى أن تقوم ملكة التذكر بتأمل استحقاق الخالق للعبادة طالما أنه المتفرد بالخلق والرزق .

وأظن أن الفرق واضح بين ملكة تتأمل الكون بسننه ونظامه كالتفكر ، ولها قدرة على الاستدلال والحكم ، وبها تثبت الألوهية الواحدة ، وهى مطالبة بذلك ، وبين أخرى مهد لها السبيل بواسطة الملكات الأخرى أو بالاخبار الالهى ، وقدمت اليها المسائل مسندة الى الفاعل ، ويبقى عليها أن تتذكر ، وتنتقل الى الاقرار والتصديق والعبادة لله وحده ، وهذا بالضبط هو لب النشاط لملكة التذكر .

والمتتبع للآيات التى وردت فيها لفظة التذكر يتحقق من صحة ما قلناه ، فكلها جاءت تبين نسبة الأشياء الى الله ، والآية الوحيدة التى قيل فيها [لمن الأرض] جاء الجواب عقبها « سيقولون لله » أى أنها موجهة الى جماعة مشركين يعتقدون أن الله خالق ، ويدينون بتوحيد الألوهية ، ويبقى عليهم أن يتذكروا كى ينتقلوا من الشرك الى عبادة الله وحده ، ومن هنا يكون الطريق ممهدا كما سلف أمام تلك الملكة .

وطبقا لهذا فان الأمر لم يتوجه الى ملكة التذكر كى تتأمل الكون على غرار ما صدر الى النظر والتفكر ، رصيغة الأمر التى جاءت مع القوة التى معنا نبهت الى تذكر النعم والآلاء ، أو الى ذكر الله كثيرا ، وغالبا ما كان الأمر للمقرين بالألوهية من بنى اسرائيل ، أو للمؤمنين بالله ورسوله من المسلمين ، وهـذا القـدر كاف فى تحقيق التمايز بين هذه الملكة وغيرها .

ولأن التذكر على تلك الطبيعة ، وأنه المعبر الى منطقة الايمان ، وأن كثيرا من آياته حدثت المؤمنين وحدهم دخلت لفظة أوعظ ، والاتعاظ والموعظة والاعتبار (٣٢) فى تفسير كثير من مشتقات التذكر .

٣ ـ الاعتبارات التى تتحقق بها ثمرة التذكـر :

نعم التذكر هو المعبر الذى ندخل منه ساحة الايمـان ، وهو الحالة الادراكية التى تستفيد من جميع الحالات السابقة كالنظـر والتفكر والتبصر ، وبها يتخلص الانسان من بقيـة الشوائب التى تعلق بذهنه ، وتأمل التذكر ليس هو الاستدلال ولكنه مبنى على ما ثبت به أو بالخبر ، واذا كان حال تلك الملكة على هذا النحو فماذا ينبغى أن يتوفر لها من اعتبارات حتى تنجز الخطوة الأخيرة توصلا الى الهداية ، وحتى تقطع آخر عقبة تحجب عن الايمان .

اننا نلحظ من خطاب القـرآن لقوة التذكر أنها حالة أرق من سابقتها ، وأن الأسباب الكفيلة بتحقيق الحضور مع المطلوب الايمانى قد أعدت ، وبقى أن يتأمل الانسان فى فطنـة ، وأن يفهم فى خشية ، ولذا وضع القرآن الخيوط الأخيرة لامكان تلك الملكة من أن تنجز مهمتها الكبرى فى الوصـول الى التصديق ، وانحصرت تلك الخيـوط أو الاعتبارات فى أربعـة أمور .

---

(٣٢) أنظـر تفسـير القرطبى ج٧ ٣٦ ، ١٣٧ ، ج١١ ٢٥٠ وغيـر هـذا كثـير .

الاعتبار الأول : استحضار الوعى ذاته :

يختلف الاستحضار هنا عن الاستحضار المشار اليه سلفا ،
لقد كان الأول استحضار المعارف المتجمعة لدى الانسان وها هنا
استحضار الوعى الانسانى نفسه بآلاته القلبية والحسية ، ومعنى
استحضاره تهيئته تهيئة كاملة ، وأن يكون فى يقظة تامة مع ما يلقى
عليه من معانى القرآن أو الآيات أو المواعظ وبدون هـذا الاعداد
لملكات الوعى لا تحقق ملكة التذكر ثمرتها ، والى هـذا يشير قوله
سبحانه [**وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى
البـلاد هل من محيص ، ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد**] (٣٣) .

مادة المعـرفة السابقة موجـودة هى العلم بما حدث للأقوام
السابقين من اهلاك ، وقد كانوا أرباب بطش وقوة ، فتشوا وابحثوا
ستجدون تلك هى سنة الله مع خلقه ، استحضروا تلك الحالة وغيرها
من المعارف واستعيدوا صورها وأحداثها وأسبابها ونتائجها ، وضعوها
أمام الأذهان ، أو سيروا اليها مسافرين لتعاينوها ، واعلموا أنكم مهما
استجمعتم من معارف ، وطلبتم من خبرات ، وحققتم من أدلة فلن
تتذكروا الا اذا أعددتم ملكات الوعى وأحضرتموها فى يقظة تامة ،
بحيث تفتحون الأذن فى اصغاء تام ، ويتيقظ القلب ، وتتقد الفطنة ،
وبذا يكون كل شىء مهيئا ، المـادة العلمية ، وملكات الفهم فيهـا ،
فان تم ذلك استطاعت ملكة التذكر أن تحقق نتائجها ، وأن تجتـاز
العقبات النهائيـة .

ولنستمع الى البيضاوى وهو يشرح المطلوب ، يقول : [لمن كان
له قلب ، أى قلب واع يتفكر فى حقائقه وألقى السمع أى أصـغى
لاستماعه ، وهو شهيد حاضر بذهنه ليفهم معانيه ، أو شاهد بصدقـ

---

(٣٣) ق ٣٧ .

القرآن — أو الآيات المسوقة — فيتعظ بظواهره . وينزجر بزواجره ، وفى تنكير القلب وابهامه تفخيم واشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولايتدبر كلا قلب] (٣٤) خاص أو معد لذلك .

ويبرز كل من القرطبى والزمخشرى وابن كثير ضرورة احضار القلب والسمع والفطنة والا فكأنه لا قلب له ولا سمع (٣٥) ، وكأنه كالغائب ، فحالة الحضور الادراكى مع الحضور المعرفى لا تتحقق الا بالشكل المنوه عليه لدى هؤلاء العلماء ، وحالة التذكر لا تنتقل من المادة العلمية الى العبرة واليقين بالله الا باستجماع كل هذه الأحوال .

الاعتبار الثانى : احضار الوعى هو لب الادراك :

والقرآن الكريم يشير الى أن أى انسان عندما يطبق الشرطين المذكورين من استجماع المعرفة وقواها فى يقظة ثاقبة يعتبر حينئذ من أولى الألباب ، أى أنه انتقل من حالة النظر العادية ، والتفكر العام الى حالة خاصة يحصر فيها معارفة ، ويواجهها بكل ملكاته الحاضرة والواعية جداً ، وكأننا به وقد راح فى استغراق تأملى شهودى ، استحوذت عليه علومه ومعارفه السابقة واللاحقة ، وغاصت فيها قواه العقلية كلها متضافرة وأضحى لا يتأمل المقدمات والقضايا ، وانما يعاين النتائج والآثار ، ويركز فيها القلب والحس ، وكل عين باطنة أو ظاهرة ، لقد طرح قشور التفكير ، وقشور التعقل ، واستبدلها بلب الادراك وخالصه ، وفى هذه اللحظة يكون قد وصل الى جوهر عملية التذكر ، ويرجى من حالته أن تصل الى المطلوب .

---

(٣٤) انوار التنزيل ج٥ ٦٤ .

(٣٥) الكشاف ج ٤ ٢٥ ، والقرطبى فى التفسير ج١٧ ٢٣ ، وابن كثير فى التفسير ج٤ ٢٢٩ .

نستمع الى بعض الآيات التى عبرت عن قصر التذكر على من تلك الحالة والكيفية فيقول جل جلاله [**يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب**] (٣٦) [**هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب**] (٣٧) [**أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الألباب**] (٣٨) [**أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب**] (٣٩) • الى غير ذلك من الآيات •

وغالب هذا السياق جاء بصيغة القصر ، أى قصر التذكر على أولى الألباب ، وهم فئة لا شك أرقى من أرباب العقول العادية ، فلا ينبغى أن نسير مع القرطبى فى تفسيرها بأنهم أصحاب العقول ، ولا أدرى كيف فسر اللب بالعقل فى كل آية وردت فيها اللفظة الأولى وهو يعلم أن الله قصر التذكر على أولى الألباب ، أو أخبر أن الذكرى ينتفع بها هؤلاء دون غيرهم ، فهم وحدهم الذين يتذكرون ، بينما لا يتذكر كثير من الناس وما زالت عقولهم فى رؤوسهم ، فليس كل عقل لبا بل كل لب عقل وزيادة ، والتذكر من هؤلاء حاصل للمؤمنين وغيرهم وممن أكد على أن اللب ادراك خاص وأرقى من مطلق ادراك العقل الزمخشرى الذى يرى أن أولى الألباب هم [الحكماء العلام

---

(٣٦) البقرة ٢٦٩ .
(٣٧) آل عمران ٧ .
(٣٨) الرعد ١٩ .
(٣٩) الزمر ٩ وانظر ايضا ص ٢٩ ، ٤٣ ، الزمر ٢١ .

العمال] وأنهم الموصوفون بالقاء الذهن وحسن التأمل (٤٠) ، ويعتبر الراغب الأصفهاني أدق من عبر عن الفرق بين حال اللب وحال التعقل اذ يقول [اللب العقل الخالص من الشوائب ، وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الانسان من معانيه . وقيل هو زكى من العقل ، ولهذا علق الله تعالى الأحكام التى لا يدركها الا العقول الزكية بأولى الألباب] (٤١) مثل الحكمة والتقوى والتذكر .

وعلى الرغم من أن المعاجم اللغوية تشير الى المعنيين ، أى العقل أو خالصة(٤٢) الا أنه ينبغى أن ينصرف اللب الى الخالصة فى مسألة التذكر الموصل الى الايمان ، ويكون الاستخدام القرآنى قد قصره على تلك الحالة وحدها ، والمشاهدة قاضية بالقصر لأن كثيرا ممن يحملون عقولا بالمعنى العام لم يتذكروا ولم يؤمنوا ، ومما يدل على أن اللب هو الخالص وأن التذكر مقصور على تلك الحالة بعينها ما جاء من استعمال كلمة « أولى الألباب » ولم يقل مثلا « انما يتذكر الألباء » جمع اللب ، بل استخدم مع الألباب « أولو » التى تفيد استحقاقهم تلك الدرجة من التعقل الراقى كأنهم ذوو الأفهام . وأصحاب الفطن دون غيرهم ، يقول العقاد [مااللب الذى يخاطبه القرآن وظيفته عقلية ، ويتعظ بالذكر والذكرى ، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ، ولا يرتقى الى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن ن القول] (٤٣) .

---

(٤٠) الكشاف ج١ ١٦٣ ، ج٢ ٢٨٥ ، ٤٢٧ ، وتفسير القرطبى ج٣ ٣٣١ ج٤ ١٩ ج٩ ٣٠٧ ج٥ ١٩٢ ج١٥ ٤٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ .

(٤١) المفردات ٤٤٦ .

(٤٢) انظر المعجم الوسيط ج٢ ٨١١ .

(٤٣) التفكير فريضة اسلامية ١١ — ١٢ .

ومن الجـــدير بالذكر أن استحصار ملكة اللب فى التذكر يوصل الى الايمان عنـــد المنـــكرين أو المشركين . كما يوصـــل الى حالات وجدانية أرقى عند المؤمنين مثل التقوى وغيرها .

الاعتبار الثالث : التذكر مع الخشية والانابة :

اذا قلنـــا فى الاعتبار الأول انه يلزم لكى نتذكر تذكرا جيـــدا أن نستحضر الوعى بملكاته العقلية والحسية ، وقلنـــا فى الاعتبار الثانى ان استحضار تلك الملكات هو لب العملية الادراكية وخالصها فاننا نقرر فى هذا الاعتبار الذى معنا أنه لكى تتجمع جوانب الانسان ونلتقى على غاية واحـــدة هى احداث التـــأثير فى النفس البشرية كى نتذكر وتعتبر فانه لابد أن تنضم العاطفة والوجدان الى جوانب التفكر والتعقل واللب ، ومظهر هذا الانضمام يكمن فى الخشية والانابة ، حيث بين القرآن أن التـــذكر لا يحصل بدونها ، وهو يعنى ضرورة تلاقيهما مع ما سبق من استحضار المعارف واعداد ملكات الوعى كلها ، عندئذ يكون الجو كله مهيأ لايجاد التأثر المطلوب والانتقال الى الايمان بالنسبة للكافرين أو زيادة الرقة والاتعاظ بالنسبة للمؤمنين .

ولنصغ بقلوبنا لحظة واحدة الى ابراز القرآن لضرورة انضمام الوجدان لاتمام عملية التذكر يقول المولى سبحانه [**طه ما أنزلنـــا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى**] أو سورة طه ، [**هـــو الذى يريكم آياته وينزل لكم من الســـماء رزقا وما يتـــذكر الا من ينيب**] [٤٤] ١٣ غافر .

ان الكتاب الكريم يقـــدم للنفس البشرية آيات منزلة ، وكونية فى الأرض والسماء ، وتلك هى مادة التذكر دائما ، ثم يطالب الانسان

---

(٤٤) وانظر الآية ٨ من سورة ق .

أن يتأملها طبقا لشرائط التذكر وضروراته المبينـة فى الاعتبارات السابقة ، ولكنه يدعو الى أمرين : الخشية والانابة .

وكان من الممكن أن نظن أنهما يختصان بالمؤمنين ، وأن الحالة واردة فى شأن من عصى منهم ويريد الرجوع الى الطاعة ، لولا أننا رأينا المفسرين يلمحون أنها خشية من العظمة الالهية تقتضى الرجوع من الكفر الى الايمان به وحده . وهى انابة من الانكار والشرك الى التصديق والوحدانية ، يقول البيضاوى فى الآية الأولى : هو الذى يريكم آياته الدالة على التوحيد ، وسـائر ما يجب أن يعلم تكميلا لنفوسكم ، وهو الذى ينزل لكم من السماء أسباب الرزق كالمطر مراعاة لمعاشكم ، وما يتذكر بالآيات التى كالمركوزة فى العقول لظهورها ، المغفول عنها للانهماك فى التقليد واتباع الهوى الا من أناب بالرجوع عن الانكار والاقبال على هذه الآيات والتفكر فيها فان الجازم بشىء لا ينظر فيما ينافيه .

ويقرر كل من الزمخشرى وابن كثير ضرورة التفـكر فى الآيات والاعتبار بها شريطة أن يرجع المتأمل الى الله فان المعاند لا سبيل الى تذكره واتعاظه (٤٥) .

ونفس الشىء يقال فى الآية الثانية فيجمع من ذكرنا من المفسرين على أن القرآن لا يتذكره الا من فى قلبه خشية ورقة ، يتأثر بالانذار ، أو لمن علم الله منه أنه يخشى عظمته ، فهذا هو الجائز أن ينتفع بآيات الله (٤٦) ، والتركيز على الجانب الشعورى العاطفى يفيد أن ملكات الوعى وحدها قـد لا تفى بالغرض الأسمى وهو الهداية ، ومن ثم

---

(٤٥) انظر انوار التنزيل : ج٥ ٦١/٣٦ وتفسير ابن كثير ج٤ ٧٣ ، ٢٢٣ ، والكشاف ج٢ ٣٦٤ والقرطبى ج١٥ ٢٩٩ ج١٧ ٦ .

(٤٦) الكشـــاف ج٢ ٤٢٧ ، والبيضـــاوى انوار التنزيل ج٤ ١٨ والقرطبى ج١١ ١٦٩ .

يلزم أن يشحن الله كل قوى الانسان الواعية والعاطفية ، واجدة تدرك وتدلل وتتأمل وتستحضر ، وأخرى ترق وتخشع وتفيء الى رحاب الحق جل جلاله ، فان غلظت قوة جاز أن تشف أخرى ، وان تعثر جانب جاز أن يدفع جانب آخر . وباستيفاء أركان التذكر تتحقق الهداية ان شاء الله .

المرحلة الثانية : تثبيت حالة التذكر مع الحضور :

اذا وصلنا فى المرحلة الأولى من التذكر بجميع شرائطه واعتباراته الى الايمان لمن وفقهم الله سبحانه وتعالى الى ذلك فهل نترك تلك الملكة دون ايقاظ مستمر ، واحياء لها وللملكات معها ؟ كلا ان القرآن الكريم قد سن من الأحكام ما يجعل الانسان فى حالة تيقظ ايمانى مستمر لو استقام على شرع الله وطاعته ، ففرض من العبادات ما يثبت ايمان العبد ويقويه ويضفى النفس ويشففها ، وبالنسبة للملكة التى معنا فانه قد أثارها الى موضوع الايمان وهو الحق جل جلاله بحكم يتصل طبيعتها ، تلك الطبيعة القائمة على الاستحضار والتأمل والشعور مع الرقة ، وأظن أن كلا منا يعلم كم حثت الآيات القرآنية على كثرة ذكر الله ، أو ذكر الرب ، أو اسم ربك حسب الصيغ الواردة فى ذلك .

وفى تلك المرحلة الثانية لا ينهى القرآن الكريم عن حث الذين آمنوا على الذكر كثيرا ، وفى كل حال من القيام أو القعود ، أو حال كوننا على الجنوب ، وسواء كنا فى حال عبادة خاصة ، أو فرغنا منها ، ولنأتس فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يديم الذكر لا يفتر ، وليكن ذكرنا لله أشد لآبائنا ويزيدنا المولى ترغيبا فى ذلك فيخبرنا أنه يذكرنا بالمغفرة والرحمة كما نذكره ونشكره ، واذا نسينا أو غفلنا أو ظلمنا أنفسنا فعلينا أن نذكر عظمته واطلاعه علينا وعلمه بنا ، وعقابه وجبروته حتى نعود اليه بالتوبة والاستغفار ، وينبغى أن نكون على حالة من التواضع والسكينة والصدق والاخلاص .

والتبتل ونحن نذكره سبحانه (٤٧) .

وعندما نتجول قليلا فى عبارات المفسرين نجـد أنهم يقدموا لنـا نصائح تخدم ملكة التذكر فى علاقتنا بالله سبحانه وذلك عن طريق الذكر ، وتثبيته لمـا صدقت به القلوب يقول القرطبى [الذكر اسـم مشترك ، فالذكر بالقلب ضد النسيان ، والذكر باللسان ضد الانصات ، وذكرت .. بلسانى وقلبى ذكرا واجعله منك على ذكر بضم الذال أى لا تنسه] والذكر بالقلب مضموم الذال ، وباللسان مكسورها كما جاء عند الكسائى .

ويقول مرة أخرى [وأصـل الذكر التنبه بالقلب للمذكور ، والتيقظ له ، وسمى الذكر باللسان ذكرا لأنه دلالة على الذكر القلبى] وهناك بجانب ذكر اللسان والقلب الذكر بالطاعة ، وكلما أكثر العبد من الذكر لله على أى حال دل على قوة المعرفة واتقاد البصـيرة ، فمن أجل تنبيه القلب وايقاظه ، وازدياد المعرفة واشعال البصيرة أمرنا الله بالمبالغـة فى الذكر ، والاكثار منه حسـبما صرح البيضـاوى وابن كثير (٤٨) .

أرأيت بعـد ذلك كيف أراد الله أن يحافظ على حالة الهداية ، وأن يثبت اليقين فى القلوب ، وأن يقرب العبد من ربه فشرع له ذكره بالقول والعبادة فى السر ودون الجهر ، وبالرغبة والرهبة ، والمذلة والانكسار ومع الحضور والاخلاص ، وبهذه المعانى ارتبط حال الذكر بالادراك والمعرفة وملكة التذكر التى نحن بصدد الحديث عنها .

---

(٤٧) البقـرة ٢٠٠ ، ١٥٢ ، الاحزاب ٢١ ، ٤١ ، النسـاء ١٠٣ ، ال عمران ١٣٥ ، الكهف ٢٤ ، الاعراف ٢٠٥ ، المزمل ٨ .

(٤٨) ابن كثير ج١ ٢٤٣ ، ١٩٦ ، ٥٤٩ — ٥٥٠ ، ٤٠٦ ج٢ ٢٨١ ج٣ ٤٩٤ ، القرطبى ج١ ٢٣١ ، ج٢ ٤٣١ ، ١٧١ ج٤ ٢١٠ ج٥ ٣٧٢ ج٧ ٣٥٥ ج٨ ٢٢ — ٢٤ ج١٠ ٢٨٦ ج١٤ ١٥٦ ، ١٩٧ ، ج١٩ ٤٣ ، وتفسير البيضاوى ج١ ٢٢٨ ، ٢٠١ ج٢ ٤٣ ، ١١٤ .

المرحلة الثالثة : الاعتبار الوجدانى العارم :

ويظل الانسان يستحضر عظمة المعبود فى قلبه وعلى لسانه حتى يثبت يقينه ويصفو قلبه ، ويجل من شدة الخوف أو الرجاء ، ويدخل فى تلك الحالة تحت الوصف المذكور فى قوله تعالى [**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون**] ٢ الأنفال ونظير هذا قوله سبحانه [**وبشر المخبتين الذين اذ ذكر الله وجلت قلوبهم**] [**الله نزل أحسن الحديث مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله**] ٢٣ الزمر •

لقد صار هؤلاء أرقاء القلوب ، أنقياء النفوس ، حتى جلودهم قد تأثرت بحالة اليقين التى هم عليها ، لقد سكنت نفوسهم من حيث الاخلاص ، وازدادت ايمانا بالله ، واطمأنت به ، وعرفت قدره وسلطانه ورهبت عظمته ، وهذه حالة العارفين بمولاهم ، الذين امتلأوا رضا به عنه [**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب**] ٢٨ الرعد •

جعلنا الله منهم وحشرنا فى زمرتهم مع وفد الرحمن ، ومع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا •

الفصل السادس

الملكات الخاصة بالوحى والقول : التدبر والتفقه

التدبر :

اذا نظرنا الى مادة « دبر » فى المعاجم اللغوية والتى اشتقت منها لفظة التدبر وجدناها وضعت فى الغالب لثلاثة معان .

أحدها : أن تكون بمعنى الآخر ، والظهر ، ونهاية الأمر ، والخلف ، والوراء ، والتابع ، والتولية ، التى يقصد بها الذهاب ، ومثال ذلك : دبرت الريح دبورا تحولت ، ودبرت السهم خرجت من مؤخر الهدف الذى يصوب اليه ، ودبر أمرهم ولى لفساد ، ودبر فلان شاخ أو هلك ، ودبر به ذهب ، ودبر فلانا تلاه وتبعه ، وأدبر الشىء جعله خلفه ، والدابر التابع ، والدابر من كل شىء آخره ، والدابرة التابعة ، والدبار من كل شىء آخره ، والدبر من كل شىء خلفه ، ، والدبرمن كل شىء عقبه ومؤخره ويجمع على أدبار ، واستدبر أتاه من ورائه .

ثانيها : أن يقصد بها النظر والتأمل فى الأشياء وعواقبها ، ومعرفة مباديها ونهاياتها وسياسة الأمور بحكمة وروية ، سياسة قائمة على الدراسة الواعية بالنتائج المترتبة عليها ، وأن نعرف الأشياء

بالنسبة الى غيرها ، يقال أدبر عرف قبيله من دبيره ، ودبر الأمر أي دبر فيه ساسه ونظر في عاقبته ، ودبر الحديث رواه عن غيره ، ومنه تدبر الأمر ، وتدبر فيه دبره أو عرفه تدبرا بآخره ، واستدبر الأمر رأى في نهايته ما لم ير في بدايته .

ثالثها : الاستئثار بشيء دون بقية الأشياء لسبب معين مثل استدبره أي استأثر به (١) .

ويقول ابن فارس : الدال والباء والراء أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله ، قال : والتدبير أن يدبر الانسان أمره وذلك أن ينظر الى ما تصير عاقبته وآخره (٢) وبمثل هذا قال الفيروز أبادي (٣) ، وشرح صاحب المفردات التدبير بأنه [التفكير في دبر الأمور] (٤) .

وبالنظر في الوضع اللغوي لتلك المادة ، وما جاء في البيان القرآني نلحظ تحولات هامة جرت على الوضع اللغوي بصفة عامة ، وعلى استعمالها في القرآن بصفة خاصة .

ومن هذه التحولات التي حدثت داخل الوضع اللغوي أن الكلمة قصد بها أساسا المعنى الأول وهو أن تكون بمعنى الآخر والظهر ونهاية الأمر الى آخره وهذا الوضع بلا شك لا يحمل طابعا عرفانيا وانما هي كلمة باشتقاقاتها ووضعت لمعان متقاربة ، ثم توسع في هذا فتحولت من اطلاقها على أشياء وأحوال وحوادث تتعلق بالنهايات والأواخر الى معنى آخر هو تأمل تلك العواقب والأدبار للأمور ،

---

(١) المعجم الوسيط ح١ ٢٦٩
(٢) مقاييس اللغة ح٢ ٣٢٤ — ٣٢٥
(٣) القاموس المحيط ح٢ ٢٧
(٤) الراغب الأصفهاني : المفردات ١٦٥.

ثم بعد ذلك استعملت فى كل تأمل سـواء كان نظرا فى حقيقة الشىء وأجزائه ، أم فى سوابقه وأسبابه ، أم فىلواحقه وأعقابه ، وبهـذا التوسع فى المرحلتين السابقتين انتقلت الكلمة من كونها دالة على النهايات الى صلتها الوثيقة بالادراك الانسانى ، واعتبرت حالة من حالات الوعى لها طابع يميزها عن غيرها من الحالات الذهنية •

واذا كان هذا التحول قـد جرى داخل اطار الوضع اللغوى فان القرآن الكريم بلا أدنى شك قـد تدخل تدخلا كبيرا فى اجراء التوسع المشار اليه ، وفصل فصلا تاما بين المعانى التى تستخدم فيها تلك المـادة داخل السياق القرآنى ، ومن الضرورى أو تسـتوقفنا عملية الفصل هـذه قليلا ريثما ندركها وندرك معها بعض مراميهـا وحكمهـا •

تنوع الاستخدام فى القرآن الكريم

حقا لقـد فصل القرآن فى تلك المـادة بين معانى أربعة فصـلا دقيقـا :

المعنى الأول : اسـتخدام تلك المـادة بمعنى الخلف والوراء والظهر والمؤخرة ، والتقهقر الى آخر ما ورد فى الاستعمال اللغوى مما أشرنا اليه سلفا ، فهناك أدبر ، ومدبر وادبار ، وأدبار ، ودابر ، ودبر مثل « **كلا انهـا لظى تدعـو من أدبر وتولى** » ١٧ المعـارج « **فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا** » ١٠ النمل « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا** » ٤٥ الأنعام « **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر** » ٢٥ يوسف ، الى غير ذلك كثير (٥) •

---

(٥) انظر المدثر ٢٣ ، ٣٣ ، والنازعات ٢٢ ، النمل ١٠ ، ٨٠ ، القصص ٣١ ، التوبة ٢٥ ، الأنبياء ٥٧ ، الروم ٥٢ ، والصافات ٩٠ ، غافر ٣٣ ، الطور ٤٩ ، الأنعام ٤٥ ، الأعراف ٧٢ ، الأنفال ٧ ، ١٥ ، ١٦ ، ٥٠ ، الحجر ٦٦ ، يوسف ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، القمر ٤٥ ، آل عمران ١١١ ، الاحزاب ١٥ ، الفتح ٢٢ الى آخره.

ومجموع الآيات الواردة بهذا المعنى (٣٥) خمس وثلاثون آية ، واذا استثنينا منها خمس آيات ، اثنتين منها تتعلق بأدبار النجوم ، وأدبار السجود (الطور ٤٩ ، ق ٤٠) وثلاث آيات تتعلق بقميص يوسف وكونه شق من دبر (يوسف ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨) نجد بعد ذلك أن الثلاثين آية الأخرى تتعلق بالكفار أو بالمنافقين أو بالحث على عدم الفرار ساعة لقاء العدو ، وتتناول الأغلبية الساحقة من هذه الآيات الحديث عن الكفار وأنهم فى المؤخرة لكونهم أدبروا مستكبرين عند سماع الحق ، أو تولوا عن تدبر الوحى الذى يلقى على أسماعهم من الأنبياء صلوات الله عليهم .

المعنى الثانى : وفيه يستخدم القرآن لفظة التدبير ، ويقصرها على الذات الالهية وحدها ، فالله هو الذى « **يدبر الأمر من السماء الى الأرض** » السجدة : ٥ ، ولم تخرج الآيات الأربع التى وردت فيها اللفظة عن تلك الصيغة « **يدبر الأمر** » وذلك فى (يونس ٣ ، ٣١ ، والرعد ٢) .

وحقيقة لفظة يدبر هنا أن الله سبحانه وتعالى ينزل الأمور فى مراتبها على أحكام عواقبها ، وأنه يقضيها ويقدرها ويصرفها وحده لا يشركه فى تدبير خلقه أحد ، والقضاء والتصريف والتنزيل شامل للأمر الكونى المتعلق بالخلق والتسيير ، وللأمر الشرعى المرتبط بالوحى وارسال الرسل ، فهو الخالق المقدر وهو المرسل الذى يصطفى من خلقه من يشاء .

واذا أسند الله سبحانه عملية التدبير الى غيره كقوله « **فالمدبرات أمرا** » (النازعات ٥) فان المفسرين يحملون ذلك على محامل لاتتعارض مع واحدية التدبير الالهى ، وذلك مثلما قال القشيرى [أجمعوا على أن المراد الملائكة] وتدبيرها ليس تصريفا وانما هو نزولها بالحلال والحرام وتفصيله طبقا لما كلفها وأعلمها به ربها جل ثناؤه ، ومن ثم فهو الى الله فى الحقيقة ، ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك .

وقال الماوردى : [هى الكواكب السبعة] وتدبيرها حركتها فى الطلوع والأقوال ، أو ما قضاه الله فيهما من تقلب الأحوال ، وأيضا لأن الله علق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم فأضيف التدبير اليها وان كان من الله كما يسمى الشىء باسم ما يجاوره .

والأولى صرف اللفظة الى الملائكة حال كونها مكلفة ومعرفة بالأشياء من الله حتى لا تتخذ الآية ذريعة لأصحاب القول بالطبائع ، والذين يرجعون التغير والتقلب الى خصائص العناصر فى الطبيعة ، خاصة وأن القشيرى يقول « وأجمعوا » والماوردى لم يجعل القول بالكواكب راجحا ، بالعكس ساق الرأى القائل بأن المراد الملائكة وأردفه بعبارة [قال الجمهور] (٦) ، فهو الأولى من جهة تطابقه مع النصوص الصريحة السابقة التى تسند التدبير الى الله وحده ، ومن جهة تواطؤ الأكثرية الكبرى من المفسرين على ذلك ومنعا لايهام القوم بالطبائع .

ولنا تعليق موجز على استخدام القرآن لتلك المادة فى المعنيين السابقين يتلخص فى أن الآيات تحمل طابعا ادراكيا وعلميا فى كل منهما :

أما فى المعنى الأول فان ذم الكافرين والمنكرين الذين تولوا عن الأنبياء راجع الى أنهم أغلقوا عقولهم وقلوبهم بعد حواسهم عن السماع والتأمل ، والانصياع والاتباع ، ولعدم التدبر لما ألقى على مداركهم ، ولانصرافهم جاحدين لذا استأهلوا أن يكونوا فى المؤخرة فى الظهر ، واستحقوا العذاب والتنكيل وأن يتعقبهم المؤمنين بالسيف والقتال .

---

(٦) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ج٨ ٣٠٨ ، ٣٣٥ ، ج٩ ٢٧٩ ، ج١٤ ٨٦ ، ج١٩ ١٩٤

ويقال ذلك بالنسبة للمنافقين الذين قعدوا عن الجهاد أو فروا منه ، فما فعلوا ذلك الا بناء عن أفكار خامرت عقولهم ، وغشاوة كست صفحة قلوبهم ، وجبن وهلع تملكهم .

وعليه فاستخدام الأدبار ، والادبار ، والمدبرين مع هؤلاء هو استخدام وصفى لما تتسم به طبائع هؤلاء وما يدور فى خاطرهم وعقولهم ، أى هى أوصاف ألحقت بهم تتناسب مع أحوالهم الادراكية ومواقفهم الظاهرة المبنية على أفكارهم .

وأما بالنسبة لاستخدام المادة فى المعنى الثانى فان تدبير الله سبحانه للأمور مبنى على علم الله سبحانه ، واحاطته بجميع المخلوقات التى أوجدها بقدرته ، ومن ثم فالاستخدام محكوم بالجانب العلمى هنا ، وان كان العلم الالهى ذاتيا لا يعتمد على ملكة أو آلة حسية ، أو أداة ادراكية .

الى هنا يتضح لنا تماما أن المادة مستخدمة فى مسائل عرفانية أو علمية احاطية ، واستخدامها بهذا الشكل يشير الى ضرورة أن ينتبه الانسان فى تصرفاته الى جانب الوعى التدبرى ، وأن يبنى أفعاله على أساس من أعمال الروية ، وتأمل العقل ، وتدبر القلب ، فان الذين سوف ينكل بهم فى الآخرة ، ومن هم فى أدنى الدركات هم الذين ولوا عن تدبر الحجج والبراهين ، وأغلقوا أذهانهم عن فهمها والانصياع لها .

وعلى البشرية أن تتحقق بصفات المولى عز وجل فما استحق تدبير الأمور كلها الا بما اتصف به جل جلاله من علم وقدرة وحكمة ، والا نكل أحوالنا وأمورنا الى سذج البشر وجها لهم فقد عانى المسلمون من هؤلاء الغوغائيين كثيرا ، ولقد آن الأوان أن يولى الجاهلون أدبارهم ، وأن يفسحوا الطريق لأناس ذوى رجاحة فى العقل يأخذون بيد الأمة ، ويسوسونها عن بصيرة ووعى ، وينتشلونها من حضيض الوهدة التى تتردى فيها كى تتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم .

المعنى الثالث :

فى هذا المعنى تأتى كلمة التدبر بين آيات الكتاب لتتناول الحث على تأمل القرآن وتفهمه تفهما صحيحا ، ومن العجيب فى ذلك أن عدد الآيات التى تدعو البشرية الى تأمل القرآن تتفق مع عدد الآيات التى تحدثت عن أن الله يدبر الأمر وحدة ، حيث وردت كلمة التدبير والتدبر فى كل من المعنيين أربع مرات ، ولا ندرى هل هذا من قبيل الاتفاق الذى لا يعلل ، أو يعلل ولكننا نجهل حكمته ، المهم أن تلك المادة جاءت فى سورة النساء فى قوله تعالى « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » (٧) وفى سورة المؤمنون « **أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين (٨)** » وفى ص « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** » (٩) وأخيرا فى محمد « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** » (١٠) .

المعنى الرابع :

الأشياء المتديرة قد تكون محسوسة وغير محسوسة كما نفهم من الوضع اللغوى فاللغة لم تفرق فى النظر المتعلق بالأشياء وعواقبها بين كونها مادية أو غير مادية ، ثم ان من معانى صيغة « استدبره » استأثر به ، وبهذه الاعتبارات نجد القرآن الكريم قد قصر التدبر المطلوب من الانسان على مجال الوحى القرآنى خاصة دون غيره من بقية الأشياء ، أو سائر الأمور ، واعتبر النشاط المنوط بتلك الحالة الادراكية محدودا بحدود الكتاب الكريم وحده ، وهذا يبدو من ظاهر الآيات الأربع السابقة ، ولنفس تلك الملاحظة جعلنا مادة التدبر أولى الملكات العاملة فى مجال خاص هو القول ، وليس أى قول بل قول الله ، وليس قول الله فى أى كتاب سماوى بل هو القرآن الكريم لاغير .

---

(٧) الآية ٨٢   (٨) ٦٨
(٩) ٢٩   (١٠) ٢٤

وهو الاستئثار الحقيقى للكتاب المحفوظ على غيره كى يكون محلا لملكة التدبر والتأمل ، وسوف نسوق بعض النقاط الخاصة بالمعنى الثالث والرابع لأنهما مجال بحثنا الآن .

التدبر أرقى الصلات البشرية بالقرآن

اذا بحثنا بين آيات القرآن الكريم عن الأوامر الصادرة الينا تجاه القرآن ، والتى تستحثنا على عقد صلات وثقى نجد أنها تبرز فى كلمات ادراكية ثلاثة : القراءة ، والترتيل ، والتدبر ، والآيات الواردة فى هذا الشأن كله لا تخفى على من له أدنى صلة بالقرآن .

وتتفاوت الكلمات الثلاث السابقة فى معانيها ، وبالتالى تتفاوت صلاتنا بالقرآن ، فالقراءة كما يقول الراغب الأصفهانى [ضم الحروف والكلمات بعضها الى بعض فى الترتيل] ، والترتيل [اتساق الشىء وانتظامه على استقامة] أو هو [ارسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة] (١١) على حين أن التدبر هو التفكير والتأمل الدقيق ، والنظر والتبصر لمعانى القرآن الكريم وحججه ودلائله ، وبراهينه ، ومواعظه وما فيه من ترغيب وتبشير ، وترهيب وزجر ، وما يتسم به من انسجام فى المعنى ومن عدم الاختلاف ، ومن اتساق وابداع فى اللفظ ، كل ذلك يتم لندرك يقينا أن القرآن حق ، ولنعلم دلالته على صدق الرسالة ونتبين الأحكام التى نتبعها فى طاعتنا وسلوكنا (١٢) .

وما دام التدبر كذلك فانه يعتبر أرقى الصلات الانسانية بهذا الكتاب لأنه شامل للقراءة والترتيل وزيادة ما ذكرنا من معانى عليهما ،

---

(١١) المفردات ٤٠٢ ، ١٨٧

(١٢) انظر : تفسير القرطبى ح٥ ٢٩٠ ، ح١٢ ١٣٩ ، ح١٥ ١٩١ ، ح١٦ ٢٤٦ ، والطبرى ح١٨ ٣٢ ، ح٢٦ ٣٦ ، وتفسير ابن الجوزى ح٢ ١٤٤ ، ح٤ ٤٨٤ ، ح٧ ١٢٦ ، والكشاف ح١ ٢٨٤ ، ح٢ ٥١ ، ٣٢٧ ، ٤٥٨ ، وتفسير البيضاوى ح٢ ١٠٣ ح٤ ٦٨ ح٥ ٧٩

فكل من يتدبر لابد أن يقـرأ أو يسمع ، والقراءة لمن يعرفها أولى لاشتراك أكثر من حاسـة فى هـذا العمـل ، ومن يقـرأ لا يحسن قراءته حتى يرتل ، والذى يرتل لا يستفيد من قراءته وترتيله حتى يقف عند الآيات ويتدبرها وينظر فى معانيها ودلالاتها وعبرها ، ومن ثم فالتدبر أرقى وأشمل يليه فى الدرجة الترتيل تليه القراءة .

تدخل الادراك كلـه فى تلك العمليـة :

وكما شملت ظاهرة التدبر غيرها من الصلات فانها تعم الانسانية كلهـا ، والجميع من كافر ومنافق ومؤمن مطالبون بأن يتدبروا القرآن كى يتحقق الكافر والمنافق من صدق هذا الحديث ودقته فيؤمنوا ، ويستقر اليقين فى قلوبهم ، وكى يستخرج المؤمن منه المعانى والأحكام فيعمل بها ، ويقف عند المواعظ والعبر فيتذكر ويرق قلبه (١٣) .

وأيضا فان ملكة التدبر تعمل فى اطـار العقل الذى يقوم بتأمل آيات القـرآن فيجد أنهـا مؤتلفـة الأحكام يؤيد بعضها بعضا ، ويدرك أنه معجز بلفظه ومبناه ، ولا طاقة للبشر على أن يأتوا بمثله ، وينظر فيما يسوقه الكتاب من أدلة وبينات ، كل هـذا عمل العقل ، وأما القلب فيتأثر بالعبر والعظات ، ويجلو ويصفو بما يعرض عليه من أنوار القرآن واشراقه ، ويطمئن هو الآخر باليقين النابع من قوة البيـان والحجة ، وبأدنى ملاحظة نتبين اشتراك العقل والقلب فى التدبر من خلال الآيات الأربع التى تحدثت عن تلك الحالة .

والقرطبى يستنتج من تلك الآيات بوضوح وجوب التـدبر فى القرآن لمعـرفة معانيـه وأحكامه فيقول فى تأويل آية النساء (١٤)

---

(١٣) نحن هنا نتحدث عن اثارة القرآن لملكات الوعى ومطالبتها بالعمل ، وأما الاستدلال والمناقشة فسيرد لها باب خاص بها .

(١٤) والتى أولها « افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

[ودلت الآية وآية محمد على وجوب التدبر فى القرآن ليعرف معناه ، فكان فى هذا رد على من قال : لا يؤخذ من تفسيره الا ما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنع أن نتأول على ما يسوغه لسان العرب ، وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال ، وابطال التقليد ، وفيه دليل على اثبات القياس] (١٥) القائم على النص .

وبهذه النصوص التى دعت الى أن يتدبر الجميع القرآن ، وأن يتأمله كل من له أهلية واستطاعة حسب قدرته وجهده . وبهذه الفهوم التى استخرجت وجوب الحكم بالتدبر نصل الى عظمة هذا الدين الذى يوجب التدبر فى كتاب معجزة بالمبنى والمعنى على البشرية كلها ، حتى الكافر عليه أن يتأمله ، والنظر فيه دعوة لجميع المؤمنين كذلك ، ألا ما أعظمه من دين يفسح مجال الحرية فى التدبر والتفكير لكل ذى عقل ولب أن ينشط ويعى ، وأن يفتح كتاب الله قارئا ومرتلا ومتدبرا ، وأن يستنبط بنفسه ما يصل اليه بادراكه من أحكام ومعان ما دام مستوفيا لشروط الاستنباط ، وحتى اذا لم يستنبط للآخرين فليستنبط لنفسه هو وليتأمل لذاته ، وهذا باب مفتوح لكل قارىء ومتدبر بدون قيد ولا شرط ، أقول فليستنبط لنفسه معانى اليقين ودلائل الايمان ، وليصف نفسه بموارد الحق فى كتابه ، وبمواعظه فى آياته .

ان تدبر القرآن ليس حكرا على جماعة ، وليس مقصورا على فئة انما هو حرم ومستباح لكل طالب ، ورب انسان نحسبه عيى الذهن يأتى الى رحاب القرآن فيتناوله باهتمام ووعى فيفتح الله عليه فيه بما لا يخطر على بال أفذاذ من العباقرة ، ورب خطرات لغمر تدق عن فكرة لذكى فى عمر .

---

(١٥) الجامع لأحكام القرآن جـ ٢٩٠.

علامات هادية لملكة التدبر :

امر الله الادراك الانسانى كلــــه ان يعتبر بآيات الله ، ويقف عندها وقفات متأنية ، وظهر من الآيات الأربع انها تحث العقل والقلب على التدبر ، وها نحن مرة أخرى نرى القرطبى يفسح للادراك الحسى مجالا آخر فى تلك العملية ، فيذكر فى « باب ما يلزم قارىء القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته » قائلا [ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه] ان كان حافظا أو غير حافظ ، ثم يربط هــذا الأدب فى التلاوة بعملية الادراك ربطا قويا فيقول [فان العين تؤدى الى النفس ، وبين النفس والصــدر حجاب ، والقــرآن فى الصدر — على فرض حفظه — فاذا قرأ عن ظهر قلب فانما يسمع أذنه فتؤدى الى النفس ، فاذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء ، وذلك أوفر للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن] وما صرح به هذا العــالم الجليل هو فكرة تربوية هامة ، يراها علماء النفس التربويون ضرورية فى احداث أكبر قدر من التحصيل لدى المتعلم ، لأنه كلمــا اشتركت أكثر الأدوات والأعضاء فى العملية كان التحصيل أقوى من اشتراك أدوات ادراكية محدودة .

وروى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أعطوا أعينكم حقهــا من العبادة] قالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال [النظر فى المصحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبــه] أى أن الســنة باعتبارها المصدر الثانى تشير الى اشراك الادراك الحسى فى عمليــة التدبر والتفكر والاعتبار ، هذا بالاضافة الى أنها تجعل تدخل الحس فى الادراك أمرا تكليفيا يحقق لها حظها من عبادة التأمل فى القرآن ، ويبين الحديث بوضــوح أن الادراك الانسانى حال كونه يتفكر فى آيات ، ويتأمل عجائب القــرآن فهو يعبد الله عبادة حقة ودقيقــة ، بل العبادة الادراكية على هذا النحو هى أصل العبادات الشرعيــة

الظاهرة ، وهى عبادة تتجمع حول غاياتها ، وفى بؤرة التركيز والشعور الراعى لفهم القرآن كل القوى الراقية فى الانسان من حس أو عقل أو قلب .

ويلزم لصحة وكمال تلك العبادة الادراكية أن يقرا المتدبر القرآن على تؤدة وترسيل وترتيل ، وأن يستعمل فيه ذهنه وفهمه ، أى يستحضرهما حتى يعقل ما يخاطب به ، ويتوقف عند آية الوعد فيرغب الى الله تعالى ويسأله من فضله ، وعند آية الوعيد فيستجير بالله منه ، وكذلك يتأمل ما فى القرآن من أمثال ، وما فيه من غرائب فلا يمر عليها الا وقد ركز عليها من وعيه ما هى له أهل (١٦) . فان هو فعل ذلك رتل عن وعى ، وتدبر عن حضور ، وأفعمت جوانيته بأنوار التنزيل .

ومن كان له مطمح آخر من وراء التدبر كاستنباط الأحكام على غرار ما يهدف اليه الفقهاء ، أو تأويل آياته مثلما يتجه المفسرون فثم ضرورات علمية أخرى تضاف الى ما سبق كدراسة النحو والأصول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه الى غير ذلك من قوانين العلم والنظر التى اهتم ببيانها المشتغلون بعلوم القرآن وأحكامه ومفرداته .

ويعتبر الصحابة باجادتهم للغة ، ووجودهم زمن نزول الوحى، والدراية بسابقه ولاحقه هم الرواد فى مضمار التدبر الفردى الذى رقت معه النفس ، وخشع له القلب ، ولان من أجله الجلد ، وازدادوا به يقينا وايمانا ، واستقروا به سكينة وطمأنينة حتى نزل القرآن يمدح تلك الأحوال فيهم ، ويصف ترقيهم مع آيات القرآن نزولا وتأثرا ، ايمانا وشعورا ، تزكية وتصفية ، فكرا وسلوكا ، كما اعتبروا

---

(١٦) المرجع السابق ج١ ٢٧ — ٢٨ ، ٣١ — ٣٦ .

بحق أساتذة المفسرين والفقهاء فى مضـــمار العلم بالقـــرآن وتدوينه وتأويله . ومن أبرز الشواهد فى ذلك على بن أبى طالب . وابن عباس وابن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى . وأبى بن كعب وغيرهم . وعن طريقهم أخــذ التابعون .

الاقرار الالهى للبشر على تدبر القــرآن :

أمرت ملكاتنا أن تعمل بالتدبر فى القرآن ، أن تترقى لتستنبط منه الأحكام والقوانين فهل بقدرة تلك الملكات المحدودة أن تعمل فى مجال الوحى الالهى الذى وصفه الله بين سطوره بأنه « **أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبيــر** » (١٧) » وبلغ به أن قال ســـبحانه [**لو انزلنــا هــذا القرآن على جبل لرأيتــه خاشــعا متصدعا من خشية الله**] (١٨) ، وربما نتصور حينا أين نحن ومداركنا من كلام الله ؟

احتمال طرو هذا التصور على عقولنا يجعلنا نثير تلك النقطــة ونحن بصدد بيان حث القــرآن على تدبره ، ولابعاد هذا عن خيالنا نوقن تماما أن الله قادر على انزال وحى لا تطيقه العقول ، ولايدنو من مستوى الفهم البشرى ، وقد تدق ألفــاظه ومعانيه حتى تصــير فوق متناول جميع الأذهان . وان القــرآن نفسه قد حمل بعض هذه النماذج التى تسمو عن مداركنا جميعا فلا يستطيع أحد أن يتأولها ، أو تخفى على عقول كثير منا ولا يستطيعها الا الراسخون . وهى تلك التى تعــرف بالمتشــابه حسب ما جاء فى تأويلهــا من قولين أحدهما لا يعلمها الا الله والآخر يجوز للراسخين الوصول الى علمها .

كان من الممكن ذلك ، والله قادر عليه ، ولكنه فى تلك الحالة لا يكون كلام الله خطابا منه للبشر ، ولا تكون أحكامه تكليفا منه اليهم ، لسبب

---

(١٧) هــود : ١ .
(١٨) الحشر : ٢١ .

بالفهم من بعد الخطاب عن قدرة المخاطبين ، واذا قيل انه يمكن أن يحصل ذلك ويعطى علم تأويله خصيصا للنبي المرسل ، أى يختصه بذلك في ذاته ، أو بارسال ملك يعلمه ويفسر له ، ثم بعد ذلك يكون التفسير كلــه ، والتدبر كله توقيفا ، نقول عندئذ يكون الله قد أبعدنا عن أهم وسيلة نعرف بها صدق الرسول المبلغ ، وبالتالى لا نقبــل تفسيره وشرحه للوحى هذا على فرض وجوده لأن التفسير متوقف على الايمان بصدق الرسول ، وصدق الرسول متوقف على فهم الوحى وتدبره ، والفهم والتدبر قد انسد علينا بابهما للصعوبة الفائقــة التى جاء عليها الوحى •

خروجا من هذا كلــه جاء القرآن معجزا يدل على أن قائله هو الله ، وليس فى طاقة البشر أن يقولوا مثله ، وفى الوقت نفسه ميسر ، ومبين ومفصل ومصرف يمكن لمداركنا أن تتدبره وتتأمله ، وتصل من وراء ذلك الى صحة نسبته لقائله وهو الله فنؤمن بوجوده ، ونصدق النبى الذى جاء به صلوات الله وســلامه عليه ، ونستنبط منــه الأحكام التكليفية التى أراد الله أن تكون بيننا ماضية علينا فى عبادتنا وأخلاقنا وجميع علاقاتنا العــامة والخاصة •

هذه واحدة وأخرى فان الله جعل فى قلوبنا كذلك من القوة على حمــله ما جعلنا نعتبر به ونتذكر بتدبره ونطيـــع طبقا للأوامر التى جاء بهـــا [**فالله سبحانه قد رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة**] (١٩) على حد تعبير القرطبى •

وأخيرا فان البشر جميعا قادرون على فهمه وتدبره ، ويزاد على ذلك فضل الله ورحمته التى يخص بها حملته وعلمائه من المؤمنين •

ومع كل هذا تبقى حقائق هامة على سبيل التأمل تتلخص فى أن التدبر فهم بعض ما فى القــرآن لا استيعابه كله ، والتأويل احتمال

---

(١٩) الجامع لأحكام القــرآن ج١ ، ٤ ، ١٥٤ •

المراد لا عينه ، والاستنباط اجتهاد يحتمل الصواب والخطأ . مما يؤكد نسبية الادراك في التدبر لآيات الله ، بينما تبقى هى شامخة تتعالى فوق حصر البشر لمعانيها ، وفسيحه تتسع للعقول على اختلاف مراتبها أن تتأملها بلا احاطة ولا تعيين للمراد ، وأن نفهم فيها بلا وصول الى كلمة أخيرة فى كثير جدا من الآيات .

والقرآن وان كان يحتمل التدبر من البشر الا أنه لم يتسم بالتدبر ، ولم يتسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمتدبر كما جاز هذا الاطلاق فى التبصر والتذكر كما سيأتى حيث أطلقنا على القرآن والآيات ، وسمى النبى صلوات الله وسلامه عليه بالمذكر .

التفقـه :

هـذه مادة عميقة جدا فيما نحن بصدده ، وذلك لأنها تتصل بالقول عامة وبالقرآن والدين خاصة ، وتتبع بذلك الملكات التى يتحصر نشاطها على مجال محدد ، ويجدر بنا فى البداية أن نحدد معانى الكلمة من جهة الوضع ، ثم نعمد الى استعمالها فى القرآن الكريم ، وهذا هو منهجنا الواضح ازاء تناول تلك الملكات .

قلما نجد كلمة ترتبط بجوانب الوعى الانسانى تدل على قوة ادراك الأشياء مثلما نجد كلمة (فقـه) فتدل فى أصل وضعها [على ادراك الشىء والعلم به] حسبما صرح ابن فارس ، وفى المعجم الوسيط [فقـه الأمر فقها وفقها أحسن ادراكه ، وبهذا المعنى تكون الكلمة موضوعة أساسا لحسن ادراك الأمور ، ووضعها كذلك يكسبها ميزة هامة بين الكلمات المعبرة عن أحوال عرفانية ، ونكاد لا نعثر كثيرا على لفظة نشط معها الادراك نشاطا كبيرا فى أمر ما حتى وصف بالحسن والدقة ، وحتى كانت معرفته على درجة من القوه بحيث صح معها أن توصف بهذا الوصف .

وأصل الوضع يشير الينا من طرف دقيق بأن الادراك الانسانى

العقلى او القلبى قد تركز فى الأمر المطروح تركزا شديدا حتى وصل فى العلم به الى رؤية قوية ، وعندها سميت تلك النتيجة بالفقــه ، وادنى شبهة تقلب الأمر المعروف ينزل الحالة الادراكية من التسمية بالفقه الى التسمية بأى لفظة أخرى من الألفــاظ العرفانية تناسب درجة المعرفة المحصلة .

ولو أن الكلمة بقيت عند حد وضعها لظلت متفردة بالمكانة المشار لينا ، ولكنها فى زحمة الاستعمال قد أخذت معانى أخرى مثل الفهم والعلم ، فقيل فقه عنه الكلام فهمه ، وأفقهه الأمر فهمه اياه ، وفقهه الأمر أعلمه اياه ، وفاقهه غالبه فى العلم (٢٠) ، على أننى لا أقول ان دلالة الكلمة على الفهم والعلم تعنى أى فهم أو علم بل يقصد بهــا فهم جيد ، وعلم تام ، ولابد من تلك الاضافة أو هذا القيد بالوصف مع الفهم والعلم عندما يعبر عنهما بالفقه ، لأن الادراك لو لم يكن جيدا وتاما ما قيل عنه فقه ولتسمى بمجرد الفهم أو العلم بأى درجة من درجاته الأخرى ، ويساندنا فى ذلك أنه يقال فى الفقاهة والفقه : الفهم والفطنة ، والفطنة لا ترد الا مع معرفة قوية ، والا مع فهم نابع من عقلية ذكيــة نابهة ، والفطنة حالة وعى يوصف فيها الذهن بقوة الاستعداد لادراك ما يرد عليه ، ويمتاز صاحبها كذلك بالحذق والمهــارة كما جاء فى كتب اللغــة .

وما دامت كلمة الفقه قد وضعت لحسن الادراك ، وتعنى الفهم الفطن مع قوة الذهن واستعداده والتميز بالمهـــارة الفائقة فلا نعجب أن تدخل تلك الكلمة رحاب الدين ، وتشيع فيــه ، وتخدم فى مجاله الواسع ، فيقال عالم بالفقه أى بالدين ، ثم اختصته بعد ذلك بعــلم الفروع أو الشريعة فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه ، وهو تخصيص متأخر ، كما تقال ، فى حق من يقــرأ القــرآن ويعلمه .

---

(٢٠) ابن فارس : معجم مقاييس اللغــة ج٤ ٤٤٢ ، ومعجم ألفــاظ القــرآن ج٢ ٣٤٢ — ٣٤٣ .

ولا شك أن فى معانى الكلمة ودلالاتها ما يحبذ استخدامها وتخصيصها فى مجال الدين عامة ، والفقه خاصة ، وذلك من جهة ضرورة الفطانة وقوة استعداد الذهن والمهارة فى فهم الدين وفى الاستنباط وأيضا فانه يقال بحسب الوضـــع : الفقـــه [هو التوصل الى علم غائب بعـــلم شاهد] (٢١) والتوصل بهذا النحو قياس بلا شك ، فنحن اذا فى حاجة ماسة الى قوة الادراك والفطانة ، والمهارة ، والاستنباط والقياس عندما نتناول مسائل الدين عامة أو المسائل الفرعية خاصة ، وليس هناك كلمة تستوعب كل هذا المطلوب الا كلمة (فقـــه ، وفقه ، وفقه) وعالمنا المتصف بها هو الفقيه ، وتفقهه اذا طلبه متخصص به .

وبهذا كلـــه يكون علماء الدين قد أحسنوا اختيار اللفظة التى جعلوها مصطلحا عاما فى مجال دراستهم كما أنعم النظر علماء الشريعة عندما جعلوها علما على فنهم .

دلالة الكلمـــة بين الآيات :

ترد لفظة التفقه عنوانا على ملكة الفهم أو نفى تلك الملكة فى تسع عشرة آية من كتاب الله .

وأغلب ماتستخدم مع القول أو الحديث أوالمنطق **« قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول »** هـــود ٩١ **« فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »** النساء ٧٨ **« ولكن لا تفقهون تسبيحهم »** ٤٤الاسراء ، والأقوال التى جاءت اللفظة فى سياقها أو الحديث أو منطق الطـــير فى التسبيح كلها ذات صلة عميقة بالوحى ، أو تتصل بجدل الأنبياء مع أقوامهم ، وفى هـــذا الجو تأتى ست عشرة آية ، بينما تأتى آيتان فقط تتناول التفقـــــه فى الآيات الكونية أو آيات الانتقـــــام وهما

---

(٢١) المعجـــم الوسيط ج٢ ٦٩٨ ، ٦٩٥ ، والراغب الاصـــفهانى : المفـــردات ٣٨٤ .

« قل هو القــادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » الأنعام ٦٥ ، وقوله « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهــون » الأنعــام ٩٨ .

ولهــذه الكثرة التى وردت فيها كلمة التفقه مع الأقوال اعتبرناها ملكة تعمل فى اطار القول بصورة تكاد تكون غالبة ، فهى قوة تفهم ثاقبة لتمييز الكلام والعلم به ، والاستنباط منه ، ولمــا كانت كذلك والقى الأنبياء على الأقوام أقوالا حكيمة ، وعبرا مؤثرة ، ومواعظ بالغة فلم يفقهوها سحب عنهم المولى عز وجل تلك الملكة ، واعتبرهم معطلين من الفقه وان كانت لديهم قلوبهم كما هى وأدواتهم الادراكية لا تمس الا أنها معطلة عن الفهم الجيد المطلوب ، وأكثر تلك المــادة جاءت فى هــذا الصدد تنفى عن المنكرين وعيهم (٢٢) ، ولا يبقى بعد ذلك الا جزء من دعاء موسى اذ قال « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » طــه ٢٨ ، وآية التوبة « فلولا نفــر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » ١٢٢ ، وتحض هذه الآية فرقة من المسلمين على التفقه فى دين الله .

والآيات التى تنفى الوعى عن الكافرين أو المنافقين تفسر بالجهل أو عدم العلم ، والتى تثبت التفقه أو تحض عليه تفسر حينا بالفهم وآخــر بالعــلم طبقــا لمــا جاء فى الاســـتعمال اللغـــوى وآراء المفسرين (٢٣) .

---

(٢٢) انظر الاعراف ١٧٩ ، والأنفال ٦٥ ، والتـــوبة ٨١ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٢٧ والكهف ٩٣ وغيرها .

(٢٣) انظر الكشاف ج١ ٢٨٣ ج٢ ٣ ، ١٠٤ ، ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٨ ، والقرطبى ج٥ ٢٨٤ ج٦ ٤٠٤ ج٧ ١١ ، ٣٢٤ ج٨ ٤٥ ، وزاد المسير ج٣ ١٣٨ ج٤ ١٥٢ .

بين التفقه وغيره من الملكات :

اذا استرجعنا ما قيل فى التدبر وأنه يعمل فى مجال الوحى ، سواء ما يخص الحجة والبرهان ، أو الموعظة والعبرة ، أو الاعجاز والاتساق ، أو الحكم والمعنى ، وقابلنا بين هذا كله ، وما ذكر من تدرج كلمة (فقه) واختصاصها أخيرا بعلم الأحكام الشرعية وجدنا أن ملكة التدبر تعتبر رديفة لكلمة الفقه يوم أن كانت اللفظة شاملة للنظر فى الدين كله .

والمرادفة تعنى كون كل منهما خاص بمجال الوحى والدين ، لكن يبقى بعد ذلك أن ملكة التفقه أعمق فى الدلالة على العلم بالمقصود من ملكة التدبر ، حقا ان الفقيه أو المتفقه لكى يصل الى مطلوبه لابد له من المرور على منطقة التدبر التى يركز الذهن فيها على النص ويتأمل وجوهه فان هو فعل ذلك قامت ملكة التفقه عقب التدبر مباشرة بالفهم الجيد والعلم حسبما أشرنا سلفا ، من هنا كان التدبر مدخلا ضروريا للتفقه ، وكانت الحالة الأخيرة أعمق فى فهم النص من سابقتها ، والذهن فيها أشد تركيزا واستخراجا من حالة التدبر ، وربما جاز لنا القول بأن حالة التدبر وعى صامت بالنص ، وملكة الفقه ادراك علنى ، وبيان ظاهر للمراد من الآيات أو النصوص .

ويتضح كذلك أنه بعد أن صارت لفظة (فقه) خاصة بعلم الحلال والحرام أخذت طريقا أدق فى الوعى ، وأشد تأملا لوجوه النص ، واضطرت الملكة الى استخدام كل طاقاتها من الفطنة والنباهة ، وقوة الاستعداد ، وما لديها من مخزون علمى فى عملية الاستنباط والقياس اللذين يعتبران جوهر مهمة الفقيه ، والتخصص فى العلم ، أوفى فى تركيز الملكة الذهنية على حالة معينة يكسب حالة الوعى دقة لا توجد فى مطلق التدبر مثلا ، على أنه مهما كانت درجة التخصص العلمى الذى يقتضى شدة وعى ذهنى فان الفقيه بأى حال من الأحوال لابد أن يكون شديد التدبر لكل نص يتناوله لاستخراج الأحكام الشرعية ، وعندما

يصل الى تلك الحالة الراقية من الفهم للنصوص لا يسمى متدبرا بل فقيها ، فهما حالتنا تترتب ثانيتهما على الأولى ترتبا ضروريا ، ولايوجد تفقه بدون تدبر ، لكن قد تقف ملكة التدبر عند حدود معينة لا تتخطاها الى الاستنباط الذى هو مقصد الفقيه ، وذلك عندما تعوز المتدبر شدة النباهة وقوة الذهن والرصيد الكافى من العلم التى تعتبر أهلية وزادا للفقيه .

هذا ما كان من علاقة بين هاتين الملكتين فماذا بين التفقه والعلم ؟ هل ملكة الفقه ومرحلته الادراكية وثماره العرفانية التى يحصلها الانسان أقوى وأفضل من حال العلم ؟ أو أن العلم المستفاد من آلاته وملكاته الذهنية أفضل من الفقه ؟ ويترتب على هذا الخلاف أن الذين يقولون ملكة الفقه أرقى يقررون أن لفظة الفقه أفضل من لفظة العلم ، والفريق الثانى يختار العكس .

ثار هذا الخلاف بين الزمخشرى فى تفسيره وبعض الذين قاموا بوضع حاشية عليه ، وذلك بعد أن ذكر صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى « **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى انشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** »(٢٤) أن الله سبحانه ختم الآية التى تحدثت عن النجوم بيعلمون ، والتى تحدثت عن انشاء الانسان بيفقهون ، ثم تساءل [فان قلت لم قيل « يعلمون » مع ذكر النجوم و « يفقهون » مع ذكر انشاء بنى آدم ؟ وأجاب [قلت : كان انشاء الانس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأرق صنعة وتدبيرا ، فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقا له] (٢٥) .

---

(٢٤) الأنعام ٩٧ — ٩٨ .
(٢٥) الكشاف ج٢ ٣٠ .

ورد الامام ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندرى عليه بقوله [لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل الى الحقيقة وما هذا الا جواب صناعى] ويرى أن التغاير بين يعلمون ، ويفقهون فى الآيتين راجع الى مجرد المغايرة بين الفصلتين فى ختام الآيتين من باب تحسين النظم والاتساق فى البلاغة .

وللأسف لقد ناقض ناصر الدين نفسه ، اذ رأيناه يقرر أنه لايتحقق التفاوت ولا سبيل الى معرفة الحقيقة فى ذلك ثم يسوق وجها آخر من وجوه المغايرة بين فواصل الآيتين فيبين أن النظر فى النفس أقرب وأسهل من النظر فى النجوم ولذا اختار له لفظة يفقهون لأنها أدنى ، وختم الآية الأولى بيعلمون لأن معرفة النجوم أصعب على المخاطبين فذكر معها لفظة أعلى قدرا وهى العلم ، وهذا كما ترى تناقض لما صدر به رده على الزمخشرى .

ومع ما فيه من تناقض ظاهر فليس صحيحا ما قيل من أن دراسة النجوم أصعب من النفس فاختير لها لفظة العلم التى هى أرقى لأن القرآن لم يكلفهم العلم بمنازل النجوم وسننها انما طالبهم بربط وجودها بهدايتهم على ضوئها فى ظلمات البر والبحر . وهو نوع من التذكير بالفضل لا دخل لصعوبة الادراك فيه ، والنجوم ترى مواقعها بالعين الباصرة ، والحاسة بلا أدنى تكلف .

وأما النفس فليست كذلك ، انها تحتاج فى تقلبها بين أطوار الخلقة ، وبين اختلاف الطبائع الى بصائر ، والى تأمل باطنى عميق ، ومن ثم تأتى دائما عقب الاستدلال بالآيات الكونية الظاهرة ، وبعد أن يكون الوعى الانسانى قد قطع شوطا كبير من التدريب على البراهين ، وحاز قدرا من المعرفة تؤهله الى معرفة النفس ، وكيف لا وعلم الأجنة التى أشارت اليه الآية حديث الاكتشاف فى عصرنا الحاضر وعمر الانسانية فى معرفته لا يتجاوز الأربعين عاما ؛ فهل من المعقول أن يكون أسهل ادراكا فى عصر نزول القرآن عن النجوم التى

كان العرب على قدر كبير من المعرفة بها نتيجة الحاجه اليها ، وبنيت معرفتين على الملاحظة والتجارب العادية .

ان الأمر لا يعدو من ناصر الدين مجرد مخالفة للزمخشرى رتب عليها تسامى العلم على الفقه كذلك ، وأسند هذا الى الامام الهروى ، ثم حاول تدعيم هذا الاتجاه بقوله : اننا نشير الى فلان بأنه لا يفقه شيئا فيكون معناه نفى الملكة عنه وهو أحط من قولنا لا يعلم ، لأن نفى العلم هو نفى حصوله لا نفى الملكة التى بها يحصل العلم (٢٦) .

ولا يخفى ما فى هذا الخلاف من طابع ادراكى لأنه لا يفـرق بين فقه محصل وعلم مدرك بالفعل ، انما يفرق أساسا بين الملكة التى تفقه وما يترتب عليها ، والملكة التى تعلم وما يترتب عليها ، أو بين حالة الذهن فى جهده الفقهى ، وحالته فى جهده لتحصيل العلم أيهما أرقى وانتاجها أرق ؟ ؟

والحقيقة أن المفسرين لم يتناولوا هـــذه المسائل التجريدية بالبحث والنظر ، وان وقعت عند الزمخشرى أو غيره فتقــع لــماما لاعادة جارية ، وبالنسبة للنقطة المثارة هنا فانه يمكن أن يجد الذين يرون سمو الفقه على العلم ســندا لهم مما قلناه من الفطنة والنباهة وقوة الاســتعداد وحسن الادراك ، وأيضا يحصـــل على أدلة من النصوص تقوى رأيه مثل « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » وكذلك يعثر مؤيدو العلم على أدلة متعددة من الكتاب والسنة تتحدث عن فضل العلم ومنزلة العلماء ، ولذا فيلزم وقفة فاحصة قصيرة .

وان أى متأمل يدرك الفــرق بين العلم والفقــه ، العلم عام يشمل العلوم الشرعية وغيرها ، والفقه خاص بالدين أو علم الشريعة ، العلم يوصف به المؤمن والكافر ، والفقه لا يتســمى به الا المؤمن

---

(٢٦) ناصر الدين احمد بن المنــير الاسكندرى المــالكى : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ذيل الكشاف ج٢ ٣٠ .

وحده ، العلم داخل الرحاب الديني شامل لعلوم الدين المتعددة ، والفقه تخصص فى جانب محدد ، العلم ملكة ابتكارية أو تحصيلية ، فيقال للمخترع عالم ، ويقال لمن استظهر المعارف وحفظها عالم ، والفقه ملكة استنباطية خاصة ، العلم هو الملكة التى يستطيعها جمع من الناس والفقه ملكة لا توجد الا لدى ندرة من المؤمنين الأفذاذ ، العلم يمدح لعمومه ، ولكونه مستطاعا لدى الأغلبية الساحقة من البشر ، والفقه يحمد لكونه عمل الأفذاذ ، ومهمة النابهين من العلماء أنفسهم ، العلماء قد لا يوصفون بالفقهاء ، ولكن الفقهاء يسمون بالعلماء لأن درجة الفقه لا تتحقق عند أربابها الا بعد أن يحصلوا علوما متنوعة تتعلق بالآلة وهى اللغة ، والمنطق ، والقرآن وعلومه والسنة وعلومها ، والعرف العام والخاص ، وأحوال المجتمعات، وطبائع ساكنيها •

العلم قد يكون نفعه دنيويا فحسب ، والفقه طريق تنظيم العلاقات بين البشر فى الدنيا ، وسبيل تحقيق السعادة الأخروية ببيان صحة العبادات والمعاملات فى الدرجة الأولى •

واذا كان كذلك فملكة كل من العلم والفقه تابعة لتلك الفروق بينهما •

خاتمة : لماذا تلك الاثارة لملكاتنا كلها :

فى أعقاب الحديث عن الملكات العامة ، والملكات الخاصة بالوحى والقول يجدر بنا أن نقف قليلا عند تحديد الهدف من وراء عملية الدفع الكبرى لملكاتنا ، وعلى الرغم من أنه فهم من السياق أثناء العرض الا أن المسألة من الأهمية بمكان الى حد أنه لا ينبغى تركها للسياق دون تحديد يخصها •

وينجلى الهدف من وراء الايقاظ للوعى فى ضرورة أن يتجه الانسان بكل ما وهبه الله من نعمة العقل الى معرفة الحق جلاله ، وأنت ترى أن التنبيه على هذا يلتى دائما مع كل آية تخص قوة

من قوى الوعى ، فليس هناك مناسبة ما لاى حال من أحوال الادراك فى اى مجال من المجالات التى يعمل فيها الذهن الا وجد الربط القوى بين نشاطنا الوعى والغاية التى يجب أن يتجه اليها ، حتى لتبدو دافعية الادراك ذاتها مقصودة لهـذا الهدف ولتلك المهمة . وان جاءت المعارف الدنيوية بعد ذلك فهى بالتبع لا بالقصد .

وتشتمل تلك الغـاية على معرفة الله سبحانه فى ذاته وصفاته وعدله وحمكته ، وكماله فى صفاته ، على ألا تتجاوز تلك المعـرفة حدود التوحيد ، واثبـات الوجود ، أما حقيقة الوجود ، وعلاقات الذات بكمالاتها من الصفات والأسماء ، وهل هى عينها او غيرها الى آخر ما هو معروف فلسنا مكلفين بذلك ، ولا طاقة لمداركنا عليها ، وليس فى النصوص السابقة أى اشارة الى ذلك فيجب الابتعاد عن كل ما يتصل باكتناه الذات أو ما يتصل بخصوصيتها ، ونحن نتفق عندما نقف بأنظارنا عند حـدود معرفة مطلق الوجود ، واثبـات الوحدانية وما تقتضيه الذات من كمالات الأسماء والصفات والأفعال. ونختلف اختلافا بينا اذا حاولنا أن نذهب بأنظارنا فيما وراء ذلك . ويمكن التحقق من ذلك بالقـاء نظرة على تراث المتكلمين الذى خلفوه لنـا فى علم الأصول .

كما تشتمل الغـاية على معرفة المولى سبحانه بالنسبه لافعاله وتدبيره فى خلقه ، وتصريفه ومشيئته وخضوع الكائنات كلهـا الى الارادة القاهرة ، والفعل النـافذ ، ومن ثم فحينما نعـرف الكون ونتأمله تأملا نبتغى به شئون دنيانا ، والوقف على أسرار هذا العالم العجيب فان تلك المعرفة خاضعة فى منبعها واتجاهها للأصول المرتبطة بذات الله وكمالاته ، ولا بأس أن نذهب فى معرفة الكون الى أقصى مدى طالمـا أننا مشدودون الى الله ، ومتصلون به . وتحكمنا معرفته فى بداية تفكرنا ونهاياته .

ومن الضرورات التى تقتضيها معرفته أنها شاملة لاثبات ما يجب له من كمال ولدفع ما لا يليق به من نقص فكما يلزمنا معرفة وجوده

وتوحيده — واتصافه بالأسماء والصفات وعدله وتدبيره . يلزم نفي الشريك عنه ، ونفى الولدية ، وجميع ما يتنافى مع ذاته جل شأنه من الجهة والتحيز والجسمية والعرضية وغيرها ، وبذا تكون المعرفة شاملة لجانبى الايجاب والسلب حسبما ورد فى كثير من الآيات الدالة على ذلك [**قل هو الله أحد الله الصمد**] ايجاب [**لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد**] سلب ، [**قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا**] ايجاب [**وما أنا من المشركين**] سلب [**بديع السموات والأرض**] ايجاب [**أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**] سلب . وبالتالى فقد لزم بهذا [وجوب المعرفة بالنفى والاثبات والتمييز بين الحق والباطل ، ومن لم يتحقق له معرفة نفي صفة الباطل لم يتحقق له معرفة اثبات صفة المعرفة بالحق] وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الحق لصحة الاعتقاد والمعرفة وعن الباطل للتمكن من المجانبة(٢٧) .

كما تلزم المعرفة فى ايجابها وسلبها يلزم معرفة فضله فى ارسال الرسل ، وبيان الحكمة فى ذلك ، ودقة التشريع الصادر منه على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة ما يقتضيه التشريع من العمل والحكم به ، وصلة ذلك بالايمان ، ثم معرفة النهاية المحتومة للبشر وجميع المخلوقات والبعث وما فيه من ثواب وعقاب .

وأود أن أقول ان تلك المعرفة باعتبارها غاية التأمل بالملكات كلها مما اتفق عليه العقلاء من أرباب هذا الدين وهى مسألة قد توافر عليها الاجماع الى حد أن يذهب القاضى عبد الجبار الى حد القول بأن النظر [فى طريق معرفة الله واجب ، ثم ليس هو المقصود فى نفسه ، وانما المقصود منه المعرفة ، حتى لو أمكننا تحصيل المعرفة بدونه لكان لا معنى لايجابه] (٢٨) فالمعرفة غاية يجب أن نسعى اليها

---

(٢٧) أبو المظفر الاسفرايينى : التبصير فى الدين ٩ ، ١٠ ، وانظر الشهرستانى نهاية الاقدام ٢٤ .

(٢٨) شرح الأصول الخمسة ٤٧ .

بكل طريق ، سواء كان هذا الطريق هو النظر أو غيره وسوف نبين قريبا أن الطرق الموصلة الى المعرفة أكثر من طريق .

ومع انعقاد الاتفاق على المعرفة الا أن نظار المسلمين من المتكلمين قد اختلفوا فى العمل ما بين تارك له كالمرجئة الذين يجعلون الايمان هو المعرفة بالله والمحبة لله ، والتصديق برسوله وكتبه ، ويؤخرون العمل ، وما بين مثبت للعمل على أنه من جملة حقائق الايمان كالمعتزلة والخوارج ، أو على أنه شرط كمال كالأشعرية(٢٩) ، ولو أنهم تمسكوا بأهداب النصوص والنظر فيها وتدبرها ما اختلفوا هذا الاختلاف ، ان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهموا الدين ايمان وتشريع ، وتصديق واقرار وعمل ، دون تمييز فهم وفقه واجتهاد ومجاهدة با تفرقة بين ما هو أصل ، وما هو فقه ، الكل دين ، والكل واجب الاتباع ، وهو محل الاجتهاد والاستنباط ، وللعقل نصيبه من ذلك ، وللنص سعته ويقينه .

---

(٢٩) راجع الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ والتبصير ٦٠ — ٦١ .

الفصل السابع

النشاط الادراكى بين كسبيته وحكمه

استفسارات حول منابع المعرفة :

لقد حثنا القرآن على المعرفة ، وأيقظ فينا قوى الوعى ، وتناولنا فى الفصول السابقة طبيعة كل قوة وعلاقتها بغيرها ، والارتباط بين القوى المتعددة ، وخطاب القرآن لهذه الأحوال مجتمعة ومفصلة والآن نوجه عدة أسئلة سوف نجيب عليها فى هذا الفصل .

هل مغزى الخطاب الالهى أن مداركنا تتجه الى الأشياء بقصد منا ، ولهدف فهمها ووعيها ؟

واذا كنا أحرارا فى قصد المعرفة فكيف تخرج المعرفة منا ؟ هل تخرج بحكم العادة والسببية ؟ أو بشىء ومعنى يخلقه الله فينا ؟ أو أن معارفنا ضرورية وتخرج منا بالتوليد والطبيعة ؟

واذا كان الله قد طالبنا بأن نعرف بواسطة ملكاتنا فهل معنى ذلك أننا ليس لنا طريق سوى هذا الطريق القائم على أعمال الذهن والعقل ؟ أو أن لنا طريقا آخر يمدنا بالمعرفة من غير ما سبب ولا قوة ادراكية ؟

واسمحوا لى أن أبدا من آخر سؤال ، وأن أتناوله بالحــديث قبل الأسئلة السابقة ذلك لأنها مترتبة على بعضها ، ثم اذا ما فرغنا منه انتقلنا اليها مباشرة •

طريق الاصطفاء اثارة وتنوير للملكات .

يتحدث العلماء عن طريقين للمعرفة الانسانية ، أحدهما ما يعرف بالطريق الكسبى لكونه يقوم على جهد الانسان وتوجهه الى الأشياء بغية معرفتها ، وهو ما نتعرض اليه بعد ذلك مباشرة ، والثانى طــريق الوحى والالقـــاء ويتميز هـــذا الطريق بخصائص لا توجد ولا تتحقق مع غيره •

وأهم تلك الخصائص أن صاحبه قد لايدرى كونه محظيا بتلك الرتبــة ، وقد لا يتدخل فى اعداد نفسه لذلك ، بل قد يكون اختياره لهـــا سابقا على وجوده ذاته ، كما هو شأن موسى ، وشأن النبى محمد صلى الله عليه ، حيث بشر الله به فى الكتب السابقة قبل زمانه بكثير ، وأخذ المواثيق على الأنبياء وأن يبلغوا الأقوام بذلك ، وأن يخبروهم بضرورة التصــديق به عند وجوده [**واذ أخذ الله ميثاق النبيين لمـــا أتيتكم من كتاب وحكمـــة ثم جاءكم رسول مصدق لمـــا معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقـــررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشـــهدوا وأنا معكم من الشاهدين**] (١) [**وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمـــان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهـــدى الى صراط مستقيم**] (٢) •

وصاحب هذا الطريق لا خيار له فى نوع المعرفة التى يصطفيه الله لهـــا ، ولا فى كمها ومقدارها ، ولا فى بدايتها ونهايتها ، ولا فى

---

(١) آل عمـــران ٨١ .
(٢) الشورى ٥٢ .

تحديد الأحكام والقواعد التى تشتمل عليها ، ولا يستطيع تعيين الزمان والمكان لنزول أى معنى من معانيها ، ولا اجتهاد له بالاضافة أو النسخ ، أو التبديل والتغيير ، كما أنه لا دخل له مطلقا فى الطريقة التى يلقى الله بها هذه المعارف اليه ، وهل تكون بواسطة ملك ، او بالقذف فى الروع ، أو بالرؤية المنافية ، أو بالتكليم المباشر ، وحتى شرح آيات الوحى وتفصيل الأحكام التى تشتمل عليها فالله يوحيه اليه بيانا وتعليما للبشر •

والعلم الوارد عن هذا الطريق كما هو فى القرآن بصفة خاصة يعطينا فكرة صحيحة وواضحة عن الله وصفاته وأسمائه وأفعاله ، وعن النبوة والبعث ، ويقدم مناقشات مسهبة فى هذا الشأن ويسوق أدلة متنوعة للتدليل على الألوهية الواحدة ، وعلى صدق النبوة ، والتأكيد على وقوع البعث ، وهو من هذا الجانب يجمع بين كونه خطابا الهيا خالصا ويقينا ، وبين كونه مقنعا لقوى الانسان الواعية ، يستخدم أساليبها بصورة أدق ، وبصيغ أحكم ، أى أنه الهى المصدر اقناعى الدلالة ، يخاطب العقل البشرى فى قوة وحجة •

وكذلك فهو يمدنا بنظام دينى يسع جوانب الحياة كلها من سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وأسرية ويحدد علاقات الأفراد ببعضهم ، وفيما بينهم وبين الحاكمين ، وفيما بين الجماعة المؤمنة الواحدة وغيرها ، وبجانب هذا النظام فهو يعطينا فكرة قوية عن الكون والنفس البشرية ، ويزودنا بمعارف مضت لا سبيل لنا الى الوصول لمعرفتها . ويقدم الينا أخبارا عن المستقبل لا تمتد اليها قوانا بحال من الأحوال ، ويكشف لنا عن عالم وراء عالمنا الذى نعيش فيه ، عالم ليس كعالم الرؤية أو الرؤى أو الخواطر والأ... مهما تطاولت كل هذه المدارك الانسانية •

ومن يظفر بهذا الطريق قد لا يستطيع وصفه لنا ، أو وصف الحقائق التى يشاهدها فيه الا بضرب من التمثيل يقرب به الى أذهاننا ما دق وخفى ، فعن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم [أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول [قالت عائشة رضى الله عنها ، ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وأن جبينه ليتفصد عرقا](٣) .

وهل نتصور أن ما جاء فى الاسراء والمعراج وصف حقائق الرحلة كما هى وكما وقع فيها ابتداء من ركوب البراق حتى فرضية الصلاة ، أن القرآن الكريم قد أخبرنا فى وجازة تامة اذ قال [لنريه من آياتنا الكبرى] (٤) ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ساق لنا الرموز الحسية التى تصور المعانى ، لأنها تلك التى تقترب من عقولنا مثل رمزية الماء واللبن والخمر ، ومثل الأمثال التى ضربها لمن يعذب جزاء ما اقترف من السيئات .

وان القرآن الكريم أخبرنا أن الله يوحى للأنبياء ، ولبعض العبيد الذين يجتبيهم ، ولكنه لم يحدد بالضبط الكيفية التى تتم بها تلك المعرفة ، وهو يدلك على ظاهرة النبوة جملة وتفصيلا : ولكنه لا يشرح كيف يلقى الله الى عباده المصطفين ما يجب أن يلقاه لهم ، ولا كيف يمنح بعض المحظوظين من البشر علوما دقيقة هى فى الأصل من جملة علوم النبوة .

ولما كان الأمر كذلك لم يجد أهل العلم سبيلا واحدا يكشفون فيه عن كيفية تلك الطريقة سوى اثباتها من ناحية ، والتصديق بأنها طريق المعرفة البشرية أو التعبير عنها بأنها نور الهى يلقيه الله فى القلب ويكشف به السرائر ، ويريهم الأشياء كما هى ، وينزله على قلوبهم من

---

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج١ ٢٨
(٤) الاسراء من الآية ١

العلم والقــوة ما يشاء ، وبالكيفية التى يشاؤها ، وبالوسيلة التى يريدها : بالملائكة ، أو الالهــام ، أو التكليم كما سبق (٥) .

وأصحاب هــذا الطريق لا يكفون دائما وفى كل مجال عن نسبة معارفهم الى الله ، ورد كل علم حصلوا عليه الى فضله ومنته . فقد قال نوح لقومه [قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، ابلغكم رسالات ربى وانصح لكم واعلم من الله مالاتعلمون] الأعراف ٦٢ [قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمــة من عنــده فعميــت عليكــم وأنتــم لهــا كــارهون] هــود ٢٨ وقال يعقوب [انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمــون] يوسف ٨٦ — وقال الله لنبيــه الحبيب محمــد صلى الله عليه وسلم [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما] النساء ١١٣ ، وأمره أن يقول لقومه ولأمتــه [قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تتفكرون] الأنعام ٥٠ .

وأول اشارة صريحة الى هذا الطريق ما جاءت بصدد تعليم الله لآدم قال سبحانه [وعلم آدم الأســماء كلها] البقرة ٣١ قال القــرطبى [علم معناه عرف ، وتعليمه هنا الهام علمه ضرورة ، ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السلام (٦) ويكون ذلك عند البيضاوى [اما بخلق علم ضرورى بها فيه أو القــــاء فى روعه ، ولا يفتقر الى سابقة اصطلاح ليتسلسل ، والتعليم فعل يترتب عليه العلم] فان كان التعليم من الله ترتب العلم لا محالة ، ولا يتخلف ، بخلاف ما اذا كان التعليم من البشر فيجوز أن يتخلف

---

(٥) راجع تفسير البيضاوى ج١ ٣٥، والغزالى فى الاحياء ج٣ ٦٤، وابن تيمية فى نقض المنطق ٢٨ — ٢٩

(٦) الجامع لأحكام القرآن ج١ ٢٧٩

[illegible] العلم والتعليم ، ولذا يقال علمته فلم يتعلم) .
[illegible] ويجب أن نعلم أن التعليم وان صح نسبته الى الله لكن [illegible]
اطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به (٧) .

وقد يقع هذا التعليم لغير الأنبياء كما وقع لفتى موسى ، وقد قال الله فيه [آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما] الكهف من الآية ٦٥ ، كما يقع لبعض المخلوقات [وأوحى ربك الى النحل] النحل ٦٨ ويجوز فى كل علم نظرى أن يبدله الله . وأن يجعله علما ضروريا هينا من باب قلب العادة حسبما صرح عبد القاهر الجرجانى (٨) ، وعبارته تدل على أن المعارف الانسانيه فى حد ذاتها قد تتشابه من حيث المعنى ، وان اختلفت طريقا . أى يجوز أن تتشابه معرفة الولى ومعرفة الفيلسوف ، لكن الأولى بالالهام . والثانية بالتعقل ونفس الفكرة نطق بها ابن سينا عندما ذكرت عنده بعض المعارف لولى قال [انه يشاهد ما أعلم وأنا أعلم ما يشاهد] .

وأخيرا فلا ينبغى أن نفهم من خلال الحديث عن هذا الطريق وأنه كما صورناه منحة وفضلا وهبة من الله لبعض العبيد أن الأنبياء بالذات يستغنون عن ملكاتهم بما يلقى اليهم من معرفة ، وأن ادراكهم يتوقف نهائيا ليحل محله وحى الله فى كل مسألة صغيرة أو كبيرة ، دينية ودنيوية ، خاصة وعامة ، كلا ان الله سبحانه انما يبنى اصطفاءه واختياره للعبد الذى يوحى اليه أو يلهمه على أساس رجاحة تلك القوى الادراكية لدى الأنبياء بالذات ، وبصورة يتفوقون بها على غيرهم ، وهذا هو شرط الفطنة الذى يشترط أن يكون متحققا فى كل نبى .

وأيضا فان كثيرا من المواقف يستخدم فيها الأنبياء ملكاتهم العقلية ، ألم يستخدمها النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وأحد ،

---

(٧) تفسير البيضاوى ج١ ٣٩ ، ٤٠ — ٣٦ [illegible] .
(٨) أصول الدين ١٥ .

وفى صلح الحديبية ، وقبل ذلك فى الوثيقــة التى كتبت بين المؤمنين والكفار واليهود بعد الهجرة ، وفى معاهداته مع اليهود بالمدينة ويوم خيبر ، وفى مصالحاته المتعددة مع القبائل ، ولقد كان الصحابة يميزون بين ما هو وحى وما هو من فطنة النبى صلى الله عليه وسلم وكسبه ، وان غم عليهم شىء سألوا أهو من قبيل الوحى أو الرأى ، وكذلك فان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستثمر ملكاته أيما استثمار فى الطريقة التى يقدم بها دعوته ، وفى مخاطباته للنفوس بطرق متعددة طبقا لمــا عليه المخاطبون ، ويفصح عن أنه أمر [أن يخاطب الناس على قدر عقولهم]

ومهما وصل الأوليــاء فى صفائهم وكشفهم فانهم لن يتخلوا عن ملكاتهم للتعلم والتعامل ، والطاعة ، اللهم الا اذا فقدوها أصلا ، أو طاشت عقولهم عند أول بارق الهى ، ويسمى هذا الصنف بعقلاء المجانين •

وحديثنا عن طريق الاصطفاء لا يعنى قطع الصلة عن الملكات الادراكية بما هو أجنبى عنها ، وذلك لأن الوحى يعتبر كما رأينــا حافزا للقوى الواعية على العمل ، ومبصر لها فى مجالات المعرفــة ، فهو مصباح يضىء لعقولنا طريق العمل بصورة صحيحة ، وينبهها الى مواطن الزلل خاصة فى عالم الغيب ، وفى قضايا الألوهية والتشريع •

ولننتقل الآن للحــديث عن طريق المعرفة الكسبى ، وللاجابة عن الأسئلة المطروحة •

نحن نعرف الأشياء بالقصد وبالضرورة :

وبعبارة أخرى هل تتجه ملكاتنا الى الأشــياء لتعرفها بقصد منا ؟ أو أن معارفنا تأتينا بدون دراية منا ؟

وقبل أن نجيب على تلك الأســئلة نعلم أننا فى أعماقنا قوة تدرك ، ومحس نحن أننا كنا نجهل شيئا ثم صرنا نعرفه ، واحساسنا

بلايدافع ولايغالب ، وبالتجربة منخلالهذا مشاهدة الأشياء المحيطة بنا، أمر من خلال التعلم يثبت لدينا أننا قد حصلنا بالمشاهدة أو التعلم معارف كنا قبل محرومين منها ، ولا نشك لحظة واحدة أن قوانا الحسية والعقلية ، وملكاتنا الادراكية هي محك الوعي اذا توجهت الى الأشـياء ، وهي قادرة على المعـرفة عندما تطلب أمرا لدراسته وفهمه ، بينما لا تحقق تلك المعرفة اذا انصرفت عنه ولم تلق بالا له ، ان شخصين قد يجلسان معا في جلسة واحدة ، ونعرض مسألة يعلمها أحدهم ، ويسأل الثاني فيقول كنت ساهيا عن متابعتها ، وما ركزت بقواي لفهمها واستيعابها ، وعنـدما نعيد له الشرح ويتوجه هو بقصد الينا يقول الآن فهمت ، ويمر رجل أمام أشخاص فيقـرر البعض أن فلانا مر لأنهم رأوه ، ويقول آخرون نحن لم نشاهده لأنهم لم يتجهوا بحواسهم اليه ساعة مروره .

وهكذا يتأكد لنـا أننا نعرف ، وأن قوانا طريقا آخر غير طريق الوحي يمكننا أن نتجه به الى الأشـياء كي نعيها ونحكم عليهـا ، والبيضاوي والغزالي وغيرهما يثبتون هذا الطريق أساسا من أسس المعرفة ، وسبيلا من سبل الهـداية المتعددة ، والتي تكون بافاضة القوى التي يتمكن بها الانسان من الاهتداء لمصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنية والمشاعر الظاهرة ، ويعتبرون الهداية الى الله عن هـذا الطريق قائمة وصحيحة خلافا للطوائف المنكرة لذلك [٨] ، والقوة العقلية قادرة على الاستدلال لاثبات المطلوب الأسمى ، وقادرة في الوقت نفسـه على التوجه الى المسـائل للنظر فيها كيف يمكن الاستدلال عليها ، وعندما ندلل على الشيء نسمى تلك المرحلة بالنظر الاستدلالي ، وعندما ننظر في الشيء لنتعرف على الكيفية التي يمكننا بها أن نستدل يسمى ابن تيمية تلك الحالة بالنظر الطلبي [٩] ، ولابد

---

(٨) مثل السمنية الذين ينكرون العـلم النظري ويعترفون بالحس وحده : أصول الدين للبغدادي ١١

(٩) الرد على المنطقتين ٣٥٢ — ٣٥٣ ، وأصـول الدين ٨ — ٩ وانظر تفسير البيضاوي ح١ ٣٥ والاحياء ح١ ٩٤

أن تتحقق شروط لكى يؤدى النظر غايته ، وأهمها : الحياة والعقـل وعدم النوم والغفلة وعدم العلم بالمطلوب اذ لا طلب مع الحصول ، وأن تكون لدينا معارف نستطيع بها معرفة الجـديد ، وعدم الجزم بنقيض المطلوب ، لأن ذلك يمنعه من الاقدام على الطلب (١٠) .

المسلمون متفقون اذا على وجود القوى الادراكية فينا ، وعلى أننا نعرف بها عند تحقق الشروط اللازمة لها ، وأن كثير من المعارف يمكن أن نحصلها عن هذا الطريق ، أو أنها تأتينا من خلاله . لكن بعد هذا الاتفاق اختلفوا فى أمور كثيرة ، منها ما هو حول طبيعة الادراك وهـل هو ضرورى أو كسبى ، بالاختيار أو بالطبع ، وهـل بدايته ارادية أو لا ؟ وهل للأشياء المدركة دخل فى عملية الادراك أو لا ؟ وما محل الادراك فى القلب أو فى الدماغ ؟ الى غير ذلك من الفروع والمسائل المتعلقة بهذا الجانب ، وان دل الاختلاف على شىء فانمـا يدل على توجه المسلمين نحو التعمق فى مثل هذه البحوث النظرية خاصة بعد أن قطعوا شوطا فى العلم لا بأس به وبعـد أن دخلت العلوم الفلسفية تحمل معالجات لهذه المسائل ، ولقد كانوا قبل ذلك يجتهدون ويستنبطون ، ويعرفون بعقولهم ، ويعلمون أن نشاطهم كسـب لهم ، وأنهم أمروا بذلك من جهة الدين ، فهم يفـكرون طبقا للأوامر الصادرة فى هذا الشأن ، ولم يخوضوا الا قليلا فى هذه المواضع محل الاختلاف .

والذى يهمنا الآن من بين تلك المسائل المتنازع عليها هو ما يتصل بقصد المعرفة وعدم قصدها ، وهل نعرف بارادتنا أو بدون ارادة ؟ وهل جميع المعارف بالقصد ؟ أو بعضها به وبعضها بالضرورة ؟

حول هـذا يقرر العلماء أن معارفنا قسمان : ضرورية وهى تلك التى تحدث فينا من غير اســتدلال ولا قدرة عليها ، أو هى العـلم

---

(١٠) شرح المقاصد ج١ ص ٧٤

[الذى لا يمكن للعالم بهنفيه عن النفس بوجه من الوجوه] وهـذه المعارف بديهيـة فى الاثبات والنفى ، وتحدث فينا عن طريق العقـل وأولياته ، والحس ومشاهداته ، وأما المعارف المكتسبة فهى تلك التى توجد لدينا بقدرة منا ، وبارادة وتوجه الى الأشياء ابتداء واستدلالا، وتكون عقلية بحتة ، أو شرعية ، وكل منهما مكتسب للعالم به واقع له بالتأمل والنظر والبرهان ، وبعض هذه المعارف أجلى من بعض (١١).

ولو رجعنا الى ما سبقت دراسته فى الملكات ، وكيف طالبها الله سبحانه بأن تعمل فى مجالات النفس والكون وآيات الله المنزلة ، وأثارها لكى تعرف الله سـبحانه تبين لنـا أن هذا التكليف لا يتم الا بناء على قدرة الاكتساب للمعرفة ولو أن معارفنا كلها ضرورية ما كان هناك معنى لهـذا الطلب المتـكرر بالنظر والتفكر والتبصر والتذكر ، وكذلك لو ألقينا نظرة على مادة « عـلم » فى القرآن الكريم وجدناها تحمل ثلاثة اتجاهات بارزة :

اتجاه ينسب علوما ألقاها للبشر بالفعل الى الله ، وهى علوم النبوة ، وتحدث لهم بالضرورة وبالالقاء كما أشرنا سلفا ، ويشترك معها فى عنصر الضرورة ما يحدث فينا من بديهيات حسية أو عقلية ، ومحل الاشتراك بين علوم النبوة والبديهيات هو أن كلا منهما يحدث فى القلب أو العقل بدون قصد وارادة ، ويخطر فينا بقوة لا تحتاج الى الاستدلال ، وان كانت علوم النبوة أوسع بكثير وأثبت يقينا من تلك البديهيات التى يجوز أن تتغير بين الحين والحين .

وهناك اتجاه علمى كسبى يبرز من خلال الحديث المستفيق عن العلم ومادته ، وفيه ينسب الله سبحانه العلم الى البشر ، ويخاطبهم بصيغة الأمرمثل « اعلموا » أو بصيغة المـاضى « عـلم » أو المضارع

---

(١١) البغدادى اصول الدين ٨ — ٩ ، وشرح الأصول الخمسة ٥٢.

« تعـــلمون ويعلمون ، ونعلم وتعلمـــون » ، ويصف ... « العالمين » لمـا فى حوزتهم من قـــدرة على العلم ، أو ... فعلا من معارف وعلوم .

وأما الاتجاه الثـــالث فهو اتجاه يمـــيز ويفرق بين ... الله الاحاطى وعلم البشر الكسبى المحـــدود ، ويبين أن علمه ... حتى فى تلك المسائل التى نعرفها نحن يمتاز بالاحاطة لها ... بينما علمنا قـــد يقتصر على بعض مظاهر وأشكالها ... وبالاضـــافة الى ذلك فهناك علوم المـــاضى والمستقبل والغيب كله لا طاقة لنـــا بها ، فيختص بها الله ، ويعرفنا منها بما هو على قـــدر طاقتنا واحتياجاتنا (١٢) .

فأنت ترى أن العلوم البشرية المكتسبة لها نصيب من حديث الله سبحانه ، وخطاب الحق للبشر يتم بنـــاء على قدرتهم فى كســـب المعارف وتحصيلها ، وتعتبر العـــلوم التى حدثت فى البشرية ، والتى نشأت فى الملة الاسلامية شاهدة على تلك المقدرة الفائقة للانسانية ، ولقـــد فتح الله الكون كله لعموم البشر مؤمنهم وكافرهم لكى يعرفوا ويعلموا ، ولكى يتجولوا بأنظارهم على سطح الأرض ، وفى عمق باطنها ، وفى أغوار النفس ، ثم يذهبوا بعيـــدا عن مواطن أقدامهم بأى وسيلة كانت الى الآفاق العليا وما فيها فهى الأخرى مجال من مجالات التفـــكير والدراسة ، والوعى والمعرفة .

وما دام قـــد ثبت لدينـــا أننا نعرف علوما بالضرورة وأخرى بالكسب فكيف تتم عملية انطباع المعارف واستقراره فى وعينا ؟ هذا ما نبينه فى الفقرة التـــالية :

---

(١٢) راجع مادة علم : المعجم المفهـــرس **لألفاظ القرآن** الكريم وما بعـــدها .

على اى صورة تنطبع المعارف فينا وتخرج منا ؟

هناك طريق الوحى ومعارفه ضرورية ، وطريق الكسب ومعارفه استدلالية ، وهناك معارف تلقى الينا ونعرفها على أنها بديهية ، وبعد هذا نود أن نقف على محاولات المسلمين لمعرفة الكيفية التى تتم بها المعرفة انطباعا فينا ، وشعوروا بها وقدرة على الافصاح عنها .

وعلى الرغم مما قلناه سلفا من أن كيفية الادراك غير معروفة على وجه الدقة ، ويسلم العلماء المحدثون والتجريبيون بعدم الوصول الى العلم بها (١٣) الا أننا نثيرها هنا من جديد لنبين محاولات المسلمين السابقة فى هذا المجال ، ولما لتلك النقط من علاقة خاصة بالمعرفة الالهية بالذات ، ولأننا لا نستطيع أن نتناول مشروعية النظر فى الاسلام ما لم نقدم بين يديها تلك المسألة .

وحول تفسير عملية الادراك يقدم الينا المسلمون عدة شروح لها:

١ — الادراك كله ضرورة :

ومعنى كونه ضرورة أى بالالجاء لا بالاختيار ، أو هو العلم الذى يطلق على ما يحصل فينا لا من قبلنا بشرط أن يكون جنسه داخلا تحت مقدورنا ، ويشبهونه بالحركة التى يقال فيها حركة ضرورية لما دخل جنسها تحت مقدورنا ، ولم يقل لون ضرورى لأنه لا يدخل تحت مقدورنا ، والمعارف الضرورية لا تنتفى عن النفس بشك ولا بشبهة ، ولا بوجه من الوجوه (١٤) .

وأصحاب هذا الرأى منهم من يقول ان بعض هذه المعرفة

---

(١٣) أنظر كتابنا « المنهاج القرآنى » : ٢٣٤

(١٤) الاصول الخمسة ٤٨ — ٤٩

ضرورى مثل معرفة أن للعالم صانعا ، وما سوى ذلك فهى استدلالية ، ويعتبر غيلان الدمشقى وأبو الهذيل العلاف من مبتدعة هذا (١٥) ، ومنهم من يرى أن جميع المعارف ضرورية ، ومن هؤلاء أبو بشر ثمامة ابن الأشرس النميرى (٢١٣ هـ) ، وقد انفرد عن مجموع المعتزلة بتلك البدعة ، وطبع لفكرته هذه فقد زعم أن من لم يضطره الله الى معرفته لم يكن مأمورا بالمعرفة ولا منهيا عن الكفر ، وكان مخلوقا للسخرة والاعتبار كسائر الحيوانات التى ليست مكلفة ، وسوف يصير الدهرية والزنادقة فى الآخرة ترابا (١٦) ، والرافضة يأخذون بهذا الرأى ، ويصيرون على أن جميع المعارف اضطرار ، والخلق مضطرون فيها ، والنظر والقياس لا يؤديان الى علم وما تعبد الله العباد بهما ، واذا منع الله المعرفة عن بعض البشر كلفهم الاقرار مع منحه اياهم المعرفة لذاته ، وحال الروافض لا يستقر على قرار بالنسبة لهذه النقطة فقد يقولون بالاضطرار دون سابق نظر واستدلال وربما قدموا ذلك على الاضطرار (١٧) ، ومن أنصار هذا الزعم صالح قبه .

ويزعمون أن المعارف لو لم تكن اضطرارا ، وكانت من فعلنا لجاز أن يختار الواحد منا الجهل بدل العلم ، لأن الذى يقدر على شىء يقدر على جنسه ، والمعلوم أنه لا يمكن ذلك فليس الا أن المعرفة لا تكون من فعلنا بل هى ضرورية تحدث فينا .

وأراحنا القاضى عبد الجبار بالرد عليهم من وجوه ، قال ان

---

(١٥) الشهرستانى الملل والنحل ح١ ٢٧٤ — ٢٧٥

(١٦) عبد القاهر بن طاهر — الفرق بين الفرق ١٧٢ ، والتبصير فى أصول الدين ٤٨

(١٧) الأشعرى مقالات الاسلاميين ١١٨ — ١١٩ . ومن القائلين بالضرورة المؤيد بالله أحمد بن الحسن بن هارون الآملى (٤١١ هـ) ولكنه بقصرها على الأنبياء والأولياء الصالحين ولا بأس فى ذلك .

العلم بحسب نظرنا يقع على طريقة واحدة ، ووتيرة واحـدة مستمرة فيجب أن يكون ثمرة نظرنا ، واذا كان كذلك فيجب أن تكون المعرفة من فعلنـا لأن فاعل السبب ينبغى أن يكون فاعل المسبب ، وان كانت المعارف من فعلنـا لم يجز أن تكون ضرورية ، وأيضـا فانها تقع بحسب قصـودنا ودواعينا ، وتنتفى بحسب كراهتنا وصوارفنا مع سلامة الأحوال والقوى ، ولو كان العـلم ضروريا كما يزعمون لكان الكفار معذورين ، لأن المعرفة موقوفة على الله ، فاذا لم يمنحها لبعض الخلق عذر بعدمها فى كل مواقفه الاعتقادية والسلوكية ، واذا صح أن المعارف ضرورية لزم ألا يختلف فيها العقـلاء كما فى سـائر الضرورات ، ومعلوم أنهم مختلفون ، وان جاءتنا المعرفة بالضرورة فى كل حال لامتنع نفيها عن النفس بشك أو شبهة ، والمعلوم خلافه ، ومن ثم ارتد بعضهم بعـد أن برزوا فى الاسلام كابن الراوندى وأبى عيسى الوراق (١٨) ، الى آخر ما دبجه القاضى من ردود عليهم.

٢ ــ المعارف طباع

ان المعارف كلها طباع ، هذه هى عبارة عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٠ أو ٢٥٦ هـ) وجاراه فيها أبو القاسـم البلخى (٣٣٩) من معتزلة بغـداد ، ويضيفون الى ذلك أن العباد لا اختيار لهم فيها ، ومن عرف شيئا فانما يعرفه بالطبع لا بأن يتعلمه ، ولا بأن يخلق الله تعالى له علما به ، واذا أضيفت المعرفة الى العبـد فباعتبار ارادته لها لا باعتبار كسبه ، ومعنى اسناد العلم الى الطبع أن الادراك فعل لمحـله الذى هو قائم به ، ويصدر عن هذا المحل كما تصدر أى حركة أو أى فعل بالطريق الطبعى ، وحسب وظائف القوى البدنية ، وزعم أن من عرف وآمن فهو مؤمن ومن أنكر عن معرفة فهو مشرك ، ومن جهل فهو معذور ، والجنة تجذب أنصـارها وتستبقيهم ، والنـار

---

(١٨) الأصول الخمسة ص [illegible]

كذلك (١٩) ، ورد أبو مظفر الاسفرائيين بأن هذا القول لا يترتب عليه ثواب ، ولا عقاب ، ولا رغبة في الجنة ولا رهبة من النار ، وانما لا يترتب الثواب ولا العقاب لأن أصل المعرفة لا تصدر عن حرية واختيار ، فكيف يعذب من لم يمنحه المعرفة ، وكيف يثيب من هو متفضل عليه بالاصالة ، ماذا قدم هذا ، وما حيلة ذاك وقد حرم من لذة المعرفة والطاعة ، وكيف نرغب في الجنة أو نرهب من النار من لا ارادة له في أساس العمل في الدنيا ولا عدل بالنسبة الى حسابه في الآخرة .

واتهمه الاسفرائينى كذلك بأنه انما صنف كتابه الحيوان ، وبين فيه طبائعها ليروج لتلك البدعة الشنعاء وليوعز الى النفوس أن الحيوان والانسان يعملان بحسب الطبائع على غرار ما يذهب اليه الطبائعيون . .

٣ — المعارف بالتوليد

يبدو أن القائلين بالضرورة لم يفرقوا بينها كثيرا وبين الطبع والتوليد ، أو أن كتب الأصول لم تنقل بدقة عن أرباب الأقوال ، ومن ثم نرى واحدا يعد من أنصار المعرفة الضرورية ، وهو نفسه ينسب اليه القول بالطبائع أو التوليد ، ومرد هذا المزج الى قرب معانى الألفاظ الثلاثة : الضرورة والطباع والتوليد ، والى أن مؤلفى كتب الفرق والأصول أطلقوا أى لفظة من الثلاثة على من يقل بالاستدلال عن حرية وقصد واختيار .

نقول هذا لأن الجاحظ قال بالطباع ونسب اليه القول بالضرورة ، وأن ثمامة بن أشرس المعتزلى اعتبر من أنصار الضرورة وفى الوقت نفسه قالوا بأنه مبتدع فكرة التوليد ، وأحيانا يورد الواحد العبارتين

---

(١٩) الشهرستانى الملل والنحل ح١ ١١٣ — ١١٤ ، التبصير ٤٩ — ٥٠ ، والفرق بين الفرق ١٧٥ ، والأصول الخمسة .

معا عندما يتحدث عن واحـــد بعينه ، وذلك مثلما فعل الشهرستانى مع ثمامة هـــذا يقول عنه : زعم [أن المعرفة متولدة من النظر ، وهو فعل لا فاعل له كسائر المتولدات] ثم بعد ذلك يذكر عنه أنه قال بأن [المعارف كلها ضرورية ، وأن من لم يضطر الى معرفة الله سبحانه وتعالى فليس هو مأمورا بها] (٢٠) .

ولكن اذا علمنا أن التوليد هو أن يصدر عن الفاعل فعل بواسطة فعل آخر صادر عنه (٢١) ، وعلمنا قبل ذلك أن الضرورة الجاؤنا الى علم لا نستطيع دفعه ، وأن المعرفة الطبيعية هى فعل للمحل استطعنا مع علمنا بكل هـــذا أن نميز الفرق بين الثلاثة بوضوح من حيث أن الضرورة تقذف لعلم لا سبيل لنا به ، ولا دخل للمحل فى استحداثه فهى غير التوليد والطبع وكذلك المعرفة الطبيعية فهى غير الضرورة من جهة أنها تنشأ من فعل المحل ، والضرورة ترد الى المحل من خارجه ، والتوليد غيرهما معا لمــا أنه فعل بتوليد عن فاعل بتوسط فعل آخر ، وليس كذلك الضرورة والطبع كما ترى .

ولا يرتضى ابن تيمية القـــول بالتوليد على اطلاقه بل يرى أن هـــذا الكلام بعضه حق ، وبعضه باطل ، فان كان دعواهم أن العـــلم المتولد حاصل بمجرد قدرة العبد وحدها فذلك باطل ، لأنه انما يحصل بأمرين : قدرة العبد وسبب آخر كالقوة التى فى السهم والمقبول الذى فى المحل (٢٢) ، ولو كان النظر مولدا للمعرفة لكان تذكره مولدا كذلك لعـــدم الفرق ، واللازم باطل كما جاء فى شرح المقدمة .

---

(٢٠) الملل والنحل ج١ ١٠٦
(٢١) شرح الدوانى على العقائد ج١ ١٧٦ وما بعدها .
(٢٢) نقض المنطق ٣١–٣٢ والقول بالتوليد هو رأى غالبية المعتزلة:
شرح المقاصد ج١ ٥٩

٤ — الادراك معنى يخلقه الله فينـا

يذهب الأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب الامام مالك، والامام الشافعى ، والامام أحمـد وغيرهم الى أن الادراك فعل لله تعالى يخلقه فينا عقب تمام النظر بطريق اجراء العادة ، ويعبر الآمدى عن تلك الفكرة بقوله [ان هذه الادراكات ليست بخروج شىء من الآلة الداركة الى الشىء المدرك ، ولا بانطباع صورة المدرك فيها . وانما هو معنى يخلقه الله تعالى فى تلك الحاسة (٢٣)] .

وهم بعد اتفاقهم على كونه يقـع عقب السبب وهو النظر ، وأن العادة جارية بذلك ، وأنه فعل الله لأن جميع الأشياء مستندة اليـه يختلفون حول وقوع الادراك بتلك الحيثيات كلها هل يقع بالايجاب أولا ؟

يذهب البعض الى أن اجراء العادة وتكررها دائما يقـع من غير وجوب ، بل مع جواز ألا يخلقه الله على طريق خرق العادة ولله ألا يوقع الادراك مع وجود كافـة الأسـباب المؤدية اليه ، وله أن يوقعه مع فقـــدها .

والامام الغزالى يقرر أن أكثر الأشـعرية يقولون بأن النظـر [يستلزم العلم بالنتيجة بطريق الوجوب الذى لابد منه لكن لا بطريق التوليد] ويرون أن الوجوب هنا لا يعنى عدم وقوعه بفعـل الله ، لأن وجوب الأثر [كالعلم مثلا بمعنى امتناع انفكاكه عن أثر آخر كالنظر لا ينافى كونه أثر المختار جائز الفعل والترك بأن لا يخلقه ولا ملزومه الا بأن يخلق الملزوم ولا يخلقه كسائر اللوازم الممكنة] وهـذا هو اختيار القاضى أبى بكر وامام الحرمين وأيده الفخر الرازى (٢٤) .

---

(٢٣) غاية المراد فى علم الكلام ١٦٦

(٢٤) شرح المقاصد ج١ ٥٩ ، شرح الدوانى على العقائد ج١ ١٧٦ ، مقالات الاسلاميين ٦٤ — ٦٨

ويعلق ابن تيمية على هذا الرأى بقوله : هذا صحيح بناء على أن الله هو معلم كل علم ، وخالق كل شىء لكن هذا كلام مجمل ليس فيه بيـــان للسبب الخاص المصاحب للادراك (٢٥) فى كل حالة ، وهو القـــوة المودعة فى آلة الادراك .

٥ ــ نحن نفكر ونكفى

رأينا كيف ارتبك المفكرون فى بيـــان كيفية الادراك ، وصدوره عن النفس ، ولقد توزعت آراؤهم بين قائل بالضرورة والفطرية ، وآخر بالطباع ، وثالث بالتوليد ، ورابع بالمشيئة الالهية ، ويتبين لنـــا أن اختلافهم فى مسألة حرية التفكير أو عدم حريته لا يتفق مع اختلافهم حول أفعال العباد ، وذلك لأن المعتزلة القائلين بحرية العبد ، وأنه خالق لأفعاله الاختيارية يذهب فريق كبير منهم الى القول بأن النظر والتفكير لا يتم بالحرية ولكن بالضرورة أو بالطبعية أو بالتوليد ، وكلها تبتعد عن حرية الفعل التى نادى بهـــا هؤلاء ، وتجعلهم يتفقون مع الجبريين القائلين باسقاط الحرية الانسانية ، وأن العبد مجبور مقهور ، ولو أننا رأينا القول بحرية التفكير صادراً من المعتزلة لقلنا اتحدت وجهة نظرهم فى الادراك مع وجهة نظرهم فى الفعل ، لكن والأمر كما ذكر ، وأنهم صرحوا بالاضطرار فى المعرفة ، والحرية فى الفعل ، فهذا عجب عجاب ، مكلف أقهر على التفكير ، وهو القاعدة النظرية للافعال ، ومبنى الارادة وأساسها ثم يكون لى حرية بعد ذلك عندما أعزم وأريد فعلا معينا . هـــذا هو الخطأ بعينه ، فلنعلم أننا لو أقهـــرنا على فكرة ما ، لاتجهت ارادتنا نحوها ، وقمنا بالفعل نتيجة توجه الارادة ، فيكون الفعل تابعا للارادة ، والارادة تابعة للتفكير الاضطرارى فيكون الكل بالاضطرار لزوما .

---

(٢٥) نقض المنطق ص ٣١ ، ٣٢ .

ولو أننا رأينا هذا القول للجبرية لانسجم موقفهم فى تفســير الادراك مع رأيهم فى الافعــال . كما انسجم موقف الأشــعرية الى حد ما ، لأنهم قالوا بخلق الله للادراك كما هو خالق للأفعال ، وأن كان مذهبهم هــذا يلغى القوة المودعة فى آلات الادراك ، ويفقدها نشاطها ما لم يمنحها الله نعمة الفهم مع كل مسألة ، وحتى فى تلك اللحظة التى يخلق الله معنى الأدراك فى الانسان فماذا يقول الأشعريون فى هــذا الذى فكر فى شبه يعرقل بها اثبات وجود الله ، هل خلق الله فيه معنى الادراك ليثير شكوكا حول وجوده وتوحيده ؟

ان المسألة تحتاج الى فهم على غير هــذا النحو ، ولقد حاول ابن تيمية حل الاشكال ، فرفض القول بالفطرية والاضطرار فى المعرفة والادراك ، كمــا رفض فكرة الأشــعرية فى أن [المعلوم اقتران أحد الأمرين بالآخر لمحض مشيئة القادر المريد من غير أن يكون سببا للامر ولا مولدا له] ومال الى تفسير الادراك بقانون السببية ، وحشد حول رأيه هــذا فريقا من المؤيدين الاسميين ، أى الذين لم يحدد أشخاصهم وأعيــانهم ، وانمــا حــدد أنواع المعــارف التى ينتمون اليها قال [وأما جمهور العقلاء من المسلمين وغير المسلمين ع أهل السنة من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، وغير أهل السنة من المعتزلة وغيرهم فيثبتون الأسباب ، ويقولون كما يعلم اقتران أحدهما بالآخر فيعلم أن فى النــار قوة تقتضى التسخين ، وفى المــاء قوة تقتضى التبريد ، وكذلك فى العين قوة تقتضى الابصار ، وفى اللسان قوة تقتضى الذوق، ويثبتون الطبيعة التى تسمى الغريزة والنحيزة والعادة ونحو ذلك من الأسماء (٣٦)] وبالتــالى فالقــوة المودعة فى آلات الادراك سبب المعرفة ، والعلم يحصل بهــا فى النفس كما تحصل سائر الادراكات والحركات بما يجعله الله من الأسباب .

---

(٣٦) الرد على المنطقيين ٩٤ .

ويستتمر اعتراض الخصم عليه بأن النظر الأول يقتضي أن يسبقه نظر وعلم بفائدة هـذا النظر وحكم بنفعه وهذا أيضا نتيجة فكر ونظر ثان ، والثاني يحتاج الى ثالث ويتسلسل ، ولذا أراد أن يرد على هذا الاعتراض فقال : ان معرفة الانسان بكونه يعلم أولا بعلم مرجعه الى وجود نفسه عالمة ، ولهـذا لا نحتج على منكر العلم الا بوجودنا نفوسنا عالمة ، ومن نظر في دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمـة عند علمـه بذلك الدليـل ، كما يجد نفسـه سامعة رائية عند الاستماع للصوت والترائي للشمس أو للهلال لم يقرر بأنه [لا يجوز أن يستدل الانسان على كونه عالمـا بدليل ، فان علمه بمقدمات ذلك الدليل يحتاج الى أن يجد نفسه عالمـة بها ، فلو احتاج علمه بكونه عالمـا الى دليـل أفضى الى الدور والتسلسل (٢٧)] ، فهو هنا يقطع الاعتراض السابق ، ويبطل الدور والتسلسل بالحس النفسي وحـده بالمعـرفة .

وبصرف النظر عما في بعض عباراته من ركاكة حينا ، وعما أراد أن يدعم به موقفه من حشد لجماهير العلماء دون تحـديد بعض الاسماء ، فان موافقته للمعتزلة تنحصر في اقرار مبدأ السببية العام ، وليس الاتفاق على تطبيقه في مجال الادراك ، لأن المعتزلة كما سبق قائلون بالضرورة أو بالطباع أو بالتوليد ، وأما هو فيطبق هذا المبـدأ على الادراك ، ولا يبين لنا بشكل واضح اقتضاء السبب للمسبب هل هو بطريق طبعي لزومي ، أو أن الأسباب خاضعة في اقتضائها المسببات للمشيئة الالهية ، واذا رجعنا لرأيه في نقض مذهب الأشعرية ، وقوله بأنه صحيح من جهة أن الله سبحانه معلم كل علم وخالق كل شيء ، وفاسد من جهة اهمال السبب الخاص استطعنا أن نكون فكرة عن رأيه ، وأنه يجمع بين الأخذ بفكرة الأسباب ، وبين اسناد كل شيء الى الله سبحانه ، فيكون الادراك عنده قائما على اعتبار القـوة المودعة في

---

(٢٧) نقض المنطق ٢٨ .

آلاته وهـذه هى السبب ، وعلى أن تلك القـوة لا تستند فى نشاطها الى الاقتضاء السببى اللزومى وحده بل يجب اسنادها الى الله فى كل جزئية من جزئياتها ، وهـذا تأليفنا لمذهبه من خلال وجهة نظره هنا وهناك ، وان كان نفسه لم يصرح بما استنتجناه له مباشرة ، علاوة على ما خالف به أئمـة الفقه كالامام مالك والشافعى وأحمد .

وقول ابن تيميـــة بالسببية فى الادراك يعنى أن معارفنا تتم بالايجـاب ، فكما يقـع المسبب لزوما وواجبـا عند وقوع السبب فكذلك المعرفة ، ورأيه فى هذا يشبه ما يذهب اليه الفخر الرازى فى اثبات الايجاب وحده ، ونثبت هنا حقيقة هامة تتعلق بفكر ابن تيمية ومنهجه ، وتتلخص فى أنه على الرغم من هجومه على المعتزلة والفخر الرازى فى كثير من المواقف الا أنه يوافقهم أحيانا ، وذلك لأن منهجه يقوم على نقد الأفكار ، ورد ما يراه مخالفا لأصول الاسلام الصحيحة وقبول ما يراه موافقا ، ولا يعتمد على على رد المذهب أو قبول جملة ، وهذا المسلك يقتضيه أن يوافق من لا نظن موافقته له ، وأن يخالف من نحسبه يوافقه .

وبعد أن قال ابن تيمية بالسببية فى الادراك وفى غيره فهل يظن أن تلك الفكرة تحل لغـز كيفية الادراك ؟ لا أعتقد ذلك لأننا لو سلمنا بها لاقتضت عدم تخلف المسبب عند وقوع السبب كبقية الأسباب الطبيعية الأخرى التى ضربها وساقها أمثلة على مقدار التشابه بينها وبين قوى الادراك ، مثل قوة الحرارة فى النـار ، والتبريد فى المـاء ، فان كل قوة تقتضى مسببها عند وجودها ، فاذا وجدت النار اقتضت التسخين ، وكذا الماء ، ولسنا نجد قوى الادراك على هذا النحو ، فقد يوجد أشخاص فى موقف ادراكى معين ، ويعـرف بعضـهم ولا يعـرف الآخرون ، ولو سلمنا بالسببية لا تحدث فهومنا ازاء موقف معرفى واحد ، والحال فى كل من الأمرين مختلف ، فقد نعرف وقد لا نعرف ، وعندما نعرف ندرك بدرجات متفاوتة الأمر الذى يجعل التسليم بمبدأ السببية فى الادراك أمرا صعبا .

وهكذا يبدو تفسير الادراك ، وصدور المعرفة عن النفس شيئا غير هين ، وأى جهد مذهبى مشترك ، أو فردى متعمق تتفتت اجزاؤه ، وتتحطم نتائجه أمام ضربات الخصوم ، ولقد وصل الى نفس النتيجة هذه أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز عندما عرض لمشكلة التفسير المعرفى ، وتساءل فى وضوح [كيف يصدر الفكر عن النفس هل هو خاضع للارادة فى احداثه وانشائه كلما عرض أمر يدعو الى التفكير ؟ أم أن صدوره عن النفس حينئذ راجع الى فطرة الانسان ، وما جبل عليه من غريزة حب الاطلاع وكشف الحقائق] (٢٨) ولقد فند طريق الارادة والاختيار بما سبقت الاشارة اليه من ضرورة أن يسبق النظر نظر آخر الى ما لا نهاية ، كما لم يرتض طريق الفطرة لما نشاهده من التفاوت بين ذوى العقول ، وانتهى بعد جولة من المناقشة لكل من الرأيين الى أن الحكم فى تلك المسألة مجازفة غير مأمونة الخطأ ، واذا حاولنا التعمق فى ماهية الادراك فلن نجد الا ما هو أشد التباسا وتعقيدا وبعدا .

وعلل ذلك بقوله (ان تلك القوة العلمية التى نعرف بها الأشياء على ما هى عليه قوة محدودة ، وانما وهبنا الله منها بقدر حاجاتنا فى هذا العالم] (٢٩) من المنفعة بالخيرات وانتقاء الشرور ، والاهتداء الى مبدع العالم ، وهذه أمور يمكن أن نعرفها بعقولنا ، وما سوى ذلك من اكتناه الحقائق ، ومحاولة تتبع الأسباب والكيفيات فهذا ما لا سبيل الينا به ، وليست مسألة اكتناه الادراك وحده بل غيره من أسرار الكون كثير ، فلنقف عند حدود ما نعرف ، ولا نحاول تجاوز ما هو خارج عن قدرتنا .

والعلماء الطبيعيون والنفسيون يكتشفون بين الحين والآخر أن قدراتهم العلمية لا تسير بهم الى ما لا نهاية ، وانما تقف عند خطوات

---

(٢٨) المختار من كنوز السنة المحمدية ٢٦٠ — ٢٧١ .
(٢٩) نفسه : ٢٦٦ .

معينة ، فالأولى أن نعترف بعجزنا عن فهم كيفية الادراك ، وهذا ما أشرنا اليه صراحة فى دراستنا للادارة فى القرآن الكريم من كتابنا « المنهاج القرآنى » ، وأن نثق بما قدمه القرآن الينا من بيان نعمة الادراك فى السمع والبصر والفؤاد ، واثارتها للوعى والفهم ، وأنها قادرة على العلم ، وعلينا أن نديم النظر والتفكر والتبصر ، وأن نجتهد بكل ما لدينا من ملكات كى ننتفع بعالمنا ، ونعرف خالقنا ، وأن نزيل الحجب أمام تلك القوى كى تعى عن بصر ، وبذا نتخلص من لوم القرآن لمن يهمل ملكاته حتى يكون كالأنعام أو من الغافلين .

ونحمد الله على أن جعلنا عقلاء نفكر ونعى ، وفى هذا القدر كفاية ، وألا نتجاوزه الى الايغال فيما فوق هذه الدرجة فهذا ضرب من النظر فوق قدرة النظر ذاته ، وننعلم مع هذا أن الاسلام كلفنا بالتفكير والتأمل فليس لنا أن نتخلى عن ذلك كما أنه ليس لنا أن نتخلى عن عمل الطاعات والعبادات ، وهذا ما نبينه فى النقطة القادمة .

أى درجة من الحكم تقتضيها اثارة الوعى فى القرآن :

اذا تركنا الحديث عن كيفية الادراك ، ومدى حريتنا فيه ، وانتقلنا الى درجة الحكم الشرعى التى يمكن أن تفهم من خلال خطاب الله سبحانه المتعلق بتنشيط الملكات ، ومطالبتها بالتأمل نجد أن النظار من المتكلمين قد اتفقوا على أن التفكر واجب ، وأن معرفة الحق جل جلاله واجبة به لا بالضرورة ، ولا بالمشاهدة . فيجب علينا معرفة الله بصفاته وعدله وحكمته ، ومعرفة ارسال الرسل منه والحكمة من ذلك ، ولانجد واحدا من المتكلمين دون أفكاره الا ونص على وجوب المعرفة ، ووجوب النظر المؤدى اليها [٣٠] .

---

(٣٠) القاضى عبد الجبار ، شرح الاصول الخمسة ٣٩ ، وعبد القاهر اصول الدين ٢١٠ والفرق بين الفرق ٣٢٧ ، والتفتازانى : المقاصد وشرحه ٧٦ — ٨٢ ، وشرح الدوانى على العقائد ١٧١ وما بعدها .

ويستندون فى ذلك الى هذا الحشد الضخم الذى سبق ذكره فى ايقاظ الملكات ، والى أنه جل جلاله طالما لا يعرف بالضرورة ولا بالمشاهدة فلم يبق الا أن يعرف نظــرا واستدلالا ، والنظر أمر مقدور للبشر وليس متعسرا ، والتكليف به ليس فوق الطاقة البشرية ، والمعــرفة الالهية واجبة ، ومتوقفة عليه فيلزم أن ما يتوقف عليه الواجب فهو واجب ، ووجوبه مضيق لا يسع الا النظر وحده .

وبعد اتفاقهم على درجة الوجوب اختلفوا حول أول واجب هل هو النظر أو قصد النظر ، كما اختلفوا فى مصدر الوجوب ، هل هو الشرع وبه قال الأشعرية ، أو العقل وهو مذهب المعتزلة ، أو الامام كما هو عند أغلب الشيعة ، وكل له حججه وردوده على الخصوم(٣١) ، وسوقها هنا يخرج بنا عن روح الدراسة التى نحن سائرون فيها ، ومن أراد الرجوع اليها فليطلبها فى مظانها :

وبالطبع فان طريقــة المفسرين ومن ســلك مسلكهم تختلف عن طريقة المتكلمين فى كيفية عرض المســألة وذلك لأن هؤلاء لا يهتمون بالتفريع والتعمق فى الجدل الذى عليه المتكلمون ، ويكتفون بما ورد فى القرآن من حث على النظر والاعتبار ، ويرون أن الأوامر الالهية صريحة فى لفت أنظارنا الى الكون والنفس وما فيهما ، وعلى سبيل المثال فان الجصاص لمــا عرض لقوله تعالى : [**والاهكم اله واحــد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل**

---

(٣١) التبصير ٣٩ — ١٠٥ ، والشهرستانى الملك والنحل ج١ ٥٩ . ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٦٧ ، ١٩٢ ، ٤٢٦ — ٤٤٢ ومقالات الاســلاميين ج١ ١١٥ — ١١٩ الشــامل للجوينى ١١٥ — ١٢١ .

دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقـــوم يعقلون] (٣٢) قال في تأويلها :

[يعني والله تعالى أعلم أنه نصبها ليستدل بها ويتوصل الى معرفة الله تعالى وتوحيده ، ونفي الأشياء عنه والأمثال ، وفيه ابطال لقول من زعم أنه انما يعرف الله تعالى بالخبر — وحده — وأنه لاحظ للعقول في الوصول الى معرفة الله تعالى] ويختم تفسيره للآية بقوله [فهـذه دلائل قد نبـه الله العقلاء عليها وأمرهم بالاستدلال بها] (٣٣) ونفس الشيء يصنعه القرطبي اذ ينبه عند تفسيره للآية [قل انظروا ماذا في السموات والأرض] (٣٤) قائلا وهذا [أمر للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع والقـادر على الكمال] وعند تأويله لقول المولى عز وجل [ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العـزيز الحكيم (٣٥)] . يقرر أنه انما [نسب التعليم الى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها ، ويعلم طريق النظر بما يلقيه الله اليه من وحيه] (٣٦) ، ولـما تعرض أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي لقضية النظر لم يزد على أن نقل عن أبي سليمان الخطابي رأيه في أن الله حض على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وعلى التفكر فيهما وفي النفس (٣٧) .

وتبعا لهـذا فالقـائل بأن المفسرين والفقهاء ورجال الحـديث ليسوا أهل نظر قد جانب الصواب ، بل كما تشهد أقوالهم يقـرون بصحة النظر ويعتبرونه أصلا متفقا عليه فيما بينهم ، لأن الله أمر

---

(٣٢) البقرة ١٦٣ — ١٦٤ .
(٣٣) احكام القـرآن ج١ ١٠٢ .
(٣٤) من الآية ١٠١ يونس .
(٣٥) البقـرة ١٢٩ .
(٣٦) الجامع لاحكام القرآن ج٨ ٣٨٦ ، ج٢ ١٣١ .
(٣٧) الاعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد ٢٢ — ٢٣ .

به فى كتابه فى غير آية ، ولا يعرف أحد من سلف الأمة ، ولا الأئمة المشهود لهم بالعلم والفضل ممن ذكرنا أنكر التأمل والتفكر واذا ورد عنهم ما يفيد ذلك حمل على النظر بمعنى علم الكلام ، لأنهم رفضوا علمائه ، وما أحدثوه من تفريع فى الأصول ، وما أدخلوه فى الدين مما لبس منه ، فمن وجد شيئا من ذم النظر فليحمله على فن الكلام لا على جنس النظر والاستدلال .

وموقفهم ازاء الاهتمام بالتفكر والاعتبار مبنى على [الأمر بما جاءت به الشريعة(٣٨) فهى سندا تجاهم وأصل الاتفاق فيما بينهم . وهـذا يعنى أن الأمر والحض على التفكر راجعان الى الشرع لا الى تحسين العقل وتقبيحه ، على أنهم مهما رجعوا فى النظر والتأمل الى الشرع فانهم فى اعتقادى لا يرفضـون نظر العقـل قبل الشرع ، ولا يستهجنون ما توصل الفلاسفة الالهيون الذين لم تبلغهم دعوات الرسل ، أو الذين عاشوا فى زمن الفترة بين الأنبياء ، ومن ثم يلزم أن نفرق بين كون النظر العقلى موصلا الى معرفة الله قبل الشرع ، وبين كون الشرع أقر ذلك وألزمه ، وأمر به أمرا مطلقا ، فللعقل أن يصل الى الله بطرقه الخاصة قبل مجىء الوحى ، ولا حرج فى ذلك ، وانه ليتمشى مع قدرة العقل ومركوز الفطر الانسانية ، وأما عملية اسباغ الحكم الشرعى على النظر وحدوده ومجالاته فهذا من جهة الشرع وحده ، وشأن النظر فى ذلك كشأن كثير من الأمور التى تكسب حكمها من ساحة الوحى ذاته ، وهو الذى يحدد نوع الحكم وكيفية الأداء .

هذا هو النظر كما يراه المفسرون والفقهاء ورجال الحديث وغيرهم من رجال السلف ، وقد يكون من المفيد أن نبين نقطة هامة انتبه لهـا أبو حفص الشرنجانى نقلا عن شيخه القاضى أبى جعفر أحمد بن محمد السمنانى وهى أن أول الواجبات ليس هو النظر ولكن الايمان بالله

---

(٣٨) إبن تيمية ، نقض المنطق ٤٧ — ٤٨ .

وبرسوله . وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤديان الى معرفة الله تعـالى .

وهـذا الرأى له وجاهته من ناحيتين :

الأولى أنه يتفق مع حالة الأنبياء فى دعوتهم أولا الى الايمـان بالله دون أن يطالبوا أقوامهم بالنظر توصلا الى المعرفة والايمان . فكل نبى دعا قومه أو أمته الى توحيد الله والاحتكام الى شرعه .

والثانية أنه أقرب الى الصواب وأرفق بالخلق لأن أكثر الناس لايعرفون حقيقة النظر والاستدلال والمعرفة ، فلو قلنا أن أول الواجبات النظـر المؤدى الى المعـرفة لترتب عليه تكفير الجمع الغفير منهم . وألا يدخل الجنة الا آحاد الناس ، وذلك بعيد لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أمتـه .

واذ ثبتت وجاهة هذا الرأى فيكون الايمان مطلوبا دينيا أوليا ، يمكن أن نتوصل اليه بعدة طرق منها البداهة والا وصفاء الفطـرة والخبر الشرعى ، والتأثير الاعجازى ، ويعترف البيضاوى بتعدد طرق الهداية والايمان (٣٩) ، ولقد مر علينا ما قاله الجصاص اذا وضع الخبر مع النظر (٤٠) ، كما أقـر الغزالى (٤١) والفخر الرازى البـداهة مع الاستدلال ، والادراك مع التعلم والتفكر (٤٢) ، ولا شك أن الطرق الموصلة للايمان توصل قطعا فى النهاية لمعرفة الله سبحانه ، واذا حدث الايمان والمعرفة بأى طريق فليس لنـا أن نقول لابد من النظر ، لأن المعرفة قد حصلت بغيره ، وانما يطالب بها من لم يستجب للطرق المذكورة وكان أهلا للتفكر والاعتبار .

---

(٣٩) التفسير ج١ ٣٥ .
(٤٠) راجع احكام القـرآن ج١ ٢ ١٠٢ .
(٤١) انظـر الاحيـاء ج٦ ٦٤ وشرح الدوانى فى العقـائد ١٧١ — ٢٢٦ .
(٤٢) الأعراف ١٨٥ .

وتأكيدا على تلك النقطة نلخص ما ذكره القرطبى فى تفسيره عندما تناول بالتأويل قوله تعالى [**أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء**](٤٢) ، وفيه رد على من يرى أن النظر أول الواجبات ، وأن الله لا يعرف الا به ؛ كما أنه يحمل اثباتا لوجوه متعددة للايمان والهداية والمعرفة قال :

أن ابن رشد ذكر فى مقدماته — وهو واحد من الفلاسفة — أن القائلين بأولية النظر ليسوا على درجة من الحق ، لأن الايمان يصح باليقين الذى قد يحصل بأى وجه حتى لمن هداه الله بالتقليد ، وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله به فى غير آية .

وأيضا ساق القرطبى رد الباجى فى انكاره أولية النظر ، والذى ينحصر فى أن المسلمين أجمعوا فى كل العصور على تسمية العامة والمقلدين مؤمنين ، ولو كان ما ذهبوا اليه صحيحا لما جاز أن يسمى مؤمنا الا من عنده علم بالنظر والاستدلال .

وكذلك لو كان الايمان لا يصح الا بالنظر لجاز للكفار اذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم لا يحل لكم قتلنا لأن دينكم يوجب كون الايمان مبنيا على النظر ، فأخرونا حتى ننظر ونستدل ، وهذا يؤدى الى تركهم على كفرهم وأن يقتلوا حتى ينظروا .

وساق القرطبى ما ترجمه ابن المنذر فى كتاب الأشراف عند « ذكر صفة كمال الايمان » وما ذكره من أنه قد أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر اذا قال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كل ما جاء به محمد حق ، وهو يبرأ من كل دين يخالف دين الاسلام وهو صحيح العقل فهو مسلم ، وان رجع بعد ذلك عن قوله كان مرتدا .

---

(٤٢) نفس المصدر السابق .

وهـذا الحال هو ما ينطبق على ايمان كثير من الأعراب الذين آمنوا بلا دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ، واكتفى النبى صلى الله عليه وسلم ممن أسـلم منهم ومن أمثالهم بالنطق بالشهادتين ، كما اكتفى باشارة السوداء حين قيل لها أين الله فأشارت الى السماء قال لها من أنا قالت أنت رسول الله قال [اعتقها فانها مؤمنة] ولم يكن هناك نظر ولا برهان •

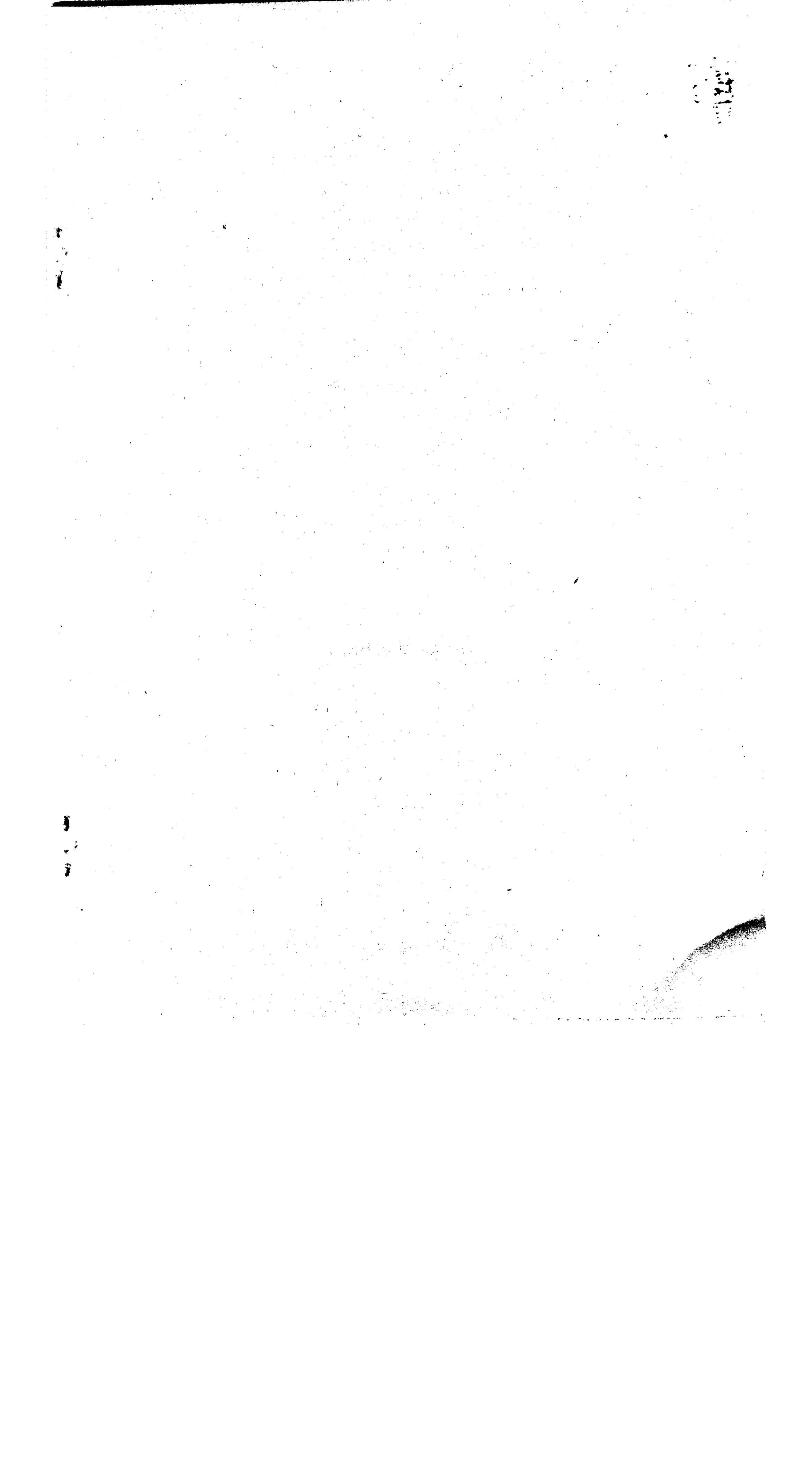
وعلق القرطبى بعـد هذه الأقوال قائلا ، هـذا هو الصـحيح فى الباب واستدل بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقـولوا لا اله الا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » [٤٣] •

هدانا الله الى الايمان ، وكشف عن بصيرتنا ، وأنار لنـا قلوبنا وعرفنا بذاته •

تم بحمـد الله وتوفيقه

---

(٤٣) الجامع لاحكام القـرآن ج٧ ٢٣٠ — [illegible] •



مراجع الكتاب

١ ــ القــرآن الكريم .

٢ ــ احيـاء علم الدين / أبو حامد الغزالى .

٣ ــ احكام القـرآن / أبو بكر بن العـربى .

٤ ــ اصـول الدين / عبد القـاهر البغدادى / الطبعـة الأولى ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م ، استانبول (طبعـة ونشر مدرسة الالهيـات بدار الفنون التركية باستانبول) .

٥ ــ الاعتقاد والهداية الى سبيل الرشاد / البيهقى .

٦ ــ الانتصاف فيما تضـمنه الكشاف من الاعتزال ذيل الكشـاف / ناصر الدين المـالكي .

٧ ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل / القـاضى البيضاوى .

٨ ــ التبصير فى أصول الدين / أبو المظفر الاسفرائينى .

٩ ــ تفسير الثعالبى / للثعالبى .

١٠ ــ تفسير القرطبى / أبو عبد الله القرطبى .

١١ ــ تفسير الطبرى / لابن جرير الطبرى .

١٢ ــ تفسـير القـرآن العظيم / لابن كثـير .

١٣ ــ التفكير فريضة اسلامية / عباس محمود العقاد .

١٤ ــ تفسير الخطيب الشربينى .

١٥ ــ جمهـرة اللغـة / أبو بكر الأزدى .

١٦ ــ الدعوة والانسان / د. عبد الله بن يوسف الشاذلى .

١٧ ــ الرد على من خالف مصحف عثمان / أبو بكر الأنبارى .

١٨ ــ الرد على المنطقيين / ابن تيميـة .

١٩ ــ زاد المسـير / عبد الرحمن بن الجوزى .

٢٠ ــ الشامل / الجوينى .

٢١ ــ شرح الأصـول الخمسة / القاضى عبد الجبار .

٢٢ — شرح الدوانى على العقائد /
٢٣ — شرح المقاصد / التفتازانى .
٢٤ — الصحائف الالهية / شمس الدين السمرقندى .
— طبائع البشر / د. فاخر عاقل — الكتاب السادس يناير ١٩٨٥ م ،
كتاب العربى .
٢٦ — علم التاريخ عند المسلمين / فرانز روزنثال .
٢٧ — علم النفس بين النظرية والتطبيق / د. عبد الرحمن العيسوى .
٢٨ — غاية المرام فى علم الكلام / سيف الدين الآمدى .
٢٩ — غرائب القرآن / القمى النيسابورى .
٣٠ — فتح البارى شرح صحيح البخارى / ابن حجر العسقلانى .
٣١ — الفرق بين الفرق / عبد القاهر البغدادى .
٣٢ — القاموس المحيط / الفيروزابادى .
٣٣ — الكشاف / الزمخشرى .
٣٤ — المختار من كنوز السنة / محمد عبد الله دراز .
٣٥ — مختصر تفسير المنار /
٣٦ — معجم ألفاظ القرآن / مجمع اللغة العربية .
٣٧ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبد الباقى .
٣٨ — معجم مقاييس اللغة / ابن فارس .
٣٩ — المعجم الوسيط / ابراهيم انيس وآخرين .
٤٠ — مفتاح دار السعادة / ابن قيم الجوزية .
٤١ — المفردات / الراغب الأصفهانى .
٤٢ — مقالات الاسلاميين / الاشعرى .
٤٣ — مقدمة فى علم النفس العام / د. عبد السلام عبد الغفار .
٤٤ — المنهاج القرآنى / د. عبد الله بن يوسف الشاذلى .
٤٥ — الملل والنحل / الشهرستانى .
٤٦ — نقض المنطق / ابن تيمية .
٤٧ — نهاية الاقدام / الشهرستانى .

الفهــــرس

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٧/٤٥٣٧